المكتبة العربية

دكتور هانز ساكس

هذا الكتاب
ملك الأستاذ الدكتور
رمزي زكي بطرس

فرويد
أستاذي وصديقي

نقله إلى العربية

سعد توفيق

مراجعة

د. عبد الفتاح الديدي

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة أ.د/رمزي مكي

القاهرة

دکتور هانز ساکس

فروید

استاذی وصدیقی

دكتور هانز ساكس

فرويد
أستاذي وصديقي

نقله إلى العربية
سعد توفيق

مراجعة
دكتور عبد الفتاح الديدي

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٥

الاخراج الفنى

زهور السلام شاكر

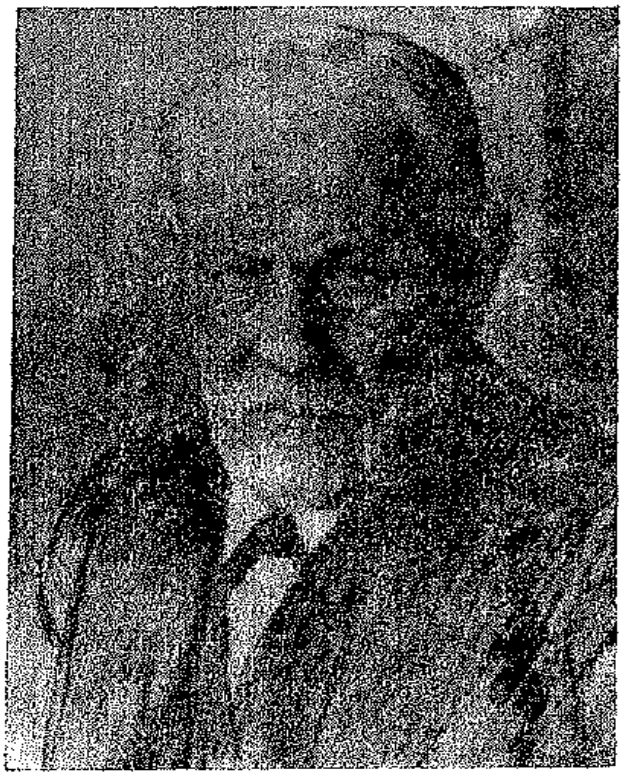

FREUD (from an teching by F. Schmutzer, 1926)

فرويـد (صورة بريشة شويتسر ١٩٢٦)

« ملحوظـة المـؤلف »

التقطت صورة « الخواتم السبعة » الجماعية بواسطة مصـــور محترف فى برلين عام ١٩٢٠ ، وقد أعد لهذه المناسـبة الدكتور ماكس اتينجتون • ولم يتبق فى عالم الاحياء من الذين تمثلهم الصـورة غير دكتور ارنست والمؤلف •

والتقطت صورة « فرويد فى مصيفه » مع كلبيه بواسطة السيد هانز كاسبيروس ، وكان يعيش من قبل فى برلين ويعيش الآن فى لندن •

والترجمة عن الألمانية ، نثرا وشعرا ، قام بها المؤلف ، الذى كان مغرما دائما بهذا النوع من العمل ، كما ذكر فى صفحات هذا الكتاب •

هـ • س

To: www.al-mostafa.com

مقدمـــة المترجـــم

مازالت العبقرية أمل الانسانية الأوحد فى أن تستطيع يوما أن تخرج بها من خضم مشكلاتها ، وحروبها وأزماتها ومصائبها وأوجاعها ، وتقودها فى أمان الى مرفأ الحياة السعيدة الموفورة والى الخلاص النهائى • فقد لوحظ انه اذ يظهر العباقرة يكون لامكانياتهم الخارقة وجهودهم العملاقة الخلاقة من التاثير فى حياة الناس ما لتاثير العناصر الطبيعية كالمعادن والماء •

ومن هنا جاء اعتناء الباحثين فى اسرار السلوك الانسانى واهتمام الدارسين للطبائع الانسانية ، فى كل زمان ومكان باجتلاء سيرة العبقرى وتتبع آثاره فى حياته الخاصة والعامة على السواء • عساهم بمداومة العناية وموالاة الجهود وتضافرها يتمكنون من الوصول الى حـــل لغز العبقرية ويوفقون فى الظفر بمفتاح هذا الكنز الأحوى •

لكن ماذا كان حاصل هذه الجهود المبذولة بصـــدق واخلاص ، على مدى القرون والأجيال ؟

لا شىء تقريبا • فحتى الآن يبدو أن هذا اللغز سيظل ، مثـل كل ما هو انسانى ، أبديا • فلا يكون تفسير العبقرية بالرجوع الى دراسات البيئة والوراثة ولا بالركون الى الحلول التى تقدمها دراســات علم النفس والتحليل النفسى • وهما المرجعان المعروفان تقريبا •

فلم يبق الا أن نقرب من العبقرية فى خشـــوع العابدين واعجاب الواقفين ، ونسجل اسماءنا متواضعين ، فى أعظم المدارس أثرا وأبلغها تاثيرا : « مدرسة عبادة العبقرية » •

أفليست العبقرية هى التى زودت العالم بكل قيمة روحية ؟ وماذا كان يكون حال الدنيا بدون أنبيائها ، وأبطالها ، وقديسيها ، وشعرائها ، ومصلحيها ؟

شجرة بلا ثمار · فالعبقرية أجمل ثمرة بل الثمرة الوحيدة التى استطاعت الانسانية أن تقدمها حتى الآن · ولولا هذه الثمرة لما كانت الحياة على هذه الأرض بالأمر الذى يسهل احتماله ·

ومن هنا كانت العبقرية وعبادة العبقرية بعيدة الأثر فى تنشئة الأفراد وتكوين شخصياتهم والرقى بالمجتمعات ، بل حفظ النوع البشرى بأسره اذ أنه لولا هذا الملح العجيب السحار لتحلل المجتمع وذاب ·

فما ضرنا لو جعلناها المدرسة الوحيدة وحققنا بذلك تلك الصيحة الممتدة من روسو حتى كارليل وبرجسون ؟

لكن العبقرى ، قبل كل شىء من البشر · فكيف نحصل على صورة واضحة الملامح انسانية السمات للمعبود ؟

فالعبادة قد تميل بالعابد الى أن يسلب معبوده انسانيته · فيحيط ميلاده وحياته ، وموته ، بغير المألوف المعهود فى حياة البشر · ويجعل منه أسطورة أو آلها أو شبه آله · وهذا ما فعله القدماء حتى نهاية العصور الوسطى تقريبا ·

وموضع الخطورة فى هذا هو أنه يبعد المسافة بيننا وبينه ، ويضيع الألفة اللازمة لكل عبادة صادقة · فيجعل التمثل والمحاكاة ، والتوحد أمورا شبه مستحيلة ·

وهو اذ يقطع الصلة بين عالم العبقرى والعاديين يوجد هوة توحى دائما بأن لا سبيل الى عبورها · ولا تعد العبقرية نداء ودعوة مثالية · فتفقد أثرها التربوى المنشىء · وهو كل شىء تقريبا ·

بل قد يحدث ما هو أشد خطورة فتغدو العبقرية « وثناء » يقف حائلا دون الحرية والابداع · ولا يرتضى غير الاتباع والتقليد وتقديم القرابين · فتأتى عبادة العبقرية بعكس ما كان يمكن أن يستفاد منها من جليل النفع وعظيم الأثر ·

بيد أن « النظرة الى العبقرى باعتباره انسانا عاديا » العبرى لها أيضا جانبها الخطر · فهى قد تميل الى ترجيح أثر البيئة أو المجتمع أو تبديها نتاجا لقدر تاريخى غامض

بحيث تغدو العبقرية ظلا وخلفية فحسب • وقد تميل الى تغليب تاثير النزعات السفلى ، فتبدو أشبه بزهرة نبتت فى الأوحال • وقد تجعل منها ظاهرة حتمية لبعض تشوهات جسدية لا تتوافر فى العاديين فتلوح مرضا أو شوها تجدر عدم الاصابة به • وقد ساد هذا الميل فى العصر الحديث : عصر التكنولوجيا والمادية العمياء •

بيد انه فى هذا العصر الحديث أيضا ، قام كثيرون ، محتذين حذو بلوتارخ ، من امثال كارليل وأميل لودفيج وزفايج وعباس العقاد بعبء تقديم صور أقرب ما تكون الى الصدق عن العبقرية • الا اننا نحس بعد قراءة اعمالهم اننا قد تعرفنا على عبقريتهم هم اكثر مما تعرفنا على عبقرية الذين يقدمونهم •

ومن هنا ليس امامنا فيما أعتقد غير سبيل واحد : ملاحظة العبقرية عن قرب وتسجيل مظاهرها فى افعالها وردود افعالها اولا بأول •

ولكن حتى هذا السبيل الوحيد نادر للغاية •

فالعبقرية منكودة الحظ ، منكورة الفضل ، مجحودة الحق اثناء حياتها ، فلا يعرف بها غير قلة نادرة من اصدق الأصدقاء واخلص الخلصاء • وهذه القلة يندر من بينها من تحدوه الرغبة الى أن يجشم نفسه ، يوما بعد يوم ، عناء تسجيل ، حياتها الخاصة والعامة •

ولو فعل فماذا تراه قادرا على أن يقدم لنا ؟

لا شيء غير وصف أمين لحياة العبقرى اليومية •

لكنه اثمن واعظم قيمة وابعد اثرا من كل شيء • من عشرات الدراسات التى تعمل بعد جيل أو جيلين من حياة العبقرى ، لانه أقربها الى الحقيقة والصدق• ولانه قائم على الرجل مباشرة • وليس على عمله الذى هو منه بمثابة البعض من الكل • ونراه وهو يخلق عمله فنحسن فهم كليهما اذ ان ثمة اشياء لا يستطيع العبقرى أن يودعها اعماله •

ان دراسة عمل العظيم قد تعلمنا مهنة وقد تزيد قدراتنا • ولكن الاتصال المباشر بالعظيم ومشاهدته يوما بيوم عن قرب ، تكسبنا خلقا ، وتخلع علينا شخصية • وفى كلمة واحدة : نتربى •

ولا جدال فى فرويد كان صنوا لأولئك الأعاظم من الرجال ــ الذين لا تجود بهم الأجيال الا على شح واقلال ــ واحد من أولئك الالهيين الودعاء الذين ترسلهم السماء بين حين وحين ، لتذكر البشر بعالمهم المفقود

الموعود ، بأن تزيد من قدرتهم على التحرر من اسـر شراك هذا العالم الساقط • واحد يدل على أن روح بروميثيوس لم تمت عبر الزمان •

فقد استطاع بجهد لا محدود اختص به صفوة الرجال وحدهم ، وبشوق لجوح تذوب فى تطلعه صعوب المجهول الأبعاد والحدود ، وباحداس العبقرية اللماحة الكاشفة أن يسبر الكثير من اغوار الذهن البشرى ويزود الانسانية بقيم روحية جديدة • ويضع بين ايديها اداة تحسن بها فهم نفسها • فلم يعد الانسان بعد فرويد مثلما كان قبله • وما حاولت القرون عبثا ادراكه ، قد ادركه فى ضوء ذهنه الساطع •

ولا شك فى انه كان أعظم من عمله بكثير • فعمل العبقرى دائما يعض روحه • أى يعض ظلال تلقيها عبقريته الخلاقة وشخصيته العملاقة • وانه كان لديه المزيد ليقوله قبل أن يختم الموت الى الأبد شفتيه • فالفكر له قدمى اخيل اما التنفيذ فيتحرك كسلحفاة •

وهو كاى بروميثيوس قد تحمل اثناء حياته •• قدره المعذب •

وبعدها أيضا ••

فبعدما يقضى العبقرى يصبح عذابه ابديا • ذلك لأن حياته وعمله يغدوان عرضة لكافة انواع الافتراءات التى ترجع الى سيادة العقلية السوقية • فلا شك أن نيتشه قد تعذب بعد وفاته عندما ارتكبت كل حقارة باسمه على ايدى النازيين اشد مما تعذب اثناء حياته الحافلة بشتى ضروب العذاب وربما لم تكن الجوارح التى قضت الآلهة بأن تظل تنهش الى الأبد كبد مانح المعرفة الا رمزا لما تفعله الغوغاء بالعبقرى وعمله •

ومن هنا تتضح قيمة التسجيل الأمين لحياة العبقرى اليومية • ليس لما تتجه لنا من فرص المتعة بشرارات الذكاء واشراقات الحكمة ، اذ انه بمقدورنا أن نجدها فى عمله على نحو افضل • واجمل • بل لما تبيحه لنا من فرص التعرف معرفة أوثق على شخصية ندين لها باحترام لا تنقص منه الأيام • فبعد أن نسمعه وهو يحدثنا بصوته الطبيعى وبعد أن نشهده فى طرقه الخاصة وهو يتصرف ازاء احداث حياته اليومية تصبح افكاره كلها واعماله كلها دفاقة بالواقع نابضة بالحياة • فالرجل وعمله يلقى كل منهما ظله على الآخر •

وفرويد واحد من قليلين من العباقرة الذين أتيح لهم هذا الحظ : حظ وجود تابع أمين وعابد مخلص ينقل عنه للاجيال التالية ما كانت تسمعه منه يوميا اذناه وتطالعه منه عيناه •

فقد عاشـر هانز ساكس استاذه وصديقه فرويد ثلاثين عاما ، أى منذ البداية الأولى لعلمه الجديد حتى اخترمه الموت ، معاشرة التابع ، والمساعد ، والزائر ، والصديق ..

لذا فالكتاب وثيقة هامة عن حياة المعلم الأول للتحليل النفسي ونضاله الذى لم يعرف لينا ولا هوادة من أجل علمه : ذلك الطاغية الذى لم يكن الرجل يستطيع العيش دون ان يقدم له فى كل لحظة قربانا من روحه وجسده .

وهو من جهة اخرى وثيقة أدبية ضاع ـ كما هو الحال فى كل ترجمة ـ قدر من حلاوتها ورونقها . فمؤلفه أديب اشتغل بالأدب فترة من الوقت ثم قاده الأدب ، مثلما قاد كثيرين غيره الى التحليل النفسى . ويخيل لى أن الأدب بمعنى من معانيه وخاصة الأعمال العظيمة منه ضرب من التحليل النفسى . فكلاهما معينه النفس البشرية ، هذه الهاوية التى لا تقل أغوارها عن أغوار البحر عمقا ومرارة ، وثراء . وقد ألقى هذا الميل ، فيما بعد ظله على عمله بالتحليل النفسى ، وجعله يكرس جانبا من جهده العلمى لخدمة الأدب والفن ، فله فى التحليل النفسى للفن ، كتابه الرائع « اللا شعور الابداع » الذى قمنا بترجمته . ونرجو ان يرى النور عن قريب .

وهو من جهة ثالثة وثيقة رائعة من وثائق التحليل النفسى فهو ، كواحد من ائمة المشتغلين بالتحليل النفسى لم يكتف بأن يقدم المادة التى يحوزها وحده عن استاذه وصديقه العظيم ، بل أعمل فيها عمله وسلط عليها فى الكثير من المواضع أضواءه . فهو حين يتحدث عن « فيينا » المدينة التى شهدت مولد فرويد ومولد عمله نراه كأدق ما يكون العالم ، أعنى حائزا لتلك الصفة التى تبينها فى استاذه وصديقه الا ، وهى القدرة على استخلاص أعظم النتائج من ملاحظة ابسط الظواهر .

والكتاب أخيرا يمكن أن يعتبر تاريخا « باطنا » لحركة التحليل النفسى قام به عالم شاهد كل شىء عن قرب ومن الداخل . فتتبدى لنا عبر صفحات الكتاب حياة حركة علمية ، لا تقل . ـ بنضال قائدها وجهود حواريه وكيد خصومه ومهاجميه ، فتونا عن تاريخ أى نضال وطنى أو حركة عقائدية .

واذا لم يكن هناك ما يترك فى النفس انطباعا أشد عمقا من نتاج حياة كاملة ، ويوحد بينهم فى عاطفة قوية ، فان هذه الحياة نفسها لها بالتالى نفس الأثر .

سعد توفيق
القاهرة ١٩٦٨

الفصـــــل الأول

مـــاذا ولمـــاذا

سيتحدث هذا الكتاب عن الرجل الذى وضع أسس التحليل النفسى ، والذى عرفته معرفة وثيقة منذ المراحل الأولى لعلمه الجديد حتى ختم الموت حياته • وما قصدت عند وضع هذا الكتاب أن يكون ترجمة كاملة وافية لحياته • اذ يلزم لعمل كهذا اشياء كثيرة ليست فى متناول يدى • من بينها الرغبة فى القيام به • ومن ثم فان هذا الكتاب لن يعنى بعرض علمه ، كما لن يعنى أولا وخصوصا بفرويد العالم بل بفرويد اســـتاذى وصديقى •

ويمكن اعتباره شاملا لقطعة من سيرتى الذاتية بمعنى من المعانى فهو يتعلق بشخصية الرجل الذى شغل ولا يزال يشغل اهم واكبـر جزء من حياتى • أما ماعدا ذلك من بقية حياتى فليس بذى اهمية فى نظر الناس عامة مهما بلغت قيمته عندى • كانت لحظة القدر بالنسـبة لى ، عندما فتحت صفحات كتابه «تفسير الاحلام»(١) للمرة الأولى• مثلها مثل الالتقاء بالمرأة المقدرة للانسان ولكن بنتائج افضـل ولا شـك • كنت حينذاك يافعا « كشابا عليه أن يدرس القانون • ولكنه لم يكن يخضع حياته لذاك الغرض • وكانت حالى نمطا شائعا بين ابنـاء الطبقة المتوسطة بفيينا قرب نهاية القرن •

وما كدت أنتهى من قراءة الكتاب حتى تبينت انى قد اهتديت الى الشىء الوحيد الذى يستحق ان اعيش من اجله ، ثم اكتشفت بعد سنين عديدة أنه الشىء الوحيد الذى أستطيع أن اعيش به •

---

(١) يعتبر كتاب « تفسير الاحلام » الذى نشره فرويد عام ١٩٠٠ حجر الزاوية فى مؤلفات فرويد ، وفيه اماط اللثام عن لغز الأحلام •

« المترجم »

كان فرويد ، عندما التقيت به شخصيا الحدث الأكبر والمغـــامرة الأخطر فى حياتى ، فعندما اتطلع الى ماضـــى الآن اتبين ان العـلامات المميزة هى المراحل المختلفة لعلاقاتنا المتبادلة واستجاباتى ازاء اكتشافاته الجديدة وأفكاره المستحدثة • وكل ما عداه مما جرى لى فى حياتى مهما كانت درجة انفعالى به ، لم يتبق لى منه غير ذكراه كأنه بعض دمى أو بعض عظامى ، وان بدا غريبا كأننى خبرته على سـطح كوكب آخر • ولكن للأشياء المتعلقة بفرويد طابع مختلف • فهى منى الآن مثلما كانت من زمان مضى أعنى انها أشد خبراتى نبضا بالحياة •

وليس معنى اعتيـارى هـذا الكتاب سـيرتى الذاتية أننى سـوف أخطف منه الأضواء • بل على النقيض ، لقد طرحت منذ أمد بعيـــد كارها فكرة الكتابة عن فرويد الا بطريقة يستبعد منها كل ما هـو شخصى اســـتبعادا تاما • فلست بالذى يؤثر أن يدرج فى عـداد أولئك الأقزام الذين يزهون افتخارا بصداقتهم لعملاق • وتزداد هذه الصداقة فى أغلب الأحيان عراقة بعد أن يخترم الموت العمـلاق • ففى ذات يوم (حدث ذلك فعلا ذات يوم) تلفت حولى فتبينت أنه لم يتبق على قيد الحياة غير قلة من أولئك الذين كانوا من تلاميذه المقربين وعاشروه عديد السنين وكانت لهم بشخصيته أوثق الصلات • وعندئذ ادركت مسئوليتى وقبلتها •

وثمة شخصية أخرى اتيحت لها فرص للملاحظة أفضـل منى وكانت علاقتها بفرويد أوثق وأمتن وأعنى بها ابنته الصغيرة « انا » • وانى لعلى يقين من أنها تشـعر بعين المسئولية اذ تؤدى ما يمليه عليهـا واجبها الآن فى لندن من العناية بنفوس وأجســـام الأطفال الذين أصـــابتهم أهوال الحرب بأفدح الأضرار ، مكرسة فى سبيلهم كل وقتها وطاقتها ، وستتحمل عبء هذه المسئولية فى الوقت المناسب • لقد كانت أبان توطد عـلاقتى بفرويد (١٩٠٩ ــ ١٩١٨) من الغضاضة بحيث لم تمكنهـا المسـاهمة فى الدور الذى ألقى على عاتقها فيما اســـتقبلت من أيام • لكن لابد من اشتراكها اذا ما انعقدت النيات على تأريخ سـيرة فرويد بطريقة كاملة شاملة • فهى تملك كل ما يمكن الاحتياج اليه فى هذا الصـــدد أعنى : المادة ، والوثائق ، والطاقة ، والمقدرة •

ليس كتابى هذا قائما على البحث والدراسـة • فهو لا يسـتهدف تناول منظورات تاريخية • بل يروى ما حدث أمام عينى ، ويصفه بطريقة كيفية تأثيره على ذكراتى • سيخبركم هذا الكتاب بما قاله فرويد ، ومتى وكيف • واذا كنت سأرسل الحديث فى صيغة المتكلم فلأن هذه الطريقة

تقزينى من رغبتى فى الظهور بمظهر المسجل الأمين ، لا الممثل المكلف بأداء دور فى مشهد · فلست راغبا فى الحيدة عن طريقى لأتحدث عن أفعالى وأقوالى · وليس هذا بالأمر العسير ما دام الظل الذى تلقيه شخصيته يفوق ظلى فيحجبنى تاماما ويناى بى عن الأنظار ·

لقد ذكرت أنى بعد أن تبينت مسئوليتى تحركت للكتابة · أجل ، هذا واجب الذين لم يخترمهم الموت بعد من الذين خابروا رجلا عظيما وخبروا الصفات الوثيقة بشخصه، حيال الأجيال القادمة · وأين هذا الذى لا يرغب فى نيل ما يوليه العالم بأسره من تقدير لأولئك الذين تجشموا عناء تسجيل أحاديث المائدة للوثر يوما تلو يوم أو لاكرمان فى أحاديثه مع جوته؟ و لما تتيحه للناس من فرص المتعة بشرارات الذكاء واشراقات الحكمة، فبمقدورنا أن نجدها فى أعمالهم على نحو أفضل وأجمل، بل لما تبيحه لنا من فرص التعرف معرفة أوثق على شخصية ندين لها باحترام لا تنقص منه الأيام · اذ أننا بعد أن سمعناهم يحدثوننا بأصواتهم الطبيعية وشهدناهم فى طرقهم الخاصة يتصرفون ازاء أحداث الحياة اليومية تصبح أفكارهم كلها وأعمالهم جميعها خفاقة بالحياة مليئة بمشاهد الواقع الجديدة · فالرجل وعمله يلقى كل منهما ضوءا على الآخر* ·

هذا الاهتمام الذى يتحرك ابتداء من أعمال المؤلف ، يثيره أولئك الذين يعالجون المشاكل الانفعالية كالشعراء والفنانين ، والأنبياء ، والميتافيزيقيين ، ولكن ليست الحال على هذا المنوال ضرورة بالنسبة الى العلماء · فهم يثيروننا فى حدود ما يهمنا من أعمالهم · فاذا أغلقوا خلفهم أبواب معاملهم أو مكتباتهم تلاشى اهتمامنا بهم فى أفعالهم الخارجية على الأقل ·ولكن ليس فرويد بالذى يدرج فى عدادهم · لأن الرجل الذى جال فى مجاهل العقل ، واكتشف ينابيع الحب الخفية ، والرغبة والوجدان يستحيل أن لا يكون شخصية مشوقة ــ بل فاتنة · لقد استحال عليه أن يبدو عاديا وأن تزول عنه سمات عمله ، لأن هذا لم يكن فى طوقه لحظة واحدة · فهو قد جعل من عقله معملا رئيسيا له ، فصار تحليله لذاته الذى لا يفتر أساسا لكل كشوفاته التحليلية · ورغم استبعاده لذاته من اعماله فانه لم يستطع تجنب تصوير حياته الداخلية من حين لآخر ، وخاصة فى « تفسير الأحلام(٢) » ، فأصبحت شخصيته بالنسبة لقرائه

---

(٢) يشتمل كتاب « تفسير الاحلام » على قدر ليس بالقليل من احلام فرويد الخاصة .

« المترجم »

جامعة بين الوضـــوح والغموض مثلها مثل شخصية اى كاتب عظيم أو شاعر مجيد ٠

وفضـل القليل من الكتب التى من هـذا النوع العاطفى عـام حتى اننا نأسف على عديد الفرص الذهبية التى ضاعت الى الأبد ٠ وما الذى نشعر به حيال تسجيل من عصر اليزابيث ينقل الينا الأحاديث التى دارت رحاها فى حانة مرميد(٣) (أغلب الظن انها لا تصلح للطبع) ٠ وكم يكون مغنما لو ظهرت الى النور مذكرات دون فيها صديق من اصدقاء جاليليو أحداث حياته اليومية ، وصفاته الذاتية ، وشذورا من أحاديثه العادية ! انها قصة لا تفتأ تتكرر دوما ٠ فما دام العظيم يسعى حيا بين الناس أو بعد رحيله لا يتبين المحيطون به ضرورة تدوين ما ينبض أمـام عقولهم بالحيـاة ٠ اذ يبدو لهم هـذا العمل معوقا لذكراه اكثر منـه اثراء لها بالحياة ٠ وتظهر موانع تعترض الحديث صراحة عن المســائل الذاتية والمشاكل الشخصية ٠

ويشعر كاتب الذكريات ذو النظر البعيد شعور اليقين أن مشاعر نفرمن الأصدقاء الأقدمين سينالها الأذى ان لم يتذرع بقدر كبير من الحرص ٠ فاذا ما سلك هذا المسلك تبين أن ما يصفه لا يستحق عناء الكتابة ٠ كما أن وضع مشاعر الآخرين ومشاعر المرء الخاصة موضـــع الحرج ليس بالأمر المشجع ٠ ومن ثم يفلت الوقت الملائم وتغدو الكتابة فى غير أوانها عندما يزمع ذلك بعد سنوات قليلة ٠

ولا يستحق كل هذا ان يقال الا اذا افترضنا أن فرويد كان بلا جدال ندا لهؤلاء الأعاظم من الرجال ، وواحدا من أولئك الذين لا يجود بهم كل قرن ، والا يغدو كتاب كهذا عبثا ٠ والآن هناك شـكوك كثيرة فى ذهنى سأحاول الكشف عنها ومناقشتها ولكن ليس لدى ما أقوله حـول هذه النقطة الحرجة ولن أعطيها فكرا آخر ٠

وأول نقص أواجهه هو افتقارى العام للموضوعية ، وهذا ما أعترف به صـــراحة دون مواربة ٠ فليس من المعقول أن ينتظر منى أن أكون موضوعيا اذ أعالج غير جوانب حياتى وأجدرها بالاعتبار ٠ فأنا لم أفكر

---

(٣) حانة « حورية البحر » وكان يرتادها شكسبير ويخـالط فيها روادهـا من البحارة وحثالة القوم ٠

« المترجم »

قط فى الكتابة عن فرويد كموضوع ولن أشرع فى ذلك الآن · أيعنى هذا الحكم مقدما على ما ازمع الادلاء به بأنه مادة موثوق بها جمعها متحمس عميت عيناه عن الفحص والنقد ؟ أى بوزويل(٤) ، المقدس أقبل لنجدتى ! فأنت لم تر غضاضة فى مصارحة قرائك وكل من أراد أن يسمع (وكثيرون لم يريدوا) بأنك وضعت دكتور صموئيل جونسون موضع الوثن المعبود ، فهل يضع هذا عملك أو شوه أصالته ؟ على العكس تماما ، فجونسون الذى وصفته أقرب الى الواقع والصق بالحياة وأقرب الى الحقيقة من جونسون كما تكلم عنه جونسون نفسه كما يظهر فى كتابه Rassela أو كتابه* Rambler فالعبادة فى التقدير تضيف الى الحقيقة اكثر مما تحيف بها ،بشرط أن تبلغ الكمال فى أصالتها · اذن عندئذ يكون ذهن المؤرخ مفعما بموضوعه ويدفع الكلمات منه بدون توقف اندفاع السيل من قمم الجبال ، لأن ايمانه بعظمة بطله وطيبته وامتيازه يكون من الرسوخ والوثوق بحيث ينأى به عن التفكير فى استبعاد خطاياه أو عيوبه ، لأن كل من يشعر مرغما بوجوب الدفاع عن معبوده أو تجميله وتنزيهها مثله الأعلى ليس بالعابد الذى يقف موفور الايمان أمام محراب معبوده ·

ليست الذاتية(**) عين الزيف أو ما شاكله كالتسجيل المبتسر للأحداث أو السرد الزمنى المضطرب · كما أن هناك باعثا ذاتيا محضا يعصمنى ويردنى ان أردت عن الصدق حيادا ، الا ، وهو أن : موضوعى ومعبودى لن يسمح لى بذلك · فبعض كلماته الساخرة القارصة ستصك اذنى ، وتجعلنى أسقط معجلا أية محاولة أبذلها للادعاء أو الاخفاء

---

(٤) هولى بوزويل كاتب انجليزى معروف عاش فى أواخر القرن الثامن عشر ، وقد عاشر الكاتب الناقد الانجليزى الشهير دكتور جونسون ، وكتب عنه كتابا رائعا يحوى تسجيلا لأحاديثه الخاصة ، وخصائصه الذاتية .

(★) يعتبر هذان الكتابان اللذان ألفهما دكتور جونسون من مشاهير الكتاب الانجليز ، من خيرة الكتب فى النقد الانجليزى .

(★★) الذاتية منهج فى الدراسة والنقد يعتمد على تأثرات الباحث الدارس الخاصة ، وميوله الشخصية ، وانفعالاته الذاتية ، بحيث تكون أحكامه صادرة من نفسه ، معبرة عن موقفه ووجدانه .

والذاتية نقيض الموضوعية التى تعتمد على (الشىء) أو الشخص الذى تتناوله بالدراسة بما يحوى من صفات وما يظهر لنا منه من خصائص بحيث تكون أحكامنا آخر الأمر مبنية على الموضوع الذى ندرسه ، دون أن يكون لميولنا وتأثراتنا الذاتية أدنى أثر فى هذه الأحكام .

« المترجم »

كما أن التزنييف سيغدو حين التحدث عن فرويد أمرا منفرا · « صاع يصاع » ! فالرجل الذى بدد أعذب أواهم البشرية وأزاح الستر عن أقدس ألوان خداع الذات ليس بالذى يصلح موضوعا لجميل الكلمات أو لأفعال التجميل ·

وهنا أعلن مقدما أسفى على انه ليس عندى ايحاءات لابداء عيوب دميمة خفيـــة ضمنت الكتمـــان · انهم كثيرون أولئك الذين لم يتخـلوا لحظة عن أملهم المفضـــل فى أن يتضح يوما أن الرجل الذى أبدع احساسا تلو احســـاس ، وكان اسمه محط القيل والقال ، كان يحيا حياة مفعمة بالمغامرات المثيرة مغامرات تندرج فى مجال العشق بطبيعة الحال · لكن خاب ما كانوا يأملون ، ولن يستطيع هذا الكتاب أو أى كتاب آخر يلتزم جانب الصدق أن يحقق لهم ما يرتجون · ومعنى هذا انه ليس لدى شىء أمنحه غير حفنة من صفات شخصية عميقة فى انسانيتها تصلح لأن توضع فى كتاب يحكى قصة ، أعنى بعض صفات من تلك التى تكسب الوجه حياة يقصر دونها تمثال من الجص · ولم يحدثنا بوزويل أن دكتور جونسون قد ارتكب جريمة قتل أو انه هتك عرضا ·

لقد أسلفت القول انى لم « ادرس » ابدا فرويد ولم يخطر بخاطرى لحظة أن أجعـــل من عقله مادة بحث منظم · فقد اعتبرت هذا « قلة ادب » والحياة تتردد بين شفتيه · ولازلت حتى اليوم أعتبره كذلك ·

وان ســـئلت : « ماذا تعرف عنه ؟ » « أو » ما قيمة البصيرة التى استطعت أن تتطلع اليها ؟ « أجبت مؤيدا بوثائقى : » أعتقد انى استفدت من الفرص التى سنحت لى ، وقد كانت ذات عطاء سخى الى اقصى حد · ودامت علاقاتنا نيف وثلاثين عاما بدأتها عضـــوا ضمن جمهوره الضئيل العدد ، ثم أصبحت تلميذه ثم أضحيت أحد أتباعه المقربين ، ثم أمسيت زائرا دائم التردد على بيته ، وصرت مساعده وزميله آخر الأمر · وكان طيلة الوقت أوضح شخصية فى حياتى وأهمها · أيكفى هذا ؟

أعتقد ذلك · اذا لم نخرج من الحسبان عاملا هاما ، ألا وهو : ان كل الفرص فى الدنيا لا تمنح غير كتلة ثقيلة الوزن من المادة الخام ، ولو توافرت الرغبة فى الاستفادة منها الى اقصى درجة · وليس علماء النفس المسلحون بعلمهم خيرا من عامة الناس عندما تحدوهم الارادة الى فهم عقل مبدع تمارس عملها فيه عوامل غير عادية مستهدفة نتائج مدهشة · فامثال هذه العقول تتضمن شيئا لا تســـبره الافهام · أعنى انها تحوز

موهبة هى هبة من الطبيعة وغريزة خفية المصادر والأصول • وقد حازها فرويد فى اقصى درجاتها • فقد كان سيكلوجيا يدرك الحقيقة « بالحدس » حتى قبل أن يخطو أولى خطواته على درب التحليل النفسى بوقت طويل(*) • فليس « تاريخ الحالات المرضية » التى سجلها فرويد مجرد مجموعات مكومة من « الدوافع » « والعقد » و « الكوابت » تماثل النماذج التشريحية اذ تبدو فى مظهرها من العضلات والعظام • فالحالات الفردية تطبع نفسها على عقولنا كأنها شخصيات نابضة بالحياة • ويبدو اننا نحن الذين نبرز وجوهها وتعبيراتها الفردية • فهى نتيجة لذلك تسترعى انتباهنا بأساليبها وعاداتها وأفراحها واتراحها ، بطرقها فى الحب والبغض كأنها شخصيات أبدعها فنان عظيم(*) • وهذه العلاقة الوثيقة بين الفنان والعالم ليست أمرا مثيرا للدهشة أو شيئا عديم النظر •• فابداع المؤلف فى الأصل لشخصياته الدرامية واعادة ابداعها بواسطة العلم فى صورة الأشخاص الأحياء ينبعان أساسا من نفس المعين • وينتج عن هذا أن السيكلوجى الكامل أو المؤرخ لسير الأشخاص ينبغى ألا يكون عالما فحسب بل فنانا كذلك وليس فنانا تافها ، لا يفضل عالما يستغلق عليه فهم كتاب مدرسى فى علم النفس •

(★) يقصد ان العبقرية لغز لا يمكن حله ، مهما حاولنا تتبعها الى مصادرها ومنابعها الاولى ، ومهما تدرعنا فى سبيل هذه الغاية ، بوسائل وطرق فى البحث والدراسة . وحتى علم النفس لا يفضل فى ذلك غيره من الوسائل . ان كل ما يستطيعه هو أن يكشف لنا عن بعض مظاهرها وخصائصها ، كما فعل فرويد نفسه فى دراسته عن « ليوناردو » .

« المترجم »

(★) فى هذه الفقرة ايضاح لعبقرية الفنان الخالقة . فالفنان يخلق نماذجه بنفسه ، فهو لا يصور الأشخاص كما يبدون فى الواقع بل يعيد خلق الأشخاص . فهو عندما يتناول من الواقع شخصية من الشخصيات ، يظهر ما خفى وكمن من نفسيتها ، ويوضحها ويحللها .

« المترجم »

وعندما يتناول عالم مثل فرويد شخصية من الشخصيات ، ولتكن « ليوناردو » مثلا ، فانه يفعل بها مثلما يفعل الفنان . فشخصية ليوناردو فى واقع الحياة ليست من الوضوح والعمق النفسى كما صورها فرويد فى كتابه المعروف عنه . وهو كان يفعل نفس الشىء مع كل شخصية تأتيه للتحليل ، فيصل ما بين الشذرات النفسية المتقطعة التى لا التئام بينها ولا انسجام ، ويبحث للعلة عن معلول ، ويوضح ويفسر ، حتى تكتسب الشخصية فى النهاية العمق والأبعاد النفسية المنتظمة ، وتلقى عبقريته هنا وهناك ساطع الضوء ، فاذا كل ما كان غامضا ، ومستورا ، ولا معنى له ، وأجزاء ممزقة متنافرة ، قد أضحى كلا ملتئم الأبعاض واضح السمات ، مفهوم البواعث والعلات .

« المترجم »

ان اظهار فرويد دونما زيف اثناء القيام برسم صورته السيكلوجية يبدو أمرا عسيرا بالنسبة لتابعه • مهما يكن من شيء فانى سأستجمع ذكرياتى عن سماته الشخصية الجوهرية ، وانظم ما وسعنى الجهد ماقاله وما فعله فى كل ظرف من الظروف والمواقف ، كمعلم وككاتب ، وكمكتشف وكمناضل ، وكزوج وكوالد ، سـواء كان بين المقربين منه أو الغرباء عنه • وعلى هذا النحو ستنتج صـورة واضحة المعالم والسـمات قد يتخللها ـ ان رضيت الآلهة ـ نفس من حياة يجعلها تلقى فى عيون الناس قبولا ، فاذا لم يأت الأمر كذلك ، فانها ستصبح كوما أصم ينتظر تنقيب المنقبين عن أحداث التاريخ فيما سيقبل من سنين ! مهما يكن الأمر ، فانى على يقين من ان المادة التى أحمل مفتاحها تستأهل الصون • وسأستخدمها بطريقة من الطرق •

هل أنا الآن أكثر استقلالا ، أعنى أقل خضـوعا لتأثيره الآن بعد سنين عديدة من رحيله ، مما كنت فى أثناء حياته ؟ هذا ما لا أظنه ولا أريده ، ولو أعاننى ذلك على تحقيق غرضى وان كنت أشك فى ذلك • لقد اقمت بعض قواعد تحدد سـلوكى ازاءه ، بمجرد ان بدأت أعتبر نفسى تلميذه (بمعنى شخصى خاص) • وهى تقدم فكرة واضحة عن مدى استقلالى الذى لم يزدد اتسـاعا على مدى السنين • لقد قررت أن أتمسك بالموقف العلمى ازاء المسـائل العلمية فلا ارتضى قبول شيء تسليما ، لكن على تحرر فى الأفق ، فاقف من آرائه موقفا متعاطفا مهما بدت للنظرة الأولى مثيرة للدهشة والغرابة • واعتقادى انى ما أصبحت بعد وقت عميق الاقتناع بأنه ما جانب الصواب أبدا ، بسبب التحيز له • اذ بالنسبة للمادة المكونة لـ « نظرية التحليل النفسى » لا توجد غير بضع نقاط ضئيلة تساورنى حولها الشـكوك لكن ما من نقطة واحدة أخالفه فيها • لكنى كنت أخالفه بالنسـبة للموضوعات العامة أعنى ما يسمى أمور الدنيا Weltanschauung • فكان يمـازح عادة تفاؤلى الراسخ • وحدث ذات مرة ابان الحرب العالمية الأولى أن جلسنا نأكل معا فى مطعم وكان زوج ابنته ثالثنا فقال : « طعمت اليوم بصحبة أعظم متشائم وأعظم متفائل بفيينا » • لكنه فى التشاؤم لم يكن بالناقم الساخط •

فاذا وصل الأمر الى حد الأمور العلمية تغير موقفى تغييرا • فهنا كنت أرى الأجدر بى تجنبيه المنازعات والمجادلات بدلا من صـون نفسى من التضحـية الذهنية • كنت اذا اختلف رأيى مع رأيه أقرر ذلك أمامه صراحة • وكان يتيح لى المجال فى كل حال لأوضح وجها نظرى مغيرا

اياى عن طيب خاطر أذنا صاغية • لكنها نادرا ما حركت منه ساكنا • فقررت بعد ذلك الاتفاق مع قراراته بلا تحفظ ، والتصرف بالطريقة التى يريدها طارحا كل جدال ، وكان يتضح لى أحيانا صواب الموقف الذى تنازلت عنه اكراما لخاطره • لكن قيمة الوقت المكتسب بفضل تحاشى المناقشات كانت تربو على قيمة ما نتج من خطأ غير مرتقب • لقد تبينت انه كان يصعب عليه امتثال آراء الآخرين بعد أن يكون قد كون رأيه بنفسه على امعان وامهال • واعتقد أن الاكتشافات الكبرى تتم على هذا المنوال •

أريد أن أكون صادقا دونما ادعاء أو تواضع ، لكن ما دمت أنوى الادلاء بكل شىء سواء كان سارا او غير سار ، فليس بمقدورى أن أجنب نفسى اعترافا يكلف حبى لذاتى غرما أضخم مما لو كتمته ، ولكن كتمانه سيخلع على كل شىء هنا غموضا • فانجاز عملى بالطريقة التى اريدها يقتضى منى ان أحدد موقفى بوضوح •

وهذا هو اعترافى : لدى مايدعونى الى الاعتقاد بان فرويد لم يكن يجد فى بعض تلك الصفات التى تقع من نفسه موقع التقدير الزائد • كان ثمة شىء مفقود فى الرابطة التى تربط بيننا ــ ذلك الشىء الذى يؤدى الى التوافق التلقائى بين شخصيات من نفس النوع وعلى نفس المستوى • ولست أعنى به التباين فى مستوانا الذهنى ، ولا الهوة التى تفصل العبقرى عن غيره من ذوى العقول العادية • ولم يغب هذا الفارق عن ذهنى أبدا غير انى سلمت به كأمر لابد منه فى العلاقة التى تجمع بين الأستاذ وتلميذه الدائم • ولكنه وجد هذه الصفة التى كنت افتقر اليها فى آخرين من الذين كانوا مثلى معتبرين ضمن اتباعه المقربين : وجدها فى فرنشيزى وابراهام ورانك على وجه التأكيد واليقين (الى أن جاء وقت طرأ فيه تغير كلى على شخصية رانك أودى بكل الروابط بينهما) • ثم وجدها فيما بعد ،بدرجة تزيد عما توافر لأى انسان آخر ، فى ابنته « انا » • ولكنه لم يفاتحنى أبدا فى هذا الشأن ، ولو بأقل اشارة • فهو ما وضع أبدا واحدا من الأقربين منه ازاء الآخرين موضع المقارنة والتفضيل ، غير أن الشك يساورنى فى حقيقة مكانتى لديه • قد يبدو غريبا أن اعتبر نفسى رغم هذا له صديقا واجزم على يقين انى كنت حاملا لمودته • ولكن هكذا كانت الحال بلا جدال • كان يدعونى صديقه فى كتاباته المطبوعة والمخطوطة ، العام منها والخاص ، وكان يعبر عن

ثقته فى بمختلف الطرق • ولست بالجدير لاعبر عن وجهة نظره فى هذا التقدير • ولكنى أستطيع أن اذكر بعضها • كان فرويد ذا حنان خاص « او نقطة ضعف » ازاء اولئك الذين جاهدوا وناضلوا فى سبيل التحليل النفسى وهو لايزال فى طور الاضطهاد والعداء • ويعتبر بوجه عام انحرافا عقليا أو جنسيا أو كليهما معا على السواء • أما من اقبل بعد ذلك من الاتباع عندما أضحى التحليل النفسى « موضو » ذائعة أو تجارة رائجة فكان عليهم ان يثبتوا قيمتهم وتفانيهم — وبرغم ذلك ، ظلت الدائرة الداخلية قاصرة على المخضرمين • كان ولائى ذا اعتبار خاص لديه حين كشف المهاجمون عن نواجذهم وابان المنشقون عن تحيزهم • كان يقدره تقديرا جعلنى افضل اعتبار نفسى تلميذه على ما يمنحه الطموح الصغير المقنع بكلمات ضخمة مثل « حرية العلم » (*) من اكتفاء • واعتقد انه كان يقدر فى كفاحى الصادق من اجل الأمانة العلمية تقديرا جعله يغتفر لى بعض السخافات والأعمال الصبيانية التى اقترنت به • كما أن مستوى قراءاتى وان لم يعدل ثقافته سعة ، كان يفوق المستوى العادى فى دائرتنا مما جعل نواحى اهتمامنا تتلاقى فى اغلب الأحيان • فكان يستطيع أن يبادلنى الحديث حول بعض جوانب الفن الغامضة والأدب وتاريخ الاديان •• الخ • واذا افتقرت معلوماتى الى الانتظام أو الالتئام فان ذاكرة طيبة وفهما سريعا كانا يعوضان هذا النقص الى حد كبير • « والأعور ملك فى بلد العميان » • على أية حال مادمنا بصدد الحديث عن تلك الأوقات المبكرة من تاريخ التحليل النفسى التى خيم عليها الانعزال وشابها الاعراض والصدود •

ارجو ان اكون قد أوضحت انه ما من شىء مما فعلت أو فعل كان من شانه ان يقف بيننا حائلا • ربما اكون قد اثرته بتصرفاتى فى بعض الأحيان • لكنه كان يعلم انى ما اتيتها عن قصد واع يستهدف الاساءة اليه بلا داع • فكان يهب الغفران دون استياء (أو لم اشعر به على الأقل) • مرة واحدة فقط اقترفت عامدا فعلا لم يقع منه موضع الرضى وعندما انقضى أمره خاطبنى بشانه فى ثلاث كلمات او اربع وبصوت

(*) يشير المؤلف هنا الى الانشقاقات التى حدثت فيما بعد بين فرويد واتباعه ، فقد انشق ادلر من فرويد واسس « علم النفس الفردى » ، وكذلك يونج ورانك وكانت دعواهم فى انشقاقاتهم ان فرويد بتعصبه الزائد لوجهات نظره فى التحليل النفسى ، يقف مثرة فى سبيل « حرية العلم » • وسنرى ان ساكس يفند هذا الزعم ، فيما بعد ، على صفحات هذا الكتاب •

لايكاد يسمع اشبه بالعتاب الذى يتهامس به الأصـــدقاء وراء الأبواب وقد ظلت هذه الكلمات ، وهى كل ما نالنى منه من الكلمات الحـــادة ، محفورة بقلبى على الدوام · وعندما انقضى أمرها لم يتبق منها ادنى اثر يؤثر على موقفه حيالى : واذا كنت حتى هذه اللحظة عاجزا عن استرجاع ذكراها دون الشعور بالخجل حيالها ، فمما يهون من حدة هذا الشعور ان الأمر لم يتجاوز المرة فى حياة بأكملها ، مرة واحدة خلال خمســـــة وثلاثين عاما · فما هى بالشىء الكثير ·

كانت الحلقة المفقودة التى شـعرت بها فى علاقتنا برغم ضـروب الاستحسان والصداقة والائتمان ، من طبيعة ســـلبية خالصـــة ، اعنى انها قامت على اشياء لم افعلها ولم اكن موضوعا لها · لقد كانت هـذه الحلقة المفقودة هى استجابة فرويد ازاء بعض الصفات التى تصمنى عنه بالتباين ويقدرها ، ان وجـدت فى الآخرين ، تقديرا ملحوظـا · ولست ارغب أن ابين ماهية هذه الصفات · كما لا أريد أن ابدو مثالا للتندم وتحقير الذات ، بل كل ما اريده هو أن لا ابدو فى صورة التلميذ الذى يضطجع على صـدر الاله على حـد تعبير اوسيبيوس (فى خطابه الى بوليكريتس اسقف اقسوس) اذ يتحدث عن الرسول يوحنا ·

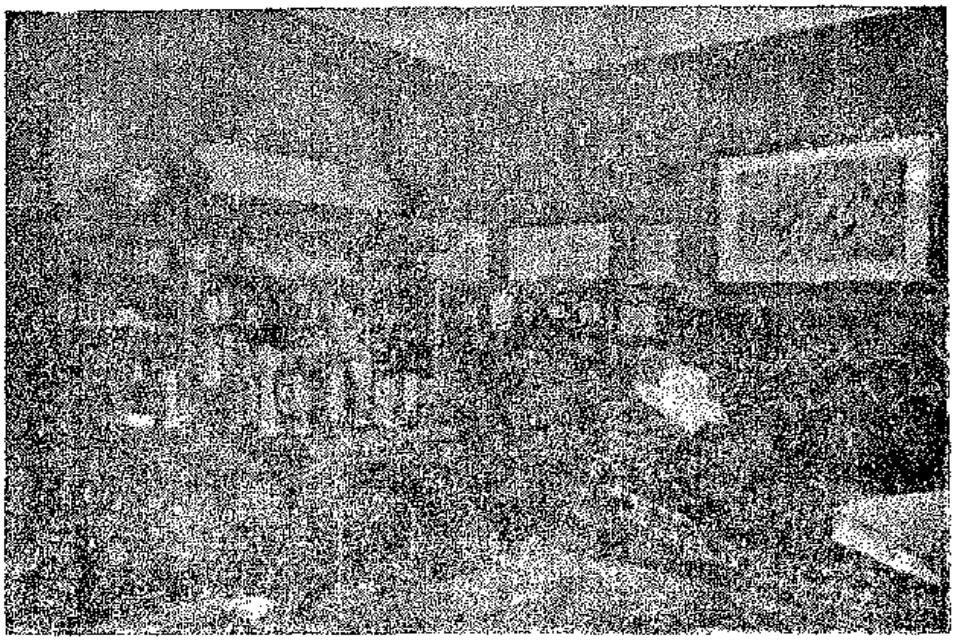

الحجرة التى كان يزاول فيها فرويد التحليل النفسى فى فيينا
وترى الكنبة التى يستلقى عليها المرضى ، كما نلاحظ أنها زاخرة
بالتحف المصرية القديمة التى كان فرويد مولعا بها كل الولع .

الفصـــل الثـانى

فيينـــا

يتردد من حين لآخـر القول القائل بأن عمل فرويد كان الحاصـل النموذجى لفيينا وجوها الاخلاقى المميز لها· ومن قبل قيل ايضا نفس القول عن موسيقى فرانز شوبير ولكن بقصـد اقل عداء · وتقع الشعارات فى مجال العلم موقع القبول والتسليم مثلما هو حالها فى اى مجال آخـر ما دام الفضول العقلى لدى اى انسـان بحاجة الى مكان مهما كان يحط عنده الترحال · ولا يزال هذا الشـعار شائعا برغم ان فرويد قد قوض دعائمه منذ أمد بعيد عندما بين فى كتابه « تاريخ حركة التحليل النفسى » **الخطأ المنطقى فى الربط ربطا سببيا بين اكتشـافه وبين انحـلال الأخلاق الجنسية السـافر في فيينا · ففرص العثور على تعليل علمى للعصـاب النفسى فى تكثيف الكبت الجنسى يكون اشـد ندرة حيث الكوابت اخف مما هى فى اى مكان آخر** (*) ثم اردف حجته بتلميحات دلل بها على ان السبب الرئيسى لهذا الزعم لا يستهدف النيل من فرويد الفينوى بل من فرويد اليهودى · اذ تكمن محاولة وصمه « عنصريا » خلف التفسـير الظاهر التعسف لنظرياته ذلك التفسير القائل بصدورها عن الحسـية الزائدة التى يلصقها خيال العامة بالدانوب الأزرق(**) وما على شاكلته · ففى تلك الأيام كان العلمـاء الذين يريدون الظهور بمظهـر المتمدينين يتورعون عن الجهر صراحة ومباشرة بما يصرح به الآن على الملأ اجمعين·

(★) يقصد المؤلف انه حيث تنتشر الاباحية الجنسية يقل الدافع الى الكبت الجنسى الذى يؤدى الى ظهور المرض النفسى (العصـاب) ، ومن ثم فتعليل المرض النفسى بالكبت ، وهـذا احدى النقاط الهامة فى التحليل النفسى ، ليس مستمدا من الاباحية الجنسية التى كانت سائدة فى فيينا على ايامه .

« المترجم »

(★★) رقصة فيينوية شهيرة تشيع فيها النشوة والخدر الحسى .

وكان هناك الرأى المتعسف المتخلف القائل بأن العقل اليهودى (أو بعبارة اخرى «الشرقى» ، «البحر المتوسط» ، أو الفرنسى) منشغل انشغالا غير عادى بالمسائل ذات الطبيعة الجنسية • وقد صاغ تاكيتوس ، الذى لم يدع فرصة ليعبر عن عظمة الرومان التاريخية وفضيلتهم السماوية ، هذا الرأى بموهبته التى لا تبارى فى الابيجرام قائلا Projectissma ad libidinum (الشعب الذى يتمتع بأكبر قدر من الميل الطبيعى للأمور الشبقية » ، ولهذه الخرافة التى لها من العراقة مثلما لخرافة اليهودى التائه ، ما يجعلها غير قابلة للاندثار • فهى تظهر حيثما تعزل فئة عن بقية الجماعة ، نتيجة لبعض علامات خارجية تسمها بميسم الغرابة • فقد استخدمت ضد المسيحيين الأوائل وما زالت تساعد فى اذكاء روح العداء فى بعض أجزاء من هذا البلد(*) •

ان الزعم القائل بأن فيينا قد طبعت عمل فرويد بطابعها الأصيل لهو ادعاء اجوف • ويغدو سخيفا عندما يقارن المرء بين السمة الخاصة بالجنسية الفينوية ، أو بالأحرى ما يمكن اعتباره كذلك (لأن الواقع ، أن الجنسية ليس لها غير بعض اللون المحلى) (الشبق الجنسى) أعنى النزق العابث المذب ، المحموم بأفكار فرويد المؤسسية المرة عن طغيان الليبدو(**) •

على أية حال ، لم تكن غير ذات تأثير على شخصيته هذه المدينة التى أتاها صبيا لا يعدو الرابعة ، وعاش فى رحابها ما يقرب من ثمانين عاما وتردد على مدارسها طالبا ثم التقى فيما بعد بالمعلمين الذين فتحوا أمامه آفاق الفكر والبحث • ولكن ليس معنى هذا انه كان قريباً من قلب فيينا أو ان فيينا كانت قريبة من قلبه ، فقد أعلن الخلاف بينهما عن نفسه منذ بداية حياته العلمية وظل قائما حتى نهايتها • بل ظل فرويد سنين

(*) يقصد أمريكا وما بها من تمييز عنصرى وكان المؤلف قد هاجر اليها فرارا من النازى •

(**) الليبدو عند فرويد يقصد به مجموع الغرائز التى تدفع بالكائن الى الحياة، فهو عبارة عن مجموعة من الطاقة أو النشاط النفسى تناقض فى عملها مجموعة أخرى من الطاقة يسميها فرويد غريزة الموت التى تحاول أن تدفع بالكائن الحى فى أقصر طريق صوب الموت •

« المترجم »

عديدة دون ان يلتفت بنو وطنه لوجوده · وليس ذلك أمرا غريبا ، فما نهجوا الا نهج الذين ادعوا انهم اصحاب السلطان والكلمة الأولى فى مجال العلم الذى ابتدعه · وفى مقدمتهم خاصة الذين يشغلون مكانة « انصاف الآلهة » بالجامعة · فقد كان الاتجاه العام ينحو صوب تجاهله وتجاهل عمله ، وان انبعثت من حين لآخر محاولة للهزء به والنيل منه · وعندما كان المرضى يفدون اليه من جميع انحاء العالم ، لم يكن من بينهم ابناء فيينا غير قلة نادرة · فلم تتأثر فيينا ـ خارج نطاق الدوائر العلمية طبعا ـ الا عندما طبقت شهرة فرويد الآفاق · لكن هذا التغير فى طبيعة الموقف لم يأت الا من جانب واحد فحسب · فقد ظل فرويد على استعلاء لا يبالى بشعبيته التى أتته متأخرة على استحياء وقد حدث بعد ان وضعت الحرب أوزارها أن وردت اليه مذكرة من مكتب الدخل القومى تقول ، « حيث انه من المعروف ان شهرتك تجتذب المرضى الذين يقدرون على دفع أجور عالية من جميع البلاد الأجنبية ·· » فرد عليها بقوته : « اننى أسجل بسرور هذا الاعتراف الرسمى الذى لقيه عملى فى النمسا ·· » ·

كان تأثير فيينا على فرويد موجودا ولا شك ، لكنه كان فى اغلبه سلبيا اعنى اعتراضا لا قبولا لفنونها · ربما يكون قد اثر عليه بعض افراد عائلته الذين اقاموا بانجلترا ، مثل أخيه من والده الذ يكان يفوقه سنا · واغلب الظن أن هذه المعارضة هى التى جعلته يختار شريكة حياته المستقبلة فتاة ليست من بنات فيينا على الاطلاق (اذ ان هامبورج وفيينا تعتبران بوجه عام متعارضتين فى « جوهما الاجتماعى ») · ومن المؤكد كذلك ان اختها التى كانت ضمن افراد الأسرة لم تبد ادنى ارتضاء لروح الحياة الفينوية واسلوبها · اذ بقيتا بعد انقضاء زهاء خمسين عاما على اقامتهما بفيينا « تتحدثان » اللغة الالمانية النقية غاية النقاء التى اشتهرت بها هامبورج · فكل ابناء فيينا يخلطون قليلا أو كثيرا من اللهجة المحلية فى حديثهم · ولذا كانتا توصفان دائما بانهما على قدر من الاستعلاء · وكانت ـ لغتهما صعبة الفهم بالنسبة لغير المثقفين فكانهما تتحدثان لغة اجنبية · وكان سوء التفاهم والناجم عن ذلك يسبب حادثة تثير الضحك بين الحين والحين · لكن موقفهما لم يتغير أبدا · كما ان موقفهما النافر هذا لم يبد فى اللغة فحسب بل فى التحدى الذى يتضح من ضروب السلوك المختلفة · حتى مظهر البيت كان يثير انطباعا بالغرابة ، كأنه جزيرة يسهل ادراكها ، ولكنها جزيرة على اية حال ·

كانت هناك ولا شك فترة « سنوات تكوينية » عندما كانت الانطباعات الأولى يتم تأليفها أو رفضها وردود الأفعال يتم تكوينها واستمرت هذه الفترة الى أن أصبح انعزال فرويد حقيقة واقعة • ولم أعرف فرويد ولا فيينا خلال هذه الفترة، لأنى ولدت سنةحصل علىشهادة التخصص فى الطب .M.D لكن فيينا التى عرفتها فى طفولتى كانت لاتزال تشبه فىنواح عدة ظروف شبابه ومرافقته • فالعصر التحررى الذى بلغ أوجه فى النمسا فيما بين ١٨٦٦ و ١٨٧٨ كان لا يزال قائما أثناء صباى ، وان كان آخذا فى الأفول مسرعا حتى اختفى مع مطلع القرن الجديد • كما أن كلانا قد انحدر من نفس الطبقة الاجتماعية • فكان هذا ولا شك سببا فى أن تتماثل نشأتنا ونظرتنا الأولى الى العالم المحيط بنا • فكلانا ينتمى الى عائلة يهودية متوسطة الحال ، هاجرت منذ جيل أو جيلين من الأقاليم الى فيينا • فوالداه ووالداى أو أجدادنا قد انحدروا من بوهيميا وموراڤيا ، وهو مصدر اثار فى ذلك الحين تعارضا قويا مع المهاجرين اليهود القادمين من « الشرق » الذين عاشوا حياة أكثر عزلة بأحياء اليهود فى غاليسيا وبولندا • اذ كان الغربيون الذين نشأنا بينهم على استعداد للتنازل عن قدر كبير من تقاليدهم الدينية وعقائدهم الأصلية مقابل الأفكار الحديثة والطريقة الأوربية فى الحياة • فكان مثالهم التماثل الكامل دون الذوبان الشامل •

وهنا يلزمنى أن أقرر انى أريد كذلك ذكر بضعة أشياء عن فيينا ما قبل الحرب ، عن مدينة القيصر العتيقة هذه منتهزا الفرصة ، فقد قرأت وسمعت قدرا طيبا من الآراء الضحلة والسطحية ومن الثناء بقدر الهجاء ، والآن ، بعد مضى خمسة وعشرين عاما من مغادرتى فيينا ظافرا يبدو أننى بلغت مسافة آمنة يمكننى عندها الاستفادة من معلوماتى الخاصة دون أن تنالها خبرتى الشخصية بالحيف • ومادمت لم أعش فى فيينا « ما بعد الحرب(*) ، بل قصدتها فى زيارات قصيرة فحسب ، فان ذاكرتى لم تشبها انطباعات متأخرة ، بل تحتفظ بصورة واضحة صافية عن الفترة السابقة دون مقارنات يشوبها التحيز أو يشينها الغضب ، ومن جهة أخرى ، كانت فيينا القديمة هذه رغم كل مثالبها ، مركزا تشع منه تأثيرات ثقافية قوية ، فقد كان لمدرستها الطبية مثلا ، تأثير قوى على تقدم الطب فى الولايات المتحدة •

(*) يقصد الحرب العالمية الثانية .

عندما أرتد بنظرى الى الماضى متمليا أسلوب الحياة بفيينا خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، أجد عدم الاخلاص العام هو الصفة السائدة مصحوبا بنفاق قليل نسبيا · وكان هذا هو السمة العامة للعصر من جانب ونتيجة لطبيعة الظروف الفينوية النمساوية الخاصة من جانب آخر · فقد نقض العصر الفيكتورى(*) الأخير ما تميزت به المرحلة المبكرة منه من تزمت وتحيز شديدين · (كانت القارة الأوربية تقلد المثل الذى تقدمه انجلترا قليلا أو كثيرا) · فهو لم يعد قادرا بعد على أن يطرح جانبا ويضرب صفحا عن كل ماينافض فكرته المبسطة تبسيطا مثاليا عن العالم · وكانت أسوأ الموانع وأبغضها ضد هذا التطهير الكلى ماسمى بأشد تعبيرا العصر التواء « حقائق الحياة » · وبالتالى كانت آية كلمة صريحة عن الجنس تقيد بأضيق القيود ، مهما كان القصد منها جديا أو محصر فى نطاق اللغة الخاصة بالعلم · أما مدى كفاية هذا القيد فى المراحل الاولى من العصر الفيكتورى فمسألة عرضة للبحث ، لكن لاشك ان جانبا كبيرا منه قد تحطم عند نهاية الفترة وان ظل قائما بصفة رسمية على الصعيد الاجتماعى · فكان من المحظور مشددا استعمال كلمات مثل الجنسية(*) المثلية أو الزهرى فى الصحف اليومية · وكان يجب استخدام اغرب أشكال الكنايات حين يتجه الحديث الى هذه الأمور فيكنى عن العاهرة بكلمة (العاملة اليدوية) اى المرأة التى تعمل بيديها · وكان « المكان الذى يأتى منه الأطفال » كناية عن الأمور المحرمة التى يتهامس بها المراهقون على استحياء بمنأى عن الأنظار فى الخفايا والأركان ، ولكن الكتب التى تتحدى الحياء كانت موجودة فى كل مكان واسماؤها من الشيوع بحيث استرعت انتباهى قبل أن تنقضى طفولتى وأثرت على ذهنى تأثيرا عميقا · وأخذت أقرأها كيفما اتفق كلما تيسر الأمر · كان اميل زولا شخصية العصر البارزة ، فقد كان تأثيره الذى يسلم به الجيل المعاصر لميزاته الأدبية فحسب ، يفوق الوصف · فى أى « بيت طيب » لم يكن فى الامكان ظهور « نانا » أو « غلطة الأب موريه » ومناقشتهما علنا · فأمثالهما على العموم كانت تخفى كأنها من السموم ·

(★) العصر الفيكتورى نسبة الى فيكتوريا ملكة انجلترا . وقد امتد حكمها من ١٨٣٧ الى ١٩٠١ ، وامتاز عصرها بالتزمت الأخلاقى الشديد والرضاء النسبى . والتوسع الاستعمارى جعل الشعوب الاوربية تقلد نمط الحياة الذى كان سائدا فى انجلترا فى ذلك الوقت .

« المترجم »

(★) أن يكون المحب والمحبوب من جنس واحد .

ولا حاجة الى القول ان هذا لم يزدها الا اغراء وانتشارا · ولم تكن مسرحيات ابسن محاطة بمثل هـذا التحريج ، فـكان يمكن رؤية بعضها فعلا على المســـرح · اذ كان هجومه على التقاليد والنفاق الاجتماعى نظريا اكثر منه عمليا ومباشـــرة ، ولكن جدله الدقيق الذى كان مؤيدا بتكتيك درامى جديد ، جعله رائد ثورة فى الأخـــلاق · وقد حطم العالم الفينوى كرافت ايبينج بكتابه « الجنسية المرضية » Psychpathia sexualis حاجز الصمت المفروض على الانحراف الجنسى والأمور المماثلة · واعطى اسماء لاشياء كانت قد ابعدت من الوجود عنوة عن طريق تجاهلها ·

ومن جانب آخر اقضت بعض تعبيرات الحركة الروديكالية ـ وخاصة الفرع الاشتراكى منها ـ مضجع اشـد عقول الطبقة المتوسطة مناعة · ولقى كتاب الفه « بيل » زعيم الحزب الديمقراطى الاشـــتراكى الألمانى قراء كثيرين جادين · ويحلل فيه بيل الدور الموكل الى المرأة فى المجتمع الحديث ، ويناقش الدعارة كمشكلة اجتماعية تجب معالجتها ولا يمكن بعد السكوت عليها ·

هذا الموقف المذبذب المائع الذى يجمع بين اقرار الأفكار سرا وانكارها علنا كان احدى العلامات العامة المميزة لعصر تحول وانتقال · وقد تلاءم تلاؤما مثاليا مع بعض السمات الثابتة فى العقلية الفينوية التى لم تكن ابدا على درجة عالية من الاخلاص · فما كان التأدب الفينوى المشهور بالارتياح Gemutlichkeit الا ضربا من الرفق بالنفس يحاول تجنب الصراعات الحادة والاقتناعات الجادة · اذ كانت الخلفية الاجتماعية والســـياسية تؤثر الميل الى الأدبار أن اقتضى الأمر مواجهة الحقائق المزعجة · كانت النمسا مملكة دستورية مع كافة الخدع السياسية المعروفة · فثمة لائحة للحريات · ومجلسان للبرلمان ، ووزراء مسئولون ، ومحاكم ذات سلطة قضائية مستقلة ، وجهاز حكومى من النوع المألوف · لكن ، كان سرا ذائعا انه ماحاز جهاز من هذه الاجهزة شذرة من السلطة الفعلية ، ولا حتى الطبقة الحاكمة نفسها · اذ كانت هذه المسألة فى يد « الثمانين عائلة » النمساوية ، التى كونت طبقة عليا متماسكة تماما تستبعد من مجال النفوذ آليا كل من يحاول أن يقف منها موقف المعارضة ، ثم اصبحت بفضل الزواج الداخلى الطويل المدى عائلة واحدة بالفعل · وكانت تعتبر نفسها كذلك · وكان الامبراطور ، الذى يمثل السلطة العليا ، عجـوزا ، عنيدا ، معزولا عن حياة الامة بفضل القوانين الصارمة لآداب البلاط ·

وكان كافة الذين يشغلون وظائف البلاط العليا الذين يحيطون به أعضاء في هذه العائلات الثمانين الموحدة في عائلة واحدة · وكان نفوذهم من المتانة بحيث ينأى عن أية مظنة واكسبه التقليد وميراث القرون حقا الهيا دعمته الثروة المكتنزة المرتكزة على ملكية الأرض · فقد كانوا يملكون خبرة أجراء الحقول والغابات والمراعي وثروة البلد عامة · ومنذ أمد ليس بالبعيد كان الفلاحون منهم بمنزلة العبيد · وكانوا من عمق اليقين بحقهم في السيادة والحكم بحيث أنهم ما فكروا فيه قط على أنه شيء قد يحتاج منهم دفاعا عنه أو عراكا دونه ، فقد تصوروه محقين أنه ضرب حقير من الواجب فرض عليهم بحكم مولدهم ، وليس امتيازا يقتضي منهم صفات وواجبات ، وتقبلوه بأسلوبهم الفروسي الخاص · كانوا كأفراد — حسب اتصالاتي الشخصية القليلة ببعضهم — خرعين وفاتنين ، يقدرون الأخلاق المرفهة أكثر من أي شيء آخر ، كما هو المنتظر من ارستوقراطية تمتعت مدى اجيال عديدة دون كفاح بكل اطايب الحياة · لم يكن لهم شيء من ضراوة الفارس المقاتل بل شيئا كثيرا من الرخاوة المتحذلقة المتأنقة · كان بعضهم ذكيا دمث الأخلاق ولكن تأثير عشرتهم حال بينهم وبين أية محاولة للمساهمة في الحياة العامة فما كان امامهم سبيل آخر · وقد أدى ما يشملهم من ارتباط وثيق دون تنظيم أو قيادة الى أن يؤثر سلطانهم اللامسئول ، اللامحدود ، الغامض المعالم في اتجاه واحد الا وهو : استبعاد أي تجديد ، واستئصال كل قوى جديدة من مجال العمل · وأدت بهم رغبتهم في المحافظة الى أن يصبحوا بالضرورة رجعيين · وقد حدث ذات مرة أن قال استاذ على جراة نادرة لأحد أبناء الارستقراطية عقب امتحان ابان عن جهله : « سيدي الكونت ، ليس بمقدوري أن أحول دون أن تصبح حاكما للنمسا السفلى ، ولكني أستطيع أن أؤخر ذلك سنة » ·

كان هذا الغموض يسود كل شيء · فالأحزاب السياسية، والانتخابات والمناقشات البرلمانية الحامية والاقتراع على القوانين ، واقامة مؤسسات تعمل على وضعها موضع التنفيذ ، كل هذا كان يتم كما في أية دولة ديمقراطية من الدرجة الأولى، لكنكل هذا كان واجهة مزيفة شيدت لخداع الغرباء واولئك المصابين بالعمى الوراثي · فقد كان لابد للمرء ان أراد أن يخطو خطوة من سند من « أعلى » اما مباشرة أو خلال محظوظ من الذين فرضتهم الطبقة الحاكمة لتنفيذ مشيئتها ، وهذا أضعف الايمان ·· وبدون ذلك لا تتم أية حركة مهما كانت في نطاق القانون ، وبدون ذلك يبطل كل قانون أو تصطنع لابطاله حيلة من الحيل · وكل ما يقال سواء على الملأ في عبارات

طنانة أو على حدة بطريقة ودية هامسة ، لا علاقة له بالقرار الحقيقى ، فقد كانت الكلمات تستخدم نوعا من الوعد لا يقبلها غير الغبى مقابل النقد المالى .

وبطبيعة الحال أصبح أسلوب الطبقة الممتازة فى الحياة النموذج الذى تحاول الطبقة المتوسطة احتذاءه ، مقلدة أياه فى أضأل تفاصيله (وأصبح اليهود الأغنياء بعد أن تغلبوا على الحـــاجز الدينى أولا) . وتراوحت النتيجة ما بين العجرفة الساذجة السافرة ، والجماليات المتكلفة تكلفا ، وما خالف هذا الموقف ، كان يدعى « نهاية القرن » fin de siècle ويتغنى بأفضلية « الجمال » — لكن الجمال بين قوسين — على الأخـــلاق وأطلق على نفسه مفتخرا صفة « الانحلال » .

لم تكن هذه النتائج غير أعراض متفرقة ، فقد ذهب الأثر العام للمثل الساطع الذى تقدمه النبالة الحاكمة الى أبعد وأعمق من ذلك . فكانت كلمة نبيل Nobel اسمى ثناء يسبغ على شىء ذى أسلوب رشيق ، مرغوب ومن هنا كان من الضرورى أن يلبس المرء ويتصرف بطريقة تجعله عضوا فى الطبقة الارستقراطية أو تمكنه على الأقل من الاعتقاد فى امكانية حسبانه خطأ فى عدادها . وكانت الطريقة المثلى لممارسة هذا الوهم المستطاب أن يمنح المرء « بقاشيش » جسيمة القدر وينفق نقوده كانه « فارس » ، ولو كانت حياته المنزلية لا تعدو المتوسط . لذا كانت فيينا كلها تعطى أو تأخذ بقشيشا بلا انقطاع . فما من باب تطرقه الا ويفتحه لك امرؤ يطلب بقشيشا . وما كان بمقدورك أن تدخل البيت الذى تسكنه بعد العاشرة مساء أو تأخذ مجلسك من « الحنطور » دون أن تدفع بقشيشا . وقد عبر عن ذلك كارل كراوس ، ابن فيينا الهجاء بقوله : « ان أول شىء سيراه ابن فيينا يوم النشور هو يد الرجل الذى فتح له باب تابوته مبسطة تطلب بقشيشا » .

هذا الولع بالبقشيش هو العلامة المميزة لوجهات النظر الاقطاعية . فليس على امرىء من عامة الناس ، ميكانيكيا أو تاجرا ، من حرج أن يلتزم بعهد أمام من هو اقل منه رتبة . لكن من كانت النبالة حسبه ، فانه يرى فى هذا كل المهانة . فهو يفى بما عليه من دين مثلما يسبغ لقبا، طوعا واختيارا، غير مقر بحق عليه غير شرفه الذى يلزمه أن يحوز بمحض ارادته شهرة سيد بحق .

كان هذا الخيال الروائى « الفروسى » الذى ولى زمنه يسود حياة فيينا كلها ويخلع على الأعمال التجارية البسيطة مسحة رائعة . فاذا تناولت

مثلا « وجبة » في مطعم راق فالمنتظر منك أن تمنح أربعة أنواع مختلفة من البقشيش • الأول لرئيس النادل الذى يتلقى طلبك ولا يعود للظهور على المشهد الا حين تطلب قائمة حسابك ، ولكن المفروض أنه يشرف على العملية كلها من أعلى كشخصية مهيمنة والثانى تمنحه للنادل الذى يقوم بالخدمة اثناء تناولك الطعام والثالث للذى يحضر الشراب والرابع للذى يساعدك على ارتداء معطفك أو يعبر عن ذلك بالتمثيل الصامت ان لم يسعفه قصر قامته • وهم يخاطبونك بحسب مقدار البقشيش الذى يتوقعونه أو الذى منح لهم فى المرة الأخيرة ، فاما السيد الدكتور Herr Doktor (وهو ادنى الألقاب درجة) أو السيد النبيل (وهو يماثل اللقب الفرنسى سعادة Monsieur de) أو صاحب المعالى : « ومعالى البارون Herr Baron

وكانت القاعدة العامة ـ الميزة لهذا الرياء المرغوب ـ أن يعطى كل امرىء لقبا يفوق الذى يستحقه فعلا • فكانوا يخاطبوننى فى مقهاى بقلب « السيد الدكتور » وانا لا ازال طالبا ، لكن يوم تخرجى أصبحت السيد فون ساكس أى نبيل ساكس •

وكان النفور من طريقة الانتاج الجمعى الحديثة سمة أخرى فلم يكن الفينوى الأصيل يرضى عن شىء لا يتسم بالفردية الخالصة ، أولا يوهم بانه قد صنع للاستهلاك الفردى على الأقل • فما من مؤسسة للانتاج العام كانت قائمة فى فيينا ما قبل الحرب • اذ كان لكل فرد محل خياطة و «بقالة» ثم « مقهاه » على وجه الخصوص والأهمية • وقد لا يخطر بالبال أن أمرا بسيطا مثل قدح قهوة ينطوى على تعبير عن طابع شخصى • ففى هذا البلد تقدم لك القهوة ، والكريمة ، والسكر ولا شىء أكثر • ولكن فى فيينا كان لكل زبون مستديم ذوقه الفردى الذى ينتظر من النادل أن يعرفه و يقوم بتلبيته دون أن يطلب منه ذلك • كان هناك نوع يدعى المزيج (وهو قهوة باللبن فى كوب) مع الكريمة الخفيفة أو الدوبل كريم (أى كريمة مخفوقة بسيطة أو مركبة) أو بدون ذلك • وهناك ما يعرف بأسم فنجان الشاى (وهو فنجان شاى لكنه مملوء قهوة) وما يدعى بندق (نصف فنجان بالبندق) ، والكابوتسينر (بن أسمر غامق) والفنجان الذهبى (فنجان قهوة ذهبى أسمر فاتح) ، وهكذا •

كانت فيينا هي مدينة كابو(*) بالنسبة للأذهان وكابوا هي المدينة التي اجتمع بها جنود هانيبال وعرفوا فيها اللذة · عندما تصبح الحياة مزيجا من الشعر والواقع يضعف الدافع للابداع » · بهذه الكلمات التي تجمع بين الاعجاب والاتهام وصف فيينا أعظم بنيها وعاشقيها فرانز جريلبارتسر Franz Grillpartzer · قد يوجد هذا الفتور كفينوى اللطيف في أماكن أخرى ، لكن كان الشيء الفريد هنا أن ـ أصبحت أوجه التنافر ، وقد تجمعت بأشد الطرق اهمالا ، النغمة المغرية السائدة على غيرها · كثيرون وجدوا هذا الذوبان مضنيا ، لكنما استطاعت مقاومة اغرائه غير قلة ·· فقد تآلفت الشوارع المقبضة وواجهات المنازل المشوهة ، والحجرات المرشمة والضواحي المخربة تآلفا عجيبا مع ما في الكاتدرائيات القوطية والقصور الباروكية من روعة ، وشع قوس التلال الخضراء الفاتن المحيط بالمدينة مرسلا تألق الغابات والمراعي الى كل ركن معتم · وبنفس الطريقة الغامضة نمي نوع من حاسة الجمال بجانب ما في أذهان أولئك الذين عاشوا بين كل هذا الفقر والجلال من تحيزات وضيعة وشهوات رخيصة وازدهرت حيث لم يكن ينتظر لها أن تزدهر ·

وكانت الموسيقى والدراما قالبي الجمال اللذين يهفو اليهما قلب فيينا اكثر من أى شكل آخر من اشكال الجمال الذى أبدعه الانسان · أما بالنسبة للموسيقى فليس لدى ما أضيفه حول الثالوث الشائع : «فيينا ، والفالس ، وشتراوس » · فمن المعروف للعالم أجمع سلسلة الموسيقيين المجيدة من هايدن الى برامز ، الذين عملوا في فيينا ومن أجلها · وقد ظل فرويد طيلة حياته لا يتذوق الموسيقى فكانت الفن الوحيد الذى لم تصله به علاقة شخصية من أى نوع ·

لكن لم يجتذب الدور الذى لعبه المسرح في حياة فيينا نفس الانتباه · فقد كانت فيينا البلد الوحيد في أوروبا في العصور الحديثة ، أعنى بعد منتصف القرن السابع عشر ، الذى يحوى مسرحا للشعب ومن الشعب ، لا للبلاط ولا الطبقات العليا أو الارستقراطية فحسب · ولكن هذا المسرح الشعبي بالمعنى الكامل للكلمة لم تغذه أية الهامات أدبية · فلم تبلغ حكاياته الخرافية ومساخره التهريجية في أى مكان مستوى الدراما في عصر اليزابيث ولكنه تمخض عن شخصيتين قويتين هما فرديناند رايموند وجون نسترو ى

(*) كابوا هي المدينة التي استسلم فيها جنود هانيبال لاطايب الحياة وفقدوا حماستهم ·

To: www.al-mostafa.com

(وكلاهما ممثل ومؤلف مسرحى) ، وكان الأخير عبقريا حقا ولكنه آثر الاستسلام للطريقة الفينوية السهلة فبدد الشذور اللامعة من ذكائه بأسراف كما لو كانت فطائر من النوع الرخيص ولم يركز قط قواه بحيث تتجلى فى تحفة فنية • ولكن كل هذا توقف فى منتصف القرن التاسع عشر تقريبا ، ولم يتعد ما تبقى المستوى المتوسط فى الأقطار الأوربية الأخرى • لكن ذلك الشغف الولوع بالمسرح الذى دام عبر الاجيال لم يفتر فقد كانت فيينا كلها مفتونة بالمسرح • فكانت المسرحيات والممثلون وصفاتهم وطريقة ظهورهم أو اختفائهم على المنصة ذات اهتمام عام وموضوع مناقشات لا تكل مثل ما يدور فى هذه البلاد من نقاش حول نجوم السينما ، وصيد السمك والجواهر • وكان الحديث عن المسرح والممثلين يحتل المكانة الأولى فى المجتمعات • أما المشكلات الاجتماعية والسياسية فتاتى فى المؤخرة •

وقد امتد جنون المسرح الى أبعد من ذلك بكثير • فلم ينحصر داخل جدران المسرح بل امتد امتدادا خصبا حتى شمل مجالات الحياة المختلفة • وقد استطعت تبينه جيدا عندما قدمت فيينا بعد فترة من الاقامة بالخارج ، سهلت على أجراء المقارنات وفتحت عينى على الطرق المميزة لسقط رأسى • فرأيت أن كل حادثة كانت تستخدم ذريعة للتمثيل ، دون أن يتعدى مضمونها أو غرضها الحقيقى تقليد جزء من ملهاة أو مأساة — مع تفضيل الأولى غالبا • فكان الشرطى الذى يحذر سائقا ، وربة البيت التى تساوم على كرنباتها ، وقائد عربة الترام والمراة التى تحمل حزمة ، والمحلف والمتهم ، يأخذون نصيبهم من التمثيل ، كلما سنحت لهم الفرصة ، بحمية وسرور ويمثلون اكثر مما يعيشون ليس بروح الانفعال والخطابة التى ترى فى البلاد اللاتينية ، بل بقصد يغلب عليه طابع تشخيص الذات وتقليد متكلف •

وكان التادب والتلطف الفينويين المشهورين جزءا من هذه اللعبة • لم يكونا كذبا صريحا مقصودا ولكن الاعتقاد بأن مشهدا يؤدى باتقان تنتج عنه نتيجة حقيقية هو اعتقاد ساذج مثله مثل الاعتقاد بأن ممثلا سيستمر فى أداء دوره بعد أن يسدل الستار • فلم يكن البائع فى متجره فحسب ، بل صاحب المعالى فى مكتبه كذلك يؤكد لزائره (وكان الموظفون الأدنى درجة يقومون بأدوارهم كذلك ولكن بطريقة مغايرة) أنه قد دار رأسه نتيجة لكل هذا الاكرام والانعام ، ولكن بعد أن يمثل المشهد ينتهى

كل شيء لا يتبقى له اثر · كما يصبح رجلان بعد عراك عنيف صديقين كانهما ممثلون اقذع كل منهما الآخر سبابا فى مشهد من مسرحية ·

كان كل هذا مثيرا ، ومسليا ، ومفرحا للسائحين وغيرهم من الزائرين الذين يأخذون مجالسهم أمام المشهد ثم يعودون الى بيوتهم عندما يسدل الستار بعد حين · لكن كان الأمر مختلفا بالنسبة لمن يتحتم عليهم البقاء بينهم ، وخاصة أولئك الذين تبنوا قضية يدافعون عنها بتصميم وولاء · فقد وورى موتسارت بمقبرة الفقراء الذين لا تعرف لهم هوية ، واشرف فرانز شوبير من الجوع على الهلاك وعانى هوجو ولف ما هو اقسى من هذا وذاك · وهؤلاء هم الرجال الذين منحوا فيينا ما تقبلته وما تذوقته اكثر من اى شيء آخر ، وهو : « الموسيقى » · اما المدرسون والعلماء والمفكرون فما كانوا ليطمعون فى شيء اكثر من النفور العام ·

ولم تقر عين فرويد طويلا باباطيل التادب فى ابداء الارتياح الفينوى فهو يقول فى كتابه تاريخ حركة التحليل النفسى : « لقد بذلت فيينا كل ما فى وسعها لتحول دون مشاركتها فى علم التحليل النفسى · فلم يتضح بجلاء فى أى مكان آخر عدم الاحتفاء العدوانى من الدوائر المدرسية والمثقفة بقدر ما أتضح فى فيينا » ·

« ربما اكون مسئولا الى حد عن هذه اللامبالاة كنتيجة لسياستى التى تجنبت الدعاية الواسعة النطاق · لو كنت قد آثرت أو سمحت بمناقشات عن تحليل النفس فى اجتماعات صاخبة بالجمعيات الطبية فى فيينا ، لو سنحت مناسبات شحان ينطلق فيها كل وجدان من عقاله وتجهر الفرق المعادية بما فى اذهانها من لوم وتحيزات ــ لربما كان قد زال فى هذه الحال ما يقف دون التحليل النفسى من حائل » ·

وينهى كلامه بفقرة بالغة الدلالة يقتبسها من مسرحية فالنشتين لشيللر Wallenstein (لم ير شيللر فيينا قط كما انه لم يزر سويسرا أبدا ولكنه عرفهما معرفة الشاعر الحدسية) ·

لكن لن يغفر لى ابناء فيينا ابدا

انى قد حرمت أعينهم مشهدا

من الواضح ان شخصية فرويد ، وطريقته فى التفكير والمعيشة كذلك ، تمثل النقيض التام لكل شيء وصف هنا بأنه يميز فيينا ، اذ انه بدلا من الرياء ، والتادب السطحى والرغبة فى الازورار عن الحقائق

المكدرة ، اعتنق الاصرار على حقيقة لاترحم • وتجشم العناء الذى يقتضيه البحث الدؤوب ، وتذرع بالشجاعة اللازمة « لازعاج نوم العالم » • فاذا كانت الظروف المحيطة قد أثرت على شخصيته تأثيرا ما — ربما تكون قد استقرت قبل « سنوات التكوين » — فانها أحدثت ما يدعى بلغة التحصين النفسى « التكوين العكسى(*) » ، أو ما يوصف بانه « تاثير سلبى » •

لقد شعر بعض الناس بخيبة الأمل عندما اتصلوا بفرويد ، لأن الرجل الذى وجدوا عمله مثيرا ومشوقا كان يحيا حياة مفعمة بالهدوء — كما خيل اليهم — والجفاف والرتابة • فلم يكن هناك شيء ملون — لا احداث مفجعة ، ولا انفعالات مركزة فما من شيء كان أبعد عنه أكثر من الغلواء ، وبدلا من أن يلائم نفسه ويكيفها بحسب الطريقة الفينيوية المسرحية ذاى بنفسه عنها اكثر فاكثر حتى أصبح من الوجهة العلمية بمنأى عن الانظار •

لقد كانت محاولة فهم فيينا من أصعب الأمور ، فلم تكن بالغادة اللعوب ولا بالقديسة العجوز ، بل شابة وعجوز هوائية وقديسة فى وقت واحد • وها أنذا ، بعد أن افضت القول عن ريائها وسطحيتها أجدنى مضطرا أن اضيف أنها وهبت الحياة ، ومع الحيـاة الحيوية والطاقة الابداعية لأكثر من رجل عظيم

ومن الحقائق الغريبة انه فى فيينا ، حيث كونت الطبقة المتوسطة كتلة كبيرة موطدة الدعائم اقتصاديا ، لم توجد تقريبا طبقة متوسطة مثقفة • فكانت لغالبية الناس اهتمامات ثقافية ضحلة الغور ، ضيقة الافق • كان يمكنك اذا تحدثت مع رجل الشارع أن تسمع من حين لآخر شيئا مسليا أو فكها ، لكن نادرا ما تسمع رأيا ذا رصانة أو فكرة على شيء من الفطانة • ولم يكن الأمر أكثر اختلافا فى أوساط الميسورين والذين يقال عنهم مثقفين • فقد حالت الحذلقة المدرسية التقليدية ونفوذ الكنيسة الكاثوليكية المطلق مدى قرون دون الرغبة فى البحث ودون تقدم الدراسة المستقلة • وكانت متعة الاستفاضة والاستطابة من الطعام والشراب بحيث تعدو المعروف فى باقى الدنيا مصدر فخر ليس بالقليل ، ومن الكفاية بحيث تستغرق فى أطايبها أغلب أبناء فيينا ، أما الأذهان الأفضل التى لم تكن آفاقها مشبعة بها وبغيرها من اللذائذ الحسية فقد فضلت الاشتغال بالأمور الفنية على مباهج الذهن المضنية •

(*) يقصد بالتكوين العكسى سمة من سمات الخلق تنشأ كرد فعل على ميل غريزى مرفوض لدى الأنا ، فهو ينتج عن عملية كبت سابقة ويدعم وجودها •

« المترجم »

لكن كان يحدث احيانا ، فى اوساط محدودة ، او بين افراد فرادى ان تندلع فى بهاء صافى الرواء شـــعلة الفكر وحب المعرفة بارزة أمام هذه الخلفية من الركود الذهنى او نتيجة لها مادامت الأشياء تتجه غالبا الى احداث نقائضـــها • وكان هذا يمكن أن يحدث فى أية طبقة اجتماعية ، بين العمـــال الكادحـــين او الطلاب المحدثين او فى الثكنات العليا من المجتمع • وقد زود الشعور بالوحدة هؤلاء الآباة طاقة غير عادية ، فعالجوا مشاكلهم بتوفز شخصى ، كان العلم الألمانى المحدود النطـــاق مفتقرا اليه فى نهاية القرن • وقد قابلت كثيرين من هذه النجوم المتفردة والمجرات المتلالئة قبل لقائى بفرويد وبعده • لكن فرويد كان من بينهم علما يفوقهم جميعا لالأم • لكن لم يكن ثمة شك فى أنه ايضا ، كان عارفا عالما شاعرا بهم • فهو برغم انعزاله لم يكن ضائعا فى الفراغ كما كان على اتصال شخصى ببعضهم • واذا ذكرنا فقط القلة ، التى تندثر اسماؤها واعمالها بمرور السنين ، نجد من بينهم بريكه مدرس فرويد ، وأحـــد مؤسسى الفسيولوجيا الحديثة ومانيرت رائد تشخيص جراحة المخ • وكان صديقه وحاميه أول الأمر ثم عدوه بعد ذلك ، وبروير الذى أصبحت ملاحظاته نقطة البداية بالنسبة للتحليل النفسى ، وكوللر الذى اكتشف فائدة الكاكايين بالنســـبة لجراحة العين ، وتشـــروباك طبيب الأمراض النسائية الشهير ، وفيكتور ادلر منظم الحركة الديمقراطية الاشتراكية النمساوية ، ولينكيوس بوبر ، مؤلف « فانتازيات واقعى » (الذى أعجب فرويد بعمله واستشهد به ، ولكن لم يقابله شخصيا أبدا) •

لكن لا جـــدال أن الجـــو الذى هيأته فيينا لعقـــل الصبى اليهودى المتفتح الحائز لقوى ذهنية نادرة المثال • كان منبها بطريقة او بأخـــرى • فقد كان خلوا من الثقل الميت للنهاية ، ومن سطوة وســـــلاطة حقيقة دوجماطيقية(*) ، مطلقة • الا أن مدى ما ساهمت به هذه العوامل فى نمو فرويد يظل غير قابل للتحديد •

(*) لعـــل المـــؤلف يقصـــد بعبـــارة « الثقـــل الميت للنهائيـــة the dead weight of finally حالة من حالات المجتمع يبلغ فيها درجة الركود واليقين المطلق الذى لا يسمح بأية مناقشة ، والانغلاق على نفســه والانحصار التام داخل ذاته ، كما كان الحـــال فى المجتمعات البدائية القديمة أما ما يقصده بقوله « سطوة وسلاطة حقيقية دوجما طيقية » ، فهو أن تكون للمجتمع فلسفة معينة يتمسك بها ويدعو اليها ، ويتذرع بالعنف والقوة فى ردع كل من تحدثه نفسه بمخالفتها والحيدة عنها •
« المترجم »

المعرفـــة الأولى

اخذت طريقى ذات مســـاء معتم من شـــتاء ١٩٠٤ عـــبر ابهاء المستشفى العام الطويلة ، وطرقاته الضيقة ، متجها صـــوب مدرج عيادة الطب العقلى الذى يقع عند نهاية مجمع الأبنية • كان هذا المدرج يقع قريبا من برج المجانين Narrenturm ، وكان بناء مستديرا يكون جانبا من عيـادة الطب العقـلى ، وكان المرضـى العقليون يبقون به مقيدين بسلاسل الى الجدران حتى مطلع القرن التاسع عشر •

تبدو هذه البداية أشبه بالحيلة التى يحتال بها الروائى حتى يستدرج خيال قرائه • وعلى الرغم من أن هذه الحـادثة لا تخبر غيـر الحقيقة الصراح ، فان على أن ادفع ضريبة الروائى واذكر اشياء ســـبقت هذا المساء •

كنت فى ذلك الحين قد انهيت دراســـتى بكلية الحقوق وأديت بطريقة او بأخرى الامتحانات المقررة • ولم يـكن القانون يثير اهتمامى كما لم اكن أشـــعر بميل خاص الى الطب • وانما كانت اهتماماتى مركزة فى الأدب ، الى حد استبعاد كل ما عداه • وقد يبدو غريبا أن ينتهى بى حبى للأدب الى عيادة الطب العقلى ، لكن هذا كان نتيجة منطقية للغاية ، وان تكن غير مباشـرة • وقد تكونت حلقة الصـلة نتيجة اعجاب لا حـد له بدستوفيسكى • فقد أردت أن اكتشف ، مقودا بيد العلم اسرار الروح التى استطاع تجليتها فى عريها الوضاح ، وحدا بى الأمل أن امضى فى رائعة النهار خلال دروب الأهواء المتشابكة الغامضة التى اتابع معالمها • وقد طرقت اولا أبوات علم النفس • الذى كان لواؤه قد انعقـــد حـــين ذاك لفونت فالفيته مثبطا اذ بدا فى اغلبه مركبا من مصطلحات جوفاء ، لا تؤدى

الى شيء معين ولا تقرب المرء خاصة من الينابيع الغامضة للانفعالات الانسانية · فأخذت اقرأ عن الصرع الذى لعب دورا ليس بالقليل فى حياة دستوفيسكى وعمله ، ومنه انزلق اهتمامى الى الميادين المجاورة للطب العقلى وعلم النفس المرضى · ولاح ما وجدته مبشرا · فأصبحت شديد الولع بها · كما حوت هذه العلوم فتنة الغريب الغامض من الامور. أعنى شيئا اشبه بـ (العلوم السحرية) · التى اثارت تطلعات شبابى للحسى والمستغرب · وكان كل هذا اقرب الى من مختصرات « علم النفس السوى » اذ كانت المعلومات مثيرة على الأقل وان بدت الايضاحات لاتلقى ضوءا كافيا فى أغلب الأحيان وعلى ضحالة مثبطة أحيانا اخرى·وفى غضون هذه الدراسات المشعثة وقع بين يدى كتاب ذو عنوان خلاب ، لكن يثير بالذهن الحيرة والاضطراب ، وهو «تفسير الأحلام» وشعرت منذ شرعت فى قراءته أننى قد انفعلت بأصالته البينة واندهشت للزاوية الجديدة التى حازت فى ظلها الحقائق البسيطة المعروفة ، منذ أمد بعيد ، معنى مذهلا · فما من كتاب علمى آخر اخبرنى عن المشاكل التى كانت تقع منى مثلما تقع من أى فرد آخر موقع الرؤية الدائمة لكنى ما ارتأيت فهمها أو حاولته · وما من كتاب غيره جعل الحياة تبدو بمثل هذه الغرابة · وما من كتاب عداه فسر الغازها وتناقضاتها بوضوح كاف · وقلت لنفسى ان هذه الكشوف المذهلة تحتاج لأوفى فحص بل وتستحقه ، وما كنت لآسف على الوقت الضائع لو اتضح فى نهاية الأمر أن كل نظرية مسطورة فى صفحاته لا تعدو أن تكون من سقط المتاع · وعقدت العزم أن أكرس له شهورا ·· بل سنينا لو اقتضى الأمر ·

وعرفت أن مؤلف هذا الكتاب المكهرب يعيش معى فى نفس المدينة بالقرب من بيتى · وسمعت أناسا يعرفونه ويعرفون عائلته ويذكرون اسمه بين الحين والحين وعرفت أيضا أن الدوائر الاكاديمية الرسمية قد نبذته وعلمه ولكنه منح لقب أستاذ زائر اعترافا بعمله السابق فى الأمراض العصبية · ووجدت فى قائمة الاسماء بالجامعة ان الأستاذ فرويد يحاضر بمدرج عيادة الطب العقلى فى أمسيات السبت لمدة ساعتين — وهو وقت غير ملائم لا يستدرج جمهورا · والآن نعود الى النقطة التى بدأنا منها ·

كنت اعرف قاعة المحاضرات جيدا لأنى تعودت ارتيادها لأستمع الى محاضرات عن الطب العقلى يلقيها الاستاذ المتفرغ فاجنر فون جورج Wagner Von Jauregg (وقد حاز جائزة نوبل فيمابعد لكتابه عن علاج

حمى الشلل النصفى ، ولم يكن ذهنه متفتحا لدقائق علم النفس ، والتحليل النفسى خاصة وكان وفرويد يطلبان الطب سويا وسادت بينهما مودة تنقصها الحرارة ، ولكنها مفعمة بالاحترام المتبادل • وكانت القاعة عندما رأيتها من قبل ترتع فى ضوء النهار الساطع ، والمقاعد كلها مكتظة بالطلاب • اما الآن فالنوافذ معتمة والضوء الوحيد ينساب من مصابيح قليلة استقرت على منضدة المحاضر ، وخلعت صفوف المقاعد المتصاعدة الخاوية على القاعة مظهرا شبحيا • ولما كنت أعرف تمام المعرفة حيائى وتخاذلى أمام أية مغامرة جديدة ، ولو كانت مغامرة متواضعة مثل هذه، فقد اصطحبت معى ابن عمى ، آملا أن يزودنى وجوده بالشجاعة اللازمة • ولكنى شعرت فى هذه الظروف بخوف يتزايد كل لحظة ، وعندما دخل سيد نصف واضح انه استاذ ، اتجهت صوب الباب ، هامسا لابن عمى فى اضطراب اننا قد أخطأنا المكان ، فماذا كان عساه يحدث لو نجحت محاولتى فى الهرب ؟ يقينا ، كان دخولى مجال التحليل يتأخر سنة أو اكثر ، لكن كان من المستحيل أن تأخذ حياتى كلها مجرى مغايرا • ولحسن الحظ ، لم أفلح • كان السيد النصف الملتحى لحية بلون القسطل ، نحيلا متوسط الحجم ، وكانت عيناه عميقتين نفاذتين وجبهته ذات ارتفاع ملحوظ عند الصدغين • قال باللطف طريقة ، مشيرا لنصف من ثمانى أو عشر مقاعد فى نصف دائرة بمقدمة المقاعد ، قرب منضدة المحاضر ، حيث جلس نفر من الناس : « هلا ازددتم اقترابا وتفضلتم بالجلوس « أيها السادة ؟ » •

واستجبنا لدعوته وعندما بدأ محاضرته فقدت حالا كل اثر للحياء او « الكف » فقد تحللت وذابت كلها فى اهتمامى الشديد بما كان يقوله وبأعجابى بالطريقة التى قاله بها وكان هذا التأثير يزداد امتدادا وعمقا كلما ازددت اصغاء وتعلما • وتبدد حيائى الذى ازاحه جانبا عند لقائنا الأول وتلاشت معه موانع اخرى كثيرة وعقبات داخلية كانت تعترض طريقى •

كانت الكراسى قد صفت فى مقدمة المقاعد الخاوية لأن فرويد كان يكره أن يعلى صوته الذى كان ينقصه ما يدعى بالرنين « المعدنى » فى الأصوات • وبعد اثنى عشر عاما عندما اجتذبت شهرته المتزايدة جماهير اكثر عددا كان يحاضر فى مدرج آخر اكثر اتساعا ، لكن ليس بسعة المسرح ، وكان قادرا على أن يجعل نفسه مسموعا بوضوح فى كل جزء من حديثه • لكن هذا كان يعنى بذل جهد لا يحبه ، وعندما فسد

لدى هذه الجماهير الجديدة الاهتمام العلمى الجدى بمقادير كبيرة من الغطرسة والفضول العامى تخلى سريعا عن محاضراته الاكاديمية . وبعد الحرب تحدث فى مناسبات قليلة فقط فى اجتماعات جمعية التحليل النفسى ومؤتمراتها . وقد جعله منطقه السليم وبيانه القويم مسموعا بوضوح برغم أن صوته كان يفتقر الى النغمات الثرية السخية التى تندفع مباشرة الى الأذن وتعير الكلمات قوة موحية . وما سمعته أبدا يعلى صوته فى حالة الغضب او الاستثارة .

وكان الجو وديا وغير رسمى فى امسيات السبت هذه التى سرعان ما أصبحت محورا يدور حوله عالمى الخاص ، وكان عدد « الحواريين » ستة أو سبعة ولم يبلغ أبدا خمسة عشر . وكان اغلبهم ينتمى الى الحلقة التى اخذت تتكون حول فرويد وأصبحت فيما بعد نواة جمعية التحليل النفسى الأولى . وكانت تطرح للمناقشة موضوعات التحليل النفسى ومشاكله القائمة أو التى لاتزال فى طور التكوين . وكان تفسير الأحلام ، واللاشعور والكبت ، والشكل العام للعصاب هى الموضوعات المفضلة بطبيعة الحال . وقد اضافت الآفاق العديدة الجديدة المتفتحة أمام عيوننا ، والامكانيات التى لا تنفد لميادين جديدة ، ومناهج البحث المستحدثة فى كل فرع من فروع هذا العلم قدرا كبيرا الى ما فى هذه الساعات من تشويق شامل . وتعلمنا شيئا عن طبيعة التحويل وبدأنا نفهم اللاشعور على انه وجود قدر داخلى يقضى بأن يعود نفس النموذج الى الحياة مادامت عجلة الحياة تدور حول محور ثابت ، وما دامت أقدم الخبرات تكرر نفسها مرة بعد اخرى تحت أقنعة مختلفة (التكرار القهرى) . كما حصلنا على لمحة اولى عن « التحليل التطبيقى » أعنى استخدام المعرفة باللاشعور والتكنيك التحليلى لتفسير أعمال الفن والأدب ، وبحث المشاكل الاجتماعية وكذلك مشاكل العصاب والأحلام . ولم يزج كل هذا بطريقة ادعائية مفتعلة ، فما من كلمات ضخمة اعلنت عن عظمة الاكتشافات الجديدة . اذ لـم يدع فرويد دور النبى الذى يخبر عن الغوامض التى تكشفت له وحده . فكانت النغمة السائدة فى حديثه هى نغمة الحديث الهادىء ، تزينها غالبا الملحوظات الساخرة أو الحاذقة ، لأن يقينه بالنتائج البعيدة المدى للحقيقة الجديدة (التحليل النفسى) كان من العمق بحيث يحول بينه وبين محاولة تاكيدها والاصرار عليها .

لم يكن فرويد يحاضر فى كل امسية من هذه الأمسيات . فقد كانت لدينا فترات تخصص للدراسة عندما كان أفراد الجمهور فى

خلالهـا ينقسمون مجموعات ليقدموا عرضـا ونقدا لكتاب أو مقـال ، يشفع بمناقشة عامة • وثمة مناسبة لا تبرح ذاكرتى بصفة خاصـة ، كان يتعين على كل وافد جديد علينا لا اعرفه أن يلقى تقريرا عن تجربة التداعى(*) • فشرع يوضح قصده قائلا : « انه يتعين أن ينطق المختبر سـلسلة من الكلمات ويتوقع من المختبر أن ينطق بعد كل منها الكلمة التى تخطـر الى ذهنه أولا • واردف قائلا : « فالمختـبر مثلا يقـول « حصان » فيرد المختبر بكلمة (مكتبة) « •• وهنا قاطعه فرويد » اذا لم أكن مخطئا فانت ضابط سـابق بسـلاح الفرسان وكتبت كتابا عن علم نفس الجياد ؟ » « أجل » (ها أنت ذا قد قدمت عفوا خير برهان عن الحتمية الدقيقة لقوانين التداعى • وقدمت نفسـك ومجـال اهتمامك للجمهور عن طريق المثال الذى اخترته كيفما اتفق • »

ودارت بيننا فى مناسـبات اخرى سلسلة من المناقشـات حـول المنهج الصـحيح لتفسـير الفن الأدبى • وهل يلزم هنا وهل يمكن اسـتخدام نفس التكنيك الذى يسـتخدم فى اعـادة تركيب المضـمون اللاشـعورى لحلم من الأحلام وقد اصـر على هذا الرأى « الجناح الراديكالى » وانصار خيال « رحم الأم » وحاولوا أن يجدوا له مثالا فى هاملت •

وانى لأذكر مناسـبة أوضـح فيهـا فرويد مبدأ علميـا عن طريق نكتة استمدها من خبرته الخاصة لا يمكن اغفالها لما لها من الأهمية • كانت المشكلة التى عالجها هى « الحتمية المغالية » أى ، السببية المتعددة التى توجد فى كل مكان ولـكنها ذات أهمية خاصـة بالنسبة لمنتجات اللاشعور • فنبهنا الى خطورة الاكتفاء السهل حتى عندما تبدو الأسباب المعروفة من الكفاية بحيث تنتج عنها النتيجة ، فاخبرنا قائلا « منذ سنين مضتا قضى استاذ طب نحبه وكان قد نص فى وصيته على وجوب تشريح جثته وأجرى التشريح والفحص مشرح باثولوجى ذائع الصيب وعملت له فى ذلك مساعدا • وقال لى المشرح : « انظر هاهنا ، ارايت الى هذه الشرايين ! انها صلبة وكثيفة كالحبال • بالطبع ما كان بمقدور الرجل أن يعيش بها » • فاجبته « حسنا ، ولكن الواقع أن الرجل قد عاش حتى الأمس بهذه الشرايين » •

وعندما ناقش معنا العـلاج التحليلى النفسى للعصـاب استخدم صـورة فى حجم الكرت بوسـتال من النوع العادى ليجلو مقصده •

(*) التداعى النفسى •

كانت الصـــورة تمثل فلاحا ـ أو بدويا من قاطنى الجبال ـ فى حجرة نوم بفندق يحاول أن يطفىء مصباحا كهربائيا كما تطفأ الشمعة • ثم قال : « ان أنت هاجمت العرض مباشـــرة فانك تتصـــرف كما يتصرف هذا الرجل • ولذا يجب عليك أن تبحث عن السويتش » •

ولقد أخـــبرنا فرويد عن ماضى التحليل النفسى وعن مســـتقبله وخاصـــة عن المراحـــل الأولية لعمله ، التى قادته خطوة فخطوة نحو التحليل النفسى • وتحدث بحرارة وتقدير عن « تشاركوه » كرجل ومعلم عظيم بالفعل مد يد العون للغريب المغمور بأن ادمجه فى دائرة اتباعه الخلصاء • وكان يحب أن يستشهد باجابة « تشـــاركوه » اذا ما حاول امرؤ أن ينقص ما اثبتته التجربة بالالتجاء الى ســـلطة من الســـلطات Cela n'empeche Pas d'exister (ذلك لا يمنع من وجوده) • وكان واضحا أن « ليبوه » هو الاثير لديه ، ذلك الطبيب الريفى البسيط الذى وجد فى نفسه الشجاعة ليعالج مرضاه بالتنويم ، وهو منهج كان يعتبر حتى ذلك الحين غير علمى وغيـــر كريم ، غيـــر قاصـــد من وراء ذلك مطمحا شخصيا ، وغير مؤيد بهيئة عيادية مدربة ، وانى لأذكر الآن بشىء من الأسف ، أن فرويد المبرأ من كل تمييز « عنصرى » أوضـــح فيما هو يرينا صورة « ليبوه » كيف كان وجهه غير لاتينى un-latin (والكلمة اليوم تعنى « نوردى ») وكيف يتلاءم هذا مع اسمه الذى كان الواضح انه تحريف للاسم الالمانى ليتبولد Luitpold •

وقد تحدث الى فرويد ـ فيما تلا من سنين ـ أكثر من مرة عن ايام طلبه فى باريس التى يحتفظ عنها بأطيب الذكريات ، فقال لى يوما • «انى اذكر أنه ذات يوم من ايام الربيع ، كانت تسير أمامى جماعة من الشباب والشابات فى شارع ســـان ميشيل • وكانت الجماعة تتوقف بين الحين والحين عن المسير ويأخذ افرادها فى القيام ببضعة خطوات راقصـــة تلقائيا دون سبب أو باعث ظاهر ، اللهم الا لأنهم فى ريعان الشـــباب وفى باريس والوقتربيع » •

وبينما كنت أصغى بشغف الى محاضـــرات فرويد كنت أدرس بجد طريقته الفنيـــة فى العرض (بقصـــد تقليده) فقـــد كان العجب يتولانى لنجاحه دائما فى الوصول الى امر غير متوقع مثير للدهشة بينما ينساب حديثه هادئا فى الفاظ بســـيطة ، دونما حاجة الى الألفاظ النارية ذات العمق المحير أو المفارقات البراقة • وتبينت انه كان يحسن الاســـتفادة

من الوصفة التى يصفها شوبنهور لبلوغ الأسلوب الجميل : « قل أشياء غير عادية مستخدما كلمات عادية » وكان يتبع هذه النصيحة بالحدس دون أن يعرفها (فأنا أعرف يقينا انه قرأ شوبنهور لأول مرة بعد سنين عديدة من ذلك عندما استعار نسختى من طبعة الجيب الرخيصة ليقرأها اثناء الصيف) • وكان الأثر المذهل الناجم عن محاضراته قائما على تضاد من نوع خاص • فقد كان يقدم كل الوقائع الضرورية ، ويشرح المبادىء الرئيسية ، حتى تلك التى سلم بها المرء تسليما باكبر قدر من الدقة • وعندئذ يقدم نتائجه بحرص على أساس متين وقبل أن يخطو الخطوة التالية كان يوضح كل المعارضات الممكنة ، ويصوغها بجلاء ويفندها باستيفاء ، بحيث يبدو اذا ما تحرك فى اتجاه غير متوقع وكأنه يقوم باكثر الأشياء طبيعية • وكان اذا اضطر الى ترك حجة ناقصة ، يشير الى ذلك ثم يعود اليها فى اللحظة المناسبة • وبهذه الطريقة كان يقود مستمعيه تلقائيا ، دون أن يشعرهم ابدا بأنهم يشاركون فى بحث عسير بالغ الأصالة •

فى خلال هذا الوقت كانت الخيوط الأولى لعلاقاتنا الشخصية قد تثبتت فى أكثر من موضع • فانعقدت أواصر الصداقة بينى وبين كثيرين من أولئك الذين كانوا يحضرون المحاضرات ويشتركون أيضا فى الاجتماعات الخاصة التى تعقد ببيت فرويد • فنشأت صداقة بينى وبين اوتورانك الذى كان حينذاك والذى ظل لوقت طويل « رجل الذراع اليمنى » بالنسبة لفرويد • وأدى بى عرض تعين على تقديمه عن مقال لفرنشيزى حول « الاسقاط والامتصاص(*) » الى الاتصال بالمؤلف • ثم اقبل اليوم الذى وطئت فيه بيت فرويد وظفرت لأول مرة بحديث طويل أليف معه •

كانت ترجمتى لكتاب « انشودة غرفة الثكنات Barrack-Room Ballad لكبلنج قد نشرت حينذاك وقد كانت الوداع أو النصب التذكارى ، لاهتماماتى الأدبية الخاصة » • وذهبت ذات مساء بقلب خافق ، لأقدم نسخة لفرويد •

كان فرويد يعيش حينذاك فى نفس المنزل الذى ظل يعيش به الى أن غادر فيينا ، أى ١٩ شارع الجبل • وكان الشارع اسما على مسمى ،

(*) الامتصاص هو تشرب الأشياء والأشخاص تشربا لا واعيا داخل النفس البشرية •

« المترجم »

اذ كان جانب منه ظاهر الانحدار حتى بالنسبة لأرض فيينا المتعرجة ، وكان طرفا الشارع ينتميان الى عالمين مختلفين ، كما هو الحال غالبا فى المدن القديمة • فكان يبدأ من « سوق المبيعات الرخيصة » وهو سوق فيينا التاريخى «للخردة» ، وينتهى عند الكنيسة التذكارية ، وهى كاتدرائية على الطراز القوطى تشرف على أكثر ميادين فيينا اناقة ، تحوطها الجامعة وبعض الأبنية العامة الأخرى • وكان رقم ١٩ يقع فى الجانب الراقى من الشارع قريبا من سوق المبيعات الرخيصة ولكن الجيرة التى تحوطه تتميز بالهدوء والاحترام ، وان لم تكن متميزة عن غيرها فى كل شىء وكان مكتب فرويد يقع بادىء الأمر فى الطابق الأرضى وبيته بالطابق الثانى وفى وقت زيارتى كان المكتب قد نقل الى الطابق الثانى فأصبح من ثم قاطنه الوحيد • وكان البيت والمكتب يتصلان من الداخل ، لكن كان لكل باب على الجانب المقابل (بالطبع على أى جانب يختار المرء أن يدق الجرس ، يفتح الباب المواجه له) • وقد أخبرنى فرويد بعد بضع سنين أن الطابق قد شغله قبله دكتور فيكتور ادلر تابعه وتلميذه السابق ، وزعيم الحزب الاشتراكى الديمقراطى ، والذى أصبح بعد الحرب أمين سر الدولة لفترة قصيرة من الوقت • وكانت الحجرة التى يشغلها مكتب فرويد حجرة مهد ابن ادلر الذى اشتهر ابان الحرب العالمية الأولى ، لاغتياله الكونت اشتركخ ، احتجاجا على حكمه الجائر • وقد خفف حكم الاعدام الذى صدر ضده ثم اطلق سراحه بعد توقيع الهدنة •

وكان المكتب يتكون من دهليز صغير معتم وثلاث حجرات ــ حجرة الانتظار ، وحجرة لعيادة المرضى ، وخلفهما حجرة المكتبة • وكان لكل حجرة نافذة تطل على فناء قامت بمنتصفه شجرة باسقة فرعاء • ولم يكن النور أو ضياء الشمس يغمر أية حجرة من هذه الحجرات وكانت مؤثثة تاثيثا مريحا بحسب الذوق والأسلوب السائدين فى بيوت الطبقة المتوسطة فى السنوات الثمانين ، مثلها مثل البيت الذى ترعرعت فى رحابه • ولم يكن بها شىء يتميز بالطرافة أو التفرد ولا الحجرات التى يعيش فيها والتى رايتها فيما بعد • كانت حجرة المكتب فحسب تتميز بمسحة فردية واضحة لا تعزى الى أسلوب الأثاث ، بل الى أرفف الكتب المفعمة التى تغطى الجدران حتى تبلغ السقف والقوارير الزجاجية التى احتوت مجموعة فرويد من التحف الأثرية ، وبالرغم من أن الأخيرة كانت فى مراحلها الأولى الا أن بعضها كان يجتذب عين الزائر لأول وهلة • وساتحدث عن ذلك فيما بعد •

لقد نسيت بالضبط ما تحدثنا عنه اثناء هذه الزيارة الأولى · وكل ما اذكره ان فرويد استقبلني بحفاوته المميزة · وكان الأدب هو الموضوع العالم للحديث بسبب كتابي كما اذكر أيضا اننا اشتركنا فى ازجاء المديح للشـــاعر الروائى الســـويسرى الكبير كونراد فرديناند ماير · وكنت فى ذلك الحين معجبا متحمسا له ، لشغفى بوجه خاص بكتابه « اغراء بيسكارا » (ولا زلت كذلك ولكن ليس كما كنت من قبل) وقد تبينت من استشهادات فرويد فى محاضراته ومن بعض اشـــارات طفيفة انه هـــو ايضـــا قد عرف نفس المؤلف وأحبه · ثم علمت فى الشـــتاء التالى ان الجماعة التى ظلت حتى الآن غيـــر رسـمية قد كونت جمعية للتحليل النفسى · فكتبت خطابا للدكتور الفريد ادلر الذى كان يشغل منصـــب الرئيس حينذاك ملتمســـا قبولى عضوا ، مســـتوصيا بالأستاذ فرويد ، وقد حزت القبول وحضرت الاجتماع التالى وحضر معى أيضـــا اثنان او ثلاثة أعضاء جدد كانوا مثلى يحضرون محاضرات فرويد بانتظام · وكان مكان الاجتماع عبارة عن حجرة كبيرة تخص (كلية الأطباء) وقد أجرتها الجماعة مساء الثلاثاء من كل أسبوع · وكنا نحن الأعضـــــاء الجدد على شىء من التهيب بالطبع أول الأمر فلم نشترك بالنقاش الى ان قال فرويد : « لســنا نريد أن ننقسم الى طبقة عليا تقوم بالحديث كله وطبقة ســـفلى تستمع سلبيا » · فذاب الجليد وحلت الألسنة · وقد دار الموضـــــوع ، ان لم تخنى الذاكرة ، حول بعض الأمثلة التعليميـــة لتفسير الأحلام بواسطة فرويد ·

وكان الدكتور ادلر فى هذا الاجتماع وبعض الاجتماعات الأخـــرى يتولى منصب الرئاسة ، ولكن ســـرعان ما بدأ النزاع الذى نجم عن نظرياته الجديدة وآرائه المخالفة وكان يعطى من المجـال فســحة كافية ليعرض آراءه عرضا وافيا ويدافع عنها من يشـاء وينتقدها ويفندها من يريد · وكان فرويد يقوم فى المناقشة بدور بارز ، فهو ما هادن خصمه ابدا وما توانى عن استخدام الكلمات القاصمة والملحوظات الحازمة لكنها ما انحطت ابدا الى مستوى النيل من الشخصيات · وكل من خبر هذا النوع من المناقشـات يعرف انهـا تتجه الى الذوبان فى التفاصيل الضئيلة بدلا من اجتلاء الأسس ولكن هذا لم يحدث بفضل حزم فرويد · وكانت النتيجة الخالصة أن نظريات ادلر بعد أن اســـتبعدت منها أهمية الجنسية الطفلية ، والكبت واللاشعور لم يعد يجمعها بالتحليل النفسى سوى القليل · وترتب على ذلك منطقيا أن فارق ادلر التحليل النفسى · واعتزل معه بعض الأعضاء الآخرين ومن بينهم الأعضـــاء المستجدون

الذين انضموا معى الى الجمعية · ولم يكن اغلبهم يشارك ادلر آراءه · وانما بنى قراراهم على أن المسألة برمتها تهدم « حرية العلم » · ولعل نقد فرويد الحاد قد آذى مشاعرهم الرقيقة وجعلهم يعتقدون أن أدلر كان محقا فى شكواه من عدم التسامح · ودعت جماعة ادلر الجديدة نفسها « جماعة التحليل النفسى الحر » · ثم تخلى فى المراحل الأبعد مدى من موقفه الجديد عن اصطلاح « التحليل النفسى » واستبدله باصطلاح « علم النفس الفردى » ومن المناسب هنا أن نقول كلمة عن « حرية العلم » حيث ان هذا الشعار قد استعمل على نطاق واسع منذ هذه المناسبة الأولى حتى يومنا هذا بزعم الدفاع عن «المبدأ الديمقراطى» فى بعض الحالات ، ومن المحتمل أنه لن يقل فى المستقبل استعمالا عندما يحلل الأمر تحليلا نفسيا · والذى دلى به هنا عن هذا الأمر يمثل وجهةنظر فرويد ـ ووجهة نظرى كذلك ـ التى سمعته يعبر عنها بطرق متنوعة فى عديد المناسبات بحيث اجدنى عاجزا عن نقل كلماته فى مبناها ، فكل ما أستطيعه هو توصيل معناها ·

تعنى حرية العلم أن كل مؤمن بها يستطيع أن ينشر رأيه الشخصى فيما يتعلق بأية مشكلة يتخيلها الفكر دون التقيد فى اختياره بمصادر المعلومات أو أشكال البحث وتعنى كذلك أن أى فرد يمكنه صياغة هذه الآراء ونشرها وبذل المحاولة لاقناع الآخرين الذين يقبلون الاصغاء اليه ، بأن يطلعهم على مالديه من مادة وحجج يستند اليها · ويأتى الخطر على هذه الحرية من أولئك الذين يمكنهم الحيلولة دونها بالقوة والقمع سواء كانوا يشكلون حكومة ، أو حزبا سياسيا ، أو كنيسة أو أية جماعة ذات سلطان تستطيع بواسطته التأثير على الرأى العام · ومبدأ السلطة لا يهم الجماعات العلمية فى شىء مادامت لا تستخدم اسم العلم ستارا يستتر دعاية سياسية أو دينية · والتحليل النفسى سليم من هذه الوجهة تماما ، لأنه كان موضوع اضطهاد ، ولا زال كذلك من الأغلبية الساحقة ·

أما مشكلة من ينتمى الى جماعة علمية أو لا ينتمى فلا علاقة لها بحرية العلم فهى مسألة مزاج بكل ما فى هذه الكلمة من معنى · اذ لا يؤتى التعاون بين العلماء بقصد البحث أو المناقشة ثمرة الا اذا أجمع كافة المشتركين على انهم متفقين على المبادىء الأساسية · لكلما ازدادت المشاكل فى ظل البحث تحديدا ، ازداد مقدار الأفكار التى تقتضى تفاهما تاما · فاذا تكونت جماعة من الاقتصاديين لدراسة بعض المصاعب

النظرية المتعلقة بالقيمة المتغيرة للسلعة ، فلا يمكن ان تلام الجماعة اذا رفضت أن ينضم اليها ماركسيون متعصبون يصرون على أن القيمة الاقتصادية للسلعة ليست ذاتية على الاطلاق ، بل تعتمد على مقدار الجهد المبذول • ولا يسلم اساس البراهين العلمية من اعادة بحث المراحل الأولى وفحصها ، ولكن لا يمكن أن يقع هذا البحث المعاد من نفس الجماعة موقع القبول بينما هي مشغولة بتشييد الطابق الخامس أو السادس من البناء • ومعنى هذا ، انه عندما يتنكر فرد أو جماعة من أعضاء منظمة علمية كهذه للأساس المشترك الذى كان سبب تجمعهم فليس أمامهم سوى الانفصال كحل معقول • فاذا ترددوا فى ذلك طويلا ، يكون الآخرون الذين تعوق المشاحنات العقيمة عملهم باستمرار محقين • فى الاشارة الى الباب • وليس هذا التصرف خنقا لحرية الفكر والضمير ولا عقبة تعترض طريق البحث عن الحقيقة ، ولا حاجزا دون الجهر بالمخالفة فى الرأى • ان مناقشة الأساس العريض للمبادىء العامة من اى فرد يهمه الأمر ، يمكن أن يصيب نفعا بين الحين والحين • ولكن هذه المناقشة لن تكون ذات نفع بالنسبة لأولئك الذين انضموا الى بعضهم بقصد قطف ثمار من شجرة المعرفة اذا لم يتفقوا بادىء ذى بدء على مكان الشجرة • وبالتالى اذا ما اسس المدافعون عن الحرية مدرسة خاصة بهم ، فعليهم أن يتبينوا بانتظام ان جماعتهم تكون من عناصر متجانسة فهذا ابسط شىء فى مقدورهم • وما من محلل نفسى أصيل اشتكى من انه لم يقبل فى جمعيا تيونج أو ادلر • ولم يريد ذلك ؟ •

تحدثنا ذات مرة عن استاذ ألمانى كان يرفع عقيرته بطريقة صاخبة داعيا لقمع كل ضوضاء لا ضرورة لها ، مطالبا بتدخل الشرطة ، ، لتكوين جمعية تكافح الضوضاء فقال فرويد مبتسما : « انه يريد أن يثير الضوضاء كلها وحده » •

كما أن هناك بالطبع خطورة ضيق الأفق • فالاختلاف على النقاط الضئيلة قد يصبح أداة خطيرة فى يد خصم شخصى ، أو خصوم متعصبين ، أو أفراد قصيرى النظر يركزون انتباههم على تفاهات وهى أشياء يمكن أن تحدث بين العلماء كما تحدث بين غيرهم ، ولكن الانفصال الصريح خير من الجفاء المتزايد • وقد بردت حمى هذه الصراعات الآن بحيث يمكن النظر اليها الآن دون تحيز • وبالنسبة لى شخصيا ــ برغم أنه يفيدنى أن أمثل دور السيد الصامت فى مسرحية هنرى الرابع « فاقر أواصر السلام » ــ اعتقد انه يجب الاشارة بحزم

الى الانفصال بمجرد ما تدل المجادلات والمحاجاة عن اتجاه ثابت للسير فى نطاق دائرة معينة ، والنكوص الى نفس الموضوع ٠

بعد رحيل ادلر ومن تابعوه لم يكن لفرويد معدى عن تولى الرئاسة الرسمية للجماعة الفينوية ٠ وعلى الرغم من انه كان يؤثر كل الايثار ترك كافة الوظائف الرسمية لغيره الا انه احتفظ بمنصب الرئيس منذ ذلك الحين حتى تقدم به العمر وحتم عليه المرض الاعتزال ٠ فشغل وظيفة رسمية ، والظهور فى مركز الصدارة ، والتميز والبروز كانت كلها أمورا ضد ارادته ٠ كان يريد فحسب أن يحيط نفسه بأناس يشاركونه أفكاره ويكرسون أنفسهم للتحليل النفسى دون هدف آخر ، وأن يبقى بمعزل عن أولئك الذين يتبعونه بعماء « منومين » بشخصيته أو مقادين « بتحويلهم الايجابى » كما نقول نحن المحللين ٠ لهذا السبب أقر ادلر فى كرسى الرئاسة ، وهو خطأ كرره بعد ذلك على نطاق أوسع عندما أصر على تعيين يونج رئيسا « للجمعية الدولية للتحليل النفس » ٠

بيد أن هذه السلسلة المستمرة من الأخطاء فى الحكم على الذين يحيطون به لا تتناسب مع شهرته كواحد من أعظم السيكلوجيين يتحتم أن لا يكتم العقل عنه سرا ٠ وهو نفسه يؤكد دائما انه ليس قارئا للعقول أو عارفا للناس وقد دهشت بل ذهلت عندما سمعته يقول ذلك ٠ اذ أنه لم يهدم فكرتى الخاصة عن الفوائد الطيبة لعلم النفس فحسب ، بل هدم خبراتى الفعلية معه كذلك ٠ فقد أجبرتنى قسوة الظروف مرة أو مرتين على أن اكشف له جانبا من حياتى أبقيته مشددا حتى ذلك الحين طى الكتمان ٠ فتبينت لدهشتى ، بل لفزعى ، انه كان عالما بسرى طوال الوقت ٠ فقد كان يستخلص نتائجه من ملاحظة أبسط العلامات وأدقها ، فروح كتابه « علم النفس المرضى للحياة اليومية » تدل على ذلك ٠ لكنه لم يجانب الصواب اذ نسب لنفسه افتقاره الى المقدرة على قراءة عقول الآخرين ٠ فهو قد تبين بكل عمق ووضوح كل صفة فردية وكل عامل خبىء ، ولكنه سما بشخصه الى مستوى أسمى بكثير من المستوى الذى تدور فى نطاقه العقول العادية عادة ٠ لقد تبين الغيرة الجامحة والصحة ، والعذاب والدوافع العقلية فى صورها الراقية منزهة عن أى قصد سوى القصد العلمى ٠ وكان ذلك بالنسبة له كصبى فى متاهة ولكن بمعنى مخالف تماما ٠

وبالاضافة الى كراهيته لان يبدو فى مركز الضوء كان هناك سبب آخر لتفضيله عدم التدخل فى اتجاه الجماعة ونظامها ، الا وهو ٠ التوتر

الذى كان يتزايد حتى يبلغ حد العداء بين أفراد من الجماعة أو بين مجموعات صغيرة منها • والسبب فى انه لم يبلغ أبدا حد تكوين معسكرين متعارضين يعزى فحسب الى تشابك التنافرات الشخصية المتنوعة بحيث انها لم تصل أبدا الى حد التكتل • فان رجلين يشتركان فى كراهيتهما لثالث ، قد يبلغ كره أحدهما للآخر أحيانا حدا يجعل عداءهما المشترك قاصرا عن تكوين رابطة بينهما • كان المنتظر المأمول ان جماعة قليلة العدد ، أفرادها منشغلون انشغالا عميقا مخلصا بأمر معين ـ وهو ما كان واقعا بالفعل ويعانون من عداء العالم الخارجى ، أن يرتبط أفرادها بشعور الزمالة ، فقد شبت مرة بعد أخرى بقوة متزايدة ضروب الحسد ، وادعاءات الأفضلية ، والنقد الجارح والاحساسات المجروحة أشبه بنار تزداد اوارا • وكان خوض غمار هذه المشادات التافهة والاتهامات السافلة عملا لا نهاية له ولا فائدة فيه وأمرا عسيرا على فرويد الذى كان السبب فى كل هذا الشقاق أغلب الأحيان على كره منه • فقد كان التنافس بغية الحصول على رضاه واستحسانه الينبوع الرئيسى لهذه المشاحنات •

ربما كان هذا الموقف عاملا من العوامل التى ساهمت فى ان يرشحنى عضوا فى الطليعة (لجنة التنفيذ القيادية) اعنى عندما أصبح من الضرورى اعادة تنظيم الجماعة بعد انفصال ادلر وأعوانه • وفى نفس الوقت بلغت صداقتى لاوتورانك مبلغ الاخاء المتبادل كما هو الممكن مع شخص يتمتع بمثل ما كان يتمتع به من دماثة فى كافة الأمور الشخصية • ومن المحتمل أن فرويد قد ارتأى أنه من الأفضل أن يحتفظ بالقرب منه برجلين على استعداد لأن يتعاون كلاهما دونما ضغائن أو حزازات • وقد دامت صداقتنا الى أن أدار رانك ظهره لفرويد والتحليل النفسى ، وكانت علاقاتنا الطيبة خلال تلك السنين ذات عون كبير لفرويد فى تثبيت دعائم التحليل النفسى ونشر مجلتى «تسايتشريفت » وايماجو • ثم الفت بالاشتراك مع رانك كتابا عن التحليل النفسى التطبيقى كان دعامة نافعة فى سبيل الجهود المبكرة الرامية لاستخدام التحليل النفسى فى ميادين كثيرة مستحدثة ، ثم صرنا شريكين فى كتابة كل شىء وقد أعاننا فى هذا السبيل أننا كنا نتبادل خططنا وأفكارنا ، بحيث أن أى نتاج فى هذه الفترة كان يحمل علامات تدل على ماقشاتنا ، ولكن توقف كل هذا عندما اصدر رانك كتابه عن « صدمة الولادة » ولم يصرح لى بكلمة عن أفكاره الجديدة الى أن قدم لى نسخة من كتابه ، برغم اننا كنا قد قضينا الصيف بنفس المصيف وكان كل منا يرى الآخر يوميا اثناء انشغاله بوضع الكتاب •

ولم تكن اثناء الفترة التى استغرقت صداقتنا نتفانى فى عملنا سويا فى صمت فحسب بل كنا نصيب شيئا كثيرا من المرح ، فقد كان كل منا شغوفا بمساعدة الآخر كلما سنحت الفرصة لذلك • وكانت هذه الصـــداقة تبدو متبادلة تماما ، الا بالنسبة لملاحظ يقظ مثل فرويد يحوز ما سماه سقراط فى محاورة ليسيس لافلاطون « موهبة الألهة » التى تميز فى كل اثنين بين المحب والمحبوب • ولـــكنه لم يبد اية بادرة تدل على ادراكه الحالة الحقيقيـــة لعلاقاتنا الا حين حدثت القطيعة • فعندما سمعنى ابدى أسفى على خسارتى خيرة أصدقائى ، قال مبتسما : « كنت أعلم طيلة الوقت أن صداقتكما كانت من جانب واحد » •

وبالنسبة للوقت الذى أتحدث عنه كانت هذه النهاية التى انتهت اليها صداقتنا لاتزال جزءا من المستقبل المجهول • ومهما كان دافعه فقد رشحنى فرويد لأشغل مقعدا فى الطليعة ، واذا حدث هذا فى اقل من سنة من العضوية كان دليلا قاطعا على الثقة • وما جاء ذلك نتيجة لأنى اشغل منصبا هاما من اى نوع • وكان فرويد يدرك قيمة التنظيم ولكنه كره فى هذا المجال وفى غيره « الشكليات الجوفاء » ، فلاشك انه كان يتبين ببصيرته النافذة مدى تاثير الامتياز السطحى الناتج عن اللقب ، او المنصب ، او المركز الاجتماعى على العقول الضحلة فى موقفها من التقدم العلمى • وكنا نجتمع مرة فى العام اجتماعا عمليا يفتتحه فرويد بقوله : « يجب علينا اليوم أن نمارس بعض اللعب » او كلمات من هذا القبيل • ثم كان على حارس الخزانة أن يتلو بعض الأرقام ويقرر أن الجمعية خالية من الديون • ويعلن أحد الموجودين موافقته ويقترح اعادة انتخاب الطليعة التى كان يجب أن تحوز الأغلبية وعليها يقع عبء العمل العلمى • واظن أننى عينت أولا أمينا للمكتبة •• وكانت تتكون حينذاك من صفين او ثلاثة صفوف من الكتب • وكان العمل القليل المرتبط بها يقوم به رانك ، أمين السر ، الذى كان « المهيمن على كل شىء آخر » باستثناء الرئاسة اثناء الاجتماعات •

وتحدد التغيير الفعلى فى مركزى بالجلوس من الآن فصـــاعدا عند الطرف الأعلى من المنضدة (، بأعلى الملح » كما يقال) بجوار رانك الذى كان مجلسه الى يسار فرويد باعتباره أمين السر ــ وكان هذا ذا أهمية فعلية ــ اذ كنا رانك وأنا نصطحب فرويد عادة فى طريق عودته الى بيته • وكان فرويد بالرغم من عمله الذى يقتضيه عادة الجلوس ، مشاء لا يكل • وكان الطريق الى بيته عبارة عن نزهة طويلة خلال الشـــوارع الســـاكنة (فقد كانت فيينا تستغرق فى النوم قبل الحادية عشـــرة ، فيما عدا بعض الأماكن العامة) • وكنا اثناء هذه النزهات نعيد بحث الموضـــوعات التى

نوقشت أثناء الاجتماعات ونفحصها من جديد • وكان فرويد فى تلك الأثناء يطلعنا على أفكاره الجديدة ونظرياته التى لاتزال فى طور التكوين ، وقد أدرج بعضها فى كتبه فيما بعد وتخلى عن بعضها الآخر عندما تبين انها لم تثبت تحت المزيد من الفحص • وقد بين لنا أن صـــفا طويلا من علامات الاستفهام يكمن خلف كل إكتشاف وعلمنا كيف نتقدم بلا توقف عند نقطة معينة • فلم يكن عنصر الاكتفاء موجودا فى طبيعته • وكثيرا ما أبدى فرويد أسفه أثناء هذه المناقشات من أن الاهتمام بنظرية تفسير الاحلام وتكنيكها ، بدلا من أن يحتل مكانته الواجبة فى مقدمة البحث يمر به غالبا مر الكرام أولئك الذين يفضلون تناول التحليل النفسى تناولا سهلا عابرا وقد اعتاد أن يقول انه يمكنه الحكم على مقدرة المحلل وبصيرته السيكلوجية برؤية كيفية معالجته لتفسير حلم من الأحلام • وكان يبغض المجهودات التى ترمى الى تبسيط تركيب الأحلام بالاصرار على أهمية التأويل الروحى وعرض مضمون الحلم أو مادته • وتعلمت فى هذه الساعات الليلية أشياء كثيرة عن « الطريق السلطانى لفهم اللاشعور » ، كما دعاه فرويد ، والذى لم أستطع فهمه من كتابه •

كان فرويد فى هذه الحالة المسترضية من هذه النزهات الليلية يستغرق فى بحرية أكثر مما فى أى وقت آخر على عادته فى توضيح نقطة صعبة بواسطة احدى القصص • وعندما كان يعثر فى جعبته الثرية بالنكات على واحدة تجيب على قصده اجابة دقيقة لم يكن يعبأ بما اذا كانت « جيدة » أم لا • وقد ناقش معنا ذات مرة الظاهرة الغريبة فى أن بعض الناس يستطيعون تأمل قدر كبير من نقائصهم الأخلاقية وسوء فعالهم بضـــمير مرتاح بينما قد يثيرهم أيما اثارة أمر أقل نسبيا مما « يضرب على الوتر الحســـاس » واستشهد بحكاية فكاهية لاناتول فرانس (وقد ناقش وأوضح نفس النقطة فى مقاله عن «نماذج شخصية بتحليل ربيكاوست فى روزمرشولم لابسن) • وقد لخص رأيه فى القصة : فى نادى مانجاتن بيودابست (وكان فى ذلك الوقت أكثر النوادى أناقة ولا يفتح أبوابه الا للطبقة الارستقراطية فحسب) تراهن أحد الأعضاء مع آخرين على أنه يستطيع أن يتناول قدرا كبيرا من مادة برازية • وقد قدمت له على طبق مذهب بالطبع ، وانكب عليها برغبة وفجأة توقف ، وزوى حاجبيه ، ولم يستطع الاستمرار فى الأكل • لقد وجد فيها شعرة •

وأثناء الشتاء الأول من هذه المشاوير خطوت خطوة أبعد نحو علاقة أوثق بفرويد فقد اقترحت عليه تأســـيس مجلة دورية للتحليل النفسى التطبيقى بعنوان « تطبيق التحليل النفسى على العلوم العقلية » وقد شرحت

له فيما بعد فائدة دورية كهذه وقيمتها بمذكرة أرسلتها اليه عنونتها بعنوان: «الولاء والتفانى الدائمين» مستخدما على سبيل المزاح عنوان الوثيقة التى أوصى فيها جوته (الذى كان على ما يبدو مغرما بهذه الصيغ الباروكية(*) التى كانت سائدة فى القرن الثامن عشر بالنسبة لمراســيم البلاط) الدوق العظيم كارل أغسطس بتعيين شيللر أستاذ للتاريخ بجامعة فيينا (بدون مرتب طبعا) • وقد أقر فرويد بالوقع الحسن الذى وقعه اقتراحى من نفسه وأبدى ذلك بطريقته الخاصة به • فقد استخدم فى الاجتماع التالى فقرة منه أثناء ملاحظاته عن الموضوعات المدرجة للمناقشة • وتبنى مشروعى وتعهده بنشاطه المعتاد • وكانت خطوته الأولى هى المحاولة مع ناشر كتبه لضمان تأييده • وقد قابلنا أعنى رانك وأنا — الناشر ومدير أعماله فى مكتب فرويد وناقشنا خططنا ، فلاح بادىء الأمر ميالا الى الموافقة ، ولكنه عاد فقرر فيما بعد أن مشروعنا يتضمن بالنسبة له مخاطرة مالية • وقد تبين هذا الناشر الألمانى المجوز الحريص بعد بضع سنين أن تهيبه دفعه الى رفض مشروع من خيرة المشروعات العملية التى عرضت عليه ، حيث أنه كان يســتطيع بصفته ناشرا للمجلة الدورية أن يحصل بالطبع على حقوق نشر « الطوطم والتابو » وغيره من المقــالات التى نشــرت بالمجلة أولا • ثم عثر فرويد على رجل أنضر شبابا وأوفر جراة رضى أن يصدر مجلتنا • وقد دسبب لنا عنوان المجلة الجديدة بعض المتاعب • فقد اعتاد فرويد أن يقول : « يجب أن لا يكون العنوان تلخيصا مكثفا للمواد ، بل تخطيطا عاما يستثير الأفكار كما أن الأسماء الطنانة ذات الطابع الشعرى لم تكن تقع منه موقع الرضى• وأخيرا ساد اقتراحى وســميت المجلة « ايماجو » على غرار رواية كارل سبتلر التى تبدو فيها ألاعيب اللاشعور وهجماته على الشعور ، واثارته للقوى الابداعية فى أستاذية مهيمنة • أما كارل ســبتلر الذى زرته مرات عديدة أثناء رحلاتى الى لوســرن ، فكان المديح يزجى اليه بأنه أصبح الأب الروحى لمجلة علمية ، ولكنه لم يعن أبدا ببحث طبيعة اللاشعور بحثا منظما • فقد ابتعد بالغريزة عن كل ما من شأنه أن يعكر صفو حدســـه الفنى •

الى هنا كنت قد تعرفت على عائلة فرويد ودعيت مرات عديدة الى بيته ولكن بعد تأسيس الايماجو وبداية تعاونى المســتمر معه أصــبحت زائرا منتظما فى أمسيات معينة — بصحبة أوتورانك غالبا — العضوا مستديما فى « الحلقة الداخلية » وعندئذ اتيحت لى خير فرصة لألاحظ فرويد ، وأشاهد الكيفية التى يمارس بها عمله ومنهجه فى الحياة •

(*) اسلوب فى فن العمارة ينحو منحى المبالغة والتهويل •

ما كان للكثيرين أصبح لك وحدك

THAT DUE OF MANY NOW IS THINE ALONE

عندما قرأت السوناتا الحادية والثلاثين لشكسبير لأول مرة شـــعرت بهزة لازالت تتردد فى ذهنى منذ ذلك الحين • فقد كشفت القصيدة بطريقة لم يستطعها أى « تحليل نفسى » ، عن أن الحب بالنسبة للمحب العظيم لا يعنى حادثة منعزلة عن غيرها ، بل حادثة تتضمن استحياء لكل ميول حياته (أو « التثبيتات » كما يقال بلغة التحليل النفسى) وتركزها على موضوع متفرد متميز يمنح كل كنوز الماضى ،
things removed that hidden in thee lie

وقد كان المحبوب فى السوناتا كائنا انسانيا ، وشخصا حقيقيا من لحم ودم ، ولكن طبيعة الحب التى كشفها شكسبير تظل كما هى عندما تتعلق بأى موضوع آخر ، مهما بدت الصورة التى يركع عند مذبحها العابد من التجريد ، والجمود ، والبرود بالنسبة لبقية الناس ، وأولئك الذين يكرسون حياتهم لأمثال هذه المعبودات يقدمون تضحيتهم بلا شكاية وبلا من فليس أمامهم سبيل آخر للاختيار •
«And thou — all they — hast all the all of me».

هنا يكمن تفسير منهج فرويد المميز فى الحياة الذى لم يكن أكثر تميزا من منهج كثيرين ممن سبقوه من عظماء العلماء والدارسين وموقفه ازاء أولئك الذين مدوا لعمله يد العون وأولئك الذين وضعوا فى طريقه العقبات •

ويفسر كذلك امعان علمه الخاص ، أى التحليل النفسى ، فى استغراق كافة دراساته المبكرة وارهاصات البحث المبشـرة التى بدأها من قبل فى الفسيولوجيا والأمراض العصبية ، وعلم العقاقير النفسية • (فمقالته عن

نبات الكوكايين قد أعطى الدلالة الأولى عن امكانياته الواسعة كمخدر) ٠ ان هذا التخلى عن طموحاته السابقة لم يكن الا مقدمة لعملية دائمة من التكامل ادمجت بواسطتها كل اهتماماته السابقة فى وحدة جديدة ٠ وقد اذعنت لنفس التفسير حشود الأفكار ، باشـــكالها الغريبة المحيرة ، التى شغلت أفق ذهنه الواسع ٠ ونمت وتكاثرت سنة بعد أخرى حتى فى أواخر عمره ، ولكنها كلها اشتقت من نفس المصدر واســـتمدت مادتها من نفس التربة ٠

كان التحليل النفسى « الخيط الأحمر » المشهور الذى يدل على أن كل شذرة تنتمى الى الكل ٠ (نحن نسمع عن نظام خاص للأسطول البريطانى فكل حبال الأسطول الملكى ، من أضخم قلاع الى أصغر دوبارة ، تحتوى على خيط أحمر منسوج بداخلها بحيث لا يمكن نزعه منها دون فكها كلها وبذا ينطبع أصـــغر جزء بطابع التبعية للتاج ٠ وعلى هذا النحو كانت مذكرات أوتيللا يسودها خيط عاطفة يربط أجزاءها كلها ويحدد خصائصها كافة (جوته ، فى كتابه اختيار الأقرباء ، الجزء الثانى ، الفصل الثانى) ٠

كان التحليل النفســى محور الاهتمام فى حياة فرويد ٠ كانت الابرة المغناطيسية لحياته تشير الى هذا القطب ولا تحيد عنه أبدا ٠ فلم تكن به حاجة لأن يعقد فى سبيل ذلك قرارا ٠ وكان فرويد يعجب ويستشهد غالبا بكلمات كرمويل : « لا يبلغ المرة وطره ، ان لم يحدد مقدما هدفه » ٠

كما كان فرويد على استعداد لأن يوسع نطاق دراساته ويغزو ميادين المعرفة المتنوعة المتباينة كلما وجدها نافعة لبحثه ٠ فهو مثلا قد قرأ عددا كبيرا من المؤلفين فلاسفة وســـيكلوجيين ، قدماء ومحدثين ، عندما أزمع وضع كتابه « تفسير الأحلام » وفى سبيل تأليف كتابه « النكتة وعلاقتها باللاشعور » شق طريقه خـلال قدر جســـيم من المحاولات الاســـتطيقية (الجمالية) والفلسفية ٠ علاوة على قراءته لكافة المؤلفين المشـــهورين بنكاتهم أو روحهم الفكاهية ، مثـــل رابليه ، وســـرفانتيس ، وموليير وليشتنبرج ، وهاينى ونستروا ، ومارك توين ، وسبيتزر ، ولاداعى للحديث عن المجموعات الهائلة من النكات والحكايات الشعبية وما على شاكلتها ٠ وعندما أراد كتابة «الطوطم والتابو» أطلع على الحقائق الرئيسية والنظريات الأساسية ــ ولا حاجة لكليهما ــ التى جمعها أو ألفها أعلام الأنثروبولوجيا (علم الانسان) وعلماء سلالات الأجناس (الانثرولوجى) ٠ ومن أجل « وراء » مبدأ اللذة « اضـــطر الى أن يدرس دراســـة الفاحص الخبـير

البيولوجيا ، كما درس علم الاجتماع عندما ازمع وضع كتابه « علم النفس الجمعى » ٠

وثمة اهتمامات ، كان يأخذها مأخذ الهوايات دون باعث خارجى أو غرض خاص ولكن كان مالها دائما الذوبان فى الفكر الذى يهيمن فيه التحليل النفسى على كل شىء ٠ وثمة حادثة من حوادث عديدة توضح هذا ٠ لم يكن فرويد يقضى أمسية واحدة بالمسرح ، ولكنه استثنى ليلة خصصها لمشاهدة مسرحية « الملك أوديب » عندما عرض المخرج المسرحى المشهور ماكس راينهارت مأساة سوفوكل فى فيينا ٠ وقابلته فى اليوم التالى وكان ممتلئا حماسا ، ولكن لم يكن التمثيل أو الاخراج سبب تأثره بل حادثة من حوادث المسرحية كان معناها الكامل قد زاغ منه حتى ذلك الحين أثناء قراءاته للمسرحية ثم اتضحت له عن طريق العرض المسرحى ٠ قال : « انت تعرف أن المحتوى المكبوت يطفو دائما على السطح مكشوفا ، غير مقنع تقريبا ، ولكنه ذو بواعث ودوافع خفية بحيث يظل بمنأى عن الفهم ٠ (نحن ندعو هذا «عودة المكبوت») وهانحن نرى من خلال المسرحية أوديب الذى أقضت مضجعه النبوءة القائلةبانه سبب قتل والده وهو يعلم أن والده قد مات ٠ ولكنه ، فى الحقيقة ، ليس والده الفعلى ، بل الملك الذى تبناه ويعتقد أنه والده ٠ وعندما يسمع نبأ الموت الطبيعى لوالده الذائع الصيت ، ينزاح عن عقله النير الثقيل الذى سببته له نبوءة دلف ٠ ويتصرف تصرف المنتصر الصاخب وها انت ذا ترى أن الفرح الناجم عن موت الأب ماثل بوضوح مثوله فى الجريمة نفسها التى يقترفها أوديب غير عامد ، مذعنا لمصيره » ٠

لقد عرف فرويد ماتعنيه سيادة فكرة واحدة مسيطرة على المرء ولكنه اعتبرها شرطا ضروريا لكل عمل عظيم ٠ وقد تحدث عن ذلك فى احدى محاضراته المبكرة قائلا « عندما كنت طبيب امتياز حديث السن بالمستشفى العام ، كان لى صديق لاح محاصرا بفكرة العثور على علاج جديد لأمراض العيون٠ ومهما كانت المشكلة الطبية المطروحة للبحث، كانت أفكارهواسئلته تتجه دائما فى نفس الاتجاه أيمكن أن يستخدم هذا لفائدة العين؟ ــ حتى أصبح مضجرا بعض الشىء بسبب هذه الفكرة المتسلطة عليه ٠ حسنا ، وذات يوم كنت واقفا فى الفناء مع بعض الزملاء وكان بينهم ذلك الصديق، فمر بنا طبيب امتياز آخر مبديا علامات ألم شديد٠ «وهنا اخبرنا فرويد عن موضع الألم ، ولكنى نسيته، » فقلت له : « أظن انى أستطيع مساعدتك» وذهبنا جميعا الى حجرتى حيث استخدمت قطرات قليلة من عقار أزال الألم فى الحال٠ واوضحت لأصدقائى أن هذا العقار قد استخرج من نبات بأمريكا

الجنوبية ، يدعى الكوكايين ، بدا انه ذو صفات تزيل الألم ، وكنت اعد عنه بحثا • ولم يقل شيئا ذلك الرجل الدائم الانشغال بالعين ، وكان يدعى كوللر ، ولكنى علمت بعد أشهر قلائل انه أحدث ثورة فى جراحة العين ، نتيجة استخدام الكوكايين الذى ييسر العمليات التى ظلت حتى ذلك الحين مستحيلة • **وهذا هو السبيل الوحيدة لانجاز اكتشافات ذات قيمة الا وهو : تركيز كافة افكار المرء على موضوع يكون مدار كل اهتمام •**

ومثل هذا التفانى المطلق فى خدمة هدف واحد متفرد فى الحياة ليس بالأمر النادر ولا بالقيم الثمين فى حد ذاته • اذ انه يمكن أن يتنوع ابتداء من جنون تجميع التحف الى اسمى الأهداف ، ويمكن أن تجعل صاحبها جدبا ممحلا أو تحيله الى مصدر سيل دائم من الالهام ، فالأمر يتوقف على ما اذا كانت تستخدم وسيلة لتحرير الذات أو اداة للتغرير بها • فكثير من العقول قد صغرت حتى صارت كرأس الدبوس نتيجة لقصر الاهتمام على موضوع معين ، ولكنه بالنسبة للقلة المصطفاة أستخدم كوسيلة للامتداد على الأرض وصوب السماء • وكان بالنسبة لفرويد مصدر عطاء لكون جديد فوهب نفســـــــه كلها فى مقابل ذلك ما كان يمكن أن يقوله • فلم يقله ، بل عاشه •

انت القبر الذى فيه يعيش الحب مدفونا

تدل عليه انصاب احبائى الراحلين

الذين أسملوا اليك كل ما ظفروا به منى

هوذا الآن كل ما يخص كثيرين غيرك

قد اصبح ملكك انت وحدك

قد يبدو هذا المتعجل نوعا باردا من الهوى ، لأنه لم ينجسم ابدا فى كلمات ضخمة ، وأعمال تأكيدية او فى انفجارات انفعالية ، لكنه اندلع فى لهيب ثابت يذوب فى لفحه كل شىء وفرض مثل أية عقيدة اخرى ، على حياة المؤمن قيودا ونظما قاسية ، فتشكل بحسب أمره وسلطانه كل شىء فى حياة فرويد بابتداء من التفاصيل البسيطة لروتين الحياة اليومية حتى اللحظات الحاسمة التى تتخذ فيها اخطر القرارات •

ولم يلتزم فرويد وحده بهذه القيود راضيا ، بل التزمها أولئك المحيطون به كذلك • وكان اندماج أصـــــدقائه فى طرقه ومنهج حياته نتيجة انتخاب طبيعى ، فقد أسقط من الحسبان قدامى الأصدقاء الذين ينتمون الى فترة

ما قبل التحليل النفسى ، أعنى قلت فرص لقائهم دون أن يستبعدوا تماما وشغل مكانهم أولئك الذين يسهمون فى عمله ، أعنى حلقة الاتباع المقربين

ومن المثير للملاحظة ان عائلته ـ أعنى زوجته وأخت زوجته والاطفال ساروا على نفس الدرب ، دون أدنى تذمر • لقد أتى على فرويد حين من الدهر ـ وكان قد انقشع عندما توثق اتصالى بالعائلة ـ ضحى فى اثنائه ـ عمله المزدهر ليكرس نفسه كلية لعلمه الجديد • وتضاءل بسرعة دخله عن طريق الوظيفة ، وهو الوسيلة الوحيدة لحفظ نفقات المعيشة ، فى الوقت الذى تزايدت فيه عائلته (ستة أطفال ثلاثة أولاد وثلاث بنات ولدوا فى أقل من عشر سنوات) وكان الحاضر مقبضا والتطلع الى المستقبل مثبطا • وكان موقف الأصدقاء والمعارف عامة موقف الاشفاق على المرأة المسكينة ، التى كان زوجها فيما مضى عالما ماهرا ، فاستحال مأفونا منفرا ولكنها ما اهتزت فى اعجابها بزوجها ـ وأكاد أقول عبادتها له • (ولست أدرى مدى ادراكها لقيمة عمله، كان ذكاؤها وتربيتها كافيين بالتأكيد لذلك) ، ولكنى واثق انه كان فى عينيها عظيما قبل أن يخط كلمة من كتبه وبعد ذلك أيضا • وظل كذلك بالنسبة لها حتى النهاية (فى وقت كتابة هذه السطور عام ١٩٤٤ تعيش حرم البروفسور متقدمة فى العمر فى لندن وموضع حفاوة وتكريم من كافة الذين يعرفونها مثلما كانت فى فيينا) • وقد شاطرها أطفالها ولاءها • وكان أصدقاء العائلة يسخرون عادة من الطريقة التبجيلية فى حديثهم عن كل شىء يتعلق بوالدهم • فقد قيل مثلا انه اذا تغيب أحد الأطفال بعض الوقت ثم قابل طفلا آخر منهم فأول كلمة يقولها الحاضر للغائب : الوالد يشرب الشاى الآن من الكوب الأخضر بدلا من الأزرق وأمثال هذه النكات والنوادر تحوى دائما بذرة حية ، بل أكثر من بذرة من بذور الحقيقة • فقد دارت حياة العائلة حول الوالد مثلما دارت حياة الوالد حول عمله ، ولم تنطق الشفاه بهذا قط ، فليس ثمة حاجة للكلمات والأقوال ، مادامت الأفعال تصدر عن سماح وتلقائية •

كانت الأختان ، مارثا وميثا ، أو حرم «البروفسور» و «تانت مينا» مختلفتين تماما فكانت « حرم البروفسور » فى مظهرها الخارجى ضئيلة الحجم نحيلة العود كثيرة الحركة مثال ربة البيت العنية دائما بوضع كل شىء فى موضعه أو تنظيفه وتفريشه وكانت تانت مينا بائنة الطول على غير نحول ، أميل الى الامتلاء والاعتماد على الذات مقلة فى كلامها على ثقة وذكاء ، وكانت كلتا السيدتين تحمل سيماء المربيات ـ لعل مرجعه الى كلامهما وسلوكهما على طريقة أهل هامبورج ، لأن خبيرة

المربيات فى فيينا كن يأتين من هامبورج (أعتقد أن كليتهما كانت بالفعل مربية ، ولكنى متأكد من ذلك فقط بالنسبة لتانت مينا) • وكانت الأحباث الذهنية والمناصب المدرسية فى عائلتهما لأجيال عديدة • فقد كان أحد أسلافهما — أعتقد أنه جدهما — هو الكاهن رابى برنيز من هامبورج الذى ذكر مرارا فى خطابات هينريش هاينى كرجل على مستوى عال من الذكاء وثمة برنيز آخر ، وهو العم الأكبر على ما يبدو وكان على علاقة أوثق بالشاعر الكبير • فقد كان يشرف على تحرير جريدة راديكالية تصدر باللغة الألمانية فى باريس فى الأربعينيات ، تدعى الطليعة نشر بها هاينى بعض أشعاره • وقد أرسل الشاعر « التحيات الى برنيز » فى خطاب الى كارل ماركس الذى كان يتعاون أيضا مع الطليعة • وكان عمهما البروفسور يعقوب برنيز من جامعة هيدلبرج دارسا مشهورا ونالت مؤلفاته تقديرا كبيرا واستخدمها الباحثون الكلاسيكيون فى فقه اللغة (الفيلولوجيا) وقد استمر هذا التراث فى شخص الخالة مينا التى كانت قارئة بشكل خارق للعادة كما كانت ذات موهبة فى التمييز النقدى (الحاد فى بعض الأحيان) وسرعان ما وجدت انها وأنا كنا معجبين جدا بنفس المؤلف تيودور فونتين وأصبحنا أصدقاء نتبادل الكتب وخاصة مجموعات المكاتبات والاقتباسات •

أما حرم البروفسور كما ذكرت فقد كانت نموذجا لربة البيت وكانت دقيقة جدا فى ترتيبها ونظامها • ولكن من ناحية واحدة فقط لم تكن تتفق مع هذا الوصف • فلم تكن تحب أن تكون موضع سخط خادميها كما كان الأمر عادة لمثل هذا النوع من ربات البيوت • ولهذا كانت شعبية معهم • ومعظمهم تقريبا ظلوا يعملون بانتظام فى البيت لمدة عشر سنوات وعادوا اليه — وأحدهم عاد من أمريكا — فى المناسبات الهامة مثل زواج كبرى البنات وترجع هذه الغرابة أو المفارقة فى طبعها الى طيبتها الكبيرة واحساسها الانسانى العميق مما جعلها لا تفضل حالة الأثاث على حياة الانسان • وأبدت عطفا كبيرا فى البحث عن هدايا عيد الميلاد المناسبة لكل من كانوا مرتبطين بخدمة الأسرة لا من العاملين فقط ولكن من أقاربهم أيضا « ونشير أيضا الى ابنة شقيق اللبان » • وهذه العبارة صدرت طبعا من الخالة مينا •

واشتهرت السيدتان شهرة كبيرة لجمال ودقة أشغالهما بالأبرة • •• وأثناء الحرب العالمية الأولى أعطيت بعض أعمالهما الرائعة للسيدة صاحبة محل التبغ الذى اعتاد فرويد أن يشترى منه سيجاره (فى عملية تهريب الدخان) من أجل أرضائها حتى تقدم لفرويد أكثر من النصاب المقرر •

وتلك واحدة من الخصائص العديدة التى تصور كيف كان التفكير والعمل بالنسبة الى كل شىء يتم بطريقة أو بأخرى فى ارتباط وثيق بالمركز

الرئيسى المشترك • وسيكون من الخطأ على أى حال أن نرى فى شخصه ضربا من الوثن Moloch يتحتم أن تسفح عند اعتابه قرابين السعادة والراحة يوميا • **وكان فرويد رأس عائلته ولاشك ، ولكنه كان ايضا جزءا منها غير منعزل عن حياتها واحداثها السارة وغير السارة ، وان شغل عمله مكان الصدارة منها ومنه** • وكان جو المنزل وئاما وسلاما • ولم تتكشف لى قط العلاقات الداخلية الخاصة بين اولئك الذين يعيشـــون فى رحابه • فلم يكونوا عائلة من ذلك النوع ولم تحدنى رغبة لاستطلاع اسرارهم •

كان فرويد « الأب بالنسبة للأطفال » وسيجى « اختصار سيجموند » بالنسبة للسيدتين • وكان « البروفسور » فى دائرتنا من الأصدقاء والاتباع ويبدو أن هذا التقليد قد انتشر بعدا وسعة فقد وجدت فى أوروبا وفى هذا البلد أن فرويد يقع من نفوس الناس موقع « البروفسور » أكثر من كثير من العلماء الآخرين الذين يستحقون نفس اللقب ، فالبروفسور اينشتاين مثلا • وقد وقع هذا من نفسى موقع التفكه ، لأن فرويد لم يكن بروفسور « أستاذا قط وما كان بمقدوره أن يكونه • وفهم هذه الحقيقة يحتاج منا جولة قصيرة فى غمار الألقاب الأكاديمية فى فيينا والجامعات الألمانية عامة •

اعترافا بقيمة ابحاثه فى الأمراض العصبية المنشورة بعنوان : الشلل النصفى الدماغى فى أعمار الأطفال •
Die cerebralen Hemiplegien des Kindesalters

أصبح فرويد محاضرا Privat-dozant بالطريقة المعتادة : ترشيح بواسطة الكلية وتعيين بواسطة وزير المعارف العامة • وهذا يعنى أن له حق المحاضـــرة بالجـامعة ، لكنه ليس مـــكلفا بذلك • أما لقب (المكلف بالتدريس (فكان امتياز اعضاء الكلية ، من الأساتذة المساعدين والعاديين (يماثل ما عندنا من « الأساتذة المساعدين » و « الأساتذة ») وكان الأمل فى الترقى الى هذه الحلقة المقدســـة دون منالـه ــ وهو رجـــل خارج الدائرة وبدون « صلات » ، ويهودى ــ كما أن علمه الغريب المستهجن قضى على كل أمل فى ذلك •

وقد اخبرنى فرويد بنفسه بالحادثة التالية : قام وزير المعارف (اظن أنه كان يدعى هارتل) بزيارة لمنزل سيدة فينوية ثرية وقادته ربة البيت خلال بهو الصور وتصادف انها كانت من بين المرضى الذين يترددون على فرويد، وأعجب فخامته بصورة للرسام السويسرى ارتولد بوكلين، الذى كان فى قمة شهرته حينذاك ثم أخذ ينحدر منها بسرعة ورغب الوزير فى صـــورة تدعى

أطلال القلعة لوضعها بأحد المعارض العامة التى كانت تقع تحت اشرافه (اظن أنه كان يدعى المعرض الحديث وكان حينذاك فى دور التكوين ، وكان وجود معرض حديث بدون صورة لبوكلين أمرا لا يتصور فى ذلك الحين) والح فى طلبها • فقالت السيدة بشىء من المزاح أنه يستطيع أخذها بشرط أن يخلع على المدرس المساعد Privat-dozent فرويد لقب أستاذ غير عادى » وتمت الصفقة برضى الطرفين •

ولكن اللقب الجديد لم يحدث تغييرا فى وضع فرويد الأكاديمى ، فلم تكن له حقوق عضو الكلية ولا واجباته • وبعد مضى فترة من الوقت ، أى بعد الحرب ، عندما طبقت شهرة فرويد الآفاق ، منح بلا حياء لقب « استاذ عادى » ولكن دون اعطائه مقعدا فى الكلية وما كان ليقبله حينذاك ، نظرا لبلوغه السبعين وانشغاله باشياء اكثر اهمية بالنسبة له • وهكذا لم يكن « الأستاذ » الذى علم الدنيا جديدا استاذا فى واقع الأمر ، اعنى معلما اكاديميا منتظما •

أما فرويد نفسه فلم يكن الأمر ليقع منه موقع الاكتراث • فما داخله الوهم لحظة فى عدالة وسلامة ادراك الثاقبين عندما يتنسمون مناكب السلطة وقد اتضح لى جانب من وجهة نظره خلال احدى نزهاتنا واحاديثنا الليلية • كنا منفردين ، فقد كان رانك متغيبا لسبب لا أذكره الآن • فعبرت عن شكواى من أحد أعضائنا الذى لم يكن محللا، بل مشتغلا بالفولكلور • وكانت صلته بالتحليل ترجع الى اهتمامه الزائد بالأمور الجنسية ، وكان يجمع المواد وينشرها فى شكلها الخام دون أن يستخرج منها فائدتها العلمية » أو هذا على الأقل ما بدا لى حينذاك وان لزمنى الاعتراف بأنه قد أدى بعض العمل الجانبى الذى لا يخلو من قيمة حول الموقف الشائع ازاء الجنس والأمور المتعلقة به كما تبدو فى الاساطير ، والنكات ، والكتابات على الجدران •• الخ) •• وكان فى هذا المساء قد قام ببعض المساهمات القيمة فى مناقشاتنا ولكن ينقصها التهذيب ، فقلت بشىء من الامتعاض أنه لا يتفق بحث المشاكل الجنسية مع التعلق بالأمور الغريبة الشاذة • واشرت الى أن على من يريد المساهمة فى عملنا أن ينأى بنفسه عن ذلك وعن كل ما يشين كانهه أحد الفرسان المدافعين عن العفة • فأجاب فرويد برقة غير عادية فى صوته : «انك محق فيما تقوله عن ن•ن• فهناك قدر كبير من الهوس الجنسى فيما يفعله • ولكنك ترى ، أن كثيرين من الأساتذة والمدرسين المبجلين يفكرون ويتصرفون بكل الطرق الحقيرة ولا يؤاخذون لأنهم يتسترون خلف واجهة مزوقة وتظاهرهم السلطة

الرسمية • فلماذا نتعنت مع هذا الرجل الذى لا يفوقهم سوءا لمجرد أنه يعرض نفسه للنقد باخلاصه ؟ « فلم أعد أشعر من وقتها بكبرياء الصليبى الشرير الذى يسعى للوقيعة » •

لقد رحب فرويد عموما باستبعاده من الوظائف الاكاديمية مما جنبه مشاكل لا ضرورة لها ووفر له وقتا يحرص عليه • والقضية التى كرس لها حياته متفانيا لم تكن ذات صلة بنوع العمل الذى يتم فى اجتماعات الكلية ، فلقد استبعد من حياته كل مالا يلتقى مع هدف حياته على اتفاق • فما خلقت لأجله الزيارات ، والدعوات الاجتماعية ، ــ والحفلات • ولكنه ما افتقـــر وقتا لاستقبال الأصدقاء ساعة يلتمسون معونته ومشورته ، ما يدا أبدا على انشغال أو عدم احتفال فى اصغائه اليهم ولو فى أشد الأيام ازدحاما بالأعمال ومانسى قط أن يعودهم ان عدى عليهم المرض ، ولكن نادرا ماتعدى ما يبذله من الوقت على الوظائف الاجتماعية الربع من الساعة • وكان قضاؤه أمسية بالمسرح أمرا نادرا • لم يحدث منه هذا الا عندما كان يستلفت انتباهه عرض مسرحية ذات أهمية خاصة ، مثل أوديب أو هاملت • وكان يزور متحف الفن والاعمال المعمارية ، وما تعلق منها بمصر القديمة خاصة ، فى أيام الآحاد ما وسعته الزيارة ، وما كانت أمثال هذه الزيارات تفوته قط اذا ما عرض عمل أثرى ذو أهمية خاصة ، مثل اللوحات الهلينية فى العصـــر السكندرى • وما شذ عن هذه القاعدة الحازمة من التركيز سوى حفلة لعب الورق فى أمسيات السبت ، عندما كان يلعب مع بعض قدامى الأصدقاء الذين لا يقلون عنه خبرة فى لعبة الورق الفينوية التقليدية التى تدعى «الطارقة» والتى أضافوا اليها بعض الزيادات الخاصة والتعقيدات •

وكان روتينه اليومى كالآتى : العمل مع المرضى من التاسعة صباحا حتى الواحدة بعد الظهر • ثم تنـــاول وجبة الظهيرة مع العائلة • وتعقبها ساعة من السير على القدم تكرس عادة لزيارة بائع الكتب والحلاق ، وبائع السيجار ، أو بائع العاديات بحثا عن تحفة جديدة يضيفها الى مجموعته • وكانت الساعة التالية تخصص للاستشارات الطبية التى كان يجب أن تحدد مقدما • ثم العمل مع المرضى حتى السابعة أو السابعة والنصف وكان نظام أمسية فرويد دقيقا كذلك ولكن كان ثمة تنويع قليل فى ضروب نشاطه • كان معتادا عند عودته الى ثكنات العائلة أن يعبر عن ارتياحه لانقضاء الشطر الأول من اليوم بأحداث صوت مرح يجمع بين الزمجرة والهمهمة يستدف به ابنته الصغرى عادة وبعد أن يتناول وجبة المساء ينسحب الى مكتبه ، عدا أيام الثلاثاء التى كانت تخصص لاجتماعات جمعية التحليل النفسى وأيام

السبت التى كان يكرس لها شطرا من عصرها لاعداد محاضرته وشطرا من مسائها لالقائها ، ثم ينصرف الى لعب الورق • وحوالى مرة فى الأسبوع كان رانك بمفرده أو هو وأنا نزوره لتناول العشاء ثم نبقى معه بعد ذلك ساعات عديدة ، نعد الطبعات التالية من الدوريات ونناقش المقالات التى حازت القبول • ولا أبالغ اذا قلت ان فرويد قد قرأ وأقر كل مقال أعد للنشر فى كل دورية من الدوريات(*) التى كان يرأس تحريرها مهما كان طول بعضها أو قتوره •

وكنا بعد أن ينتهى العمل الفعلى نجلس ساعات فى مكتبه الذى يكون قد أفعم بدخان السيجار • وفى ظل التحديق الصامت للأوثان والآلهة التى جسمت فى صور الحيوان نســـــتمع الى بعض المقالات الجديدة من فرويد ونناقش انتاجنا ، أو نتحدث عن الأشياء التى تهمنا فحسب • وكان فرويد فى هذه المناسبات الليلية غالبا ما يبدع فى جملة أو اثنتين ، صورة كاركاتيرية لشخصية من الشخصيات • فذات مرة ، مثلا قال بعد زيارته لصديق قديم كان فيما مضى فى مجال السياسة شخصية مرموقة « أسد عجوز ، يكاد يصبح غطاء سرير » •

وفى الأمسيات الأخرى ، كان فرويد يعمل بمفرده ، دارسا كاتبا حتى ساعة متأخرة بعد منتصف الليل • وعندما عبرت لمدام فرويد عن افتقاره الى النوم، أجابتنى انه يروح فى النوم حالا ويستيقظ فى نفس الموعد بلا ابطاء كل صباح • (كانت هذه القدرة ، على اطفاء طاقته العقلية فى أقصر وقت ، واشعالها فى كامل قوتها حسب الارادة ، صفة ملحوظة فى نابليون) •

وليس من المستغرب أن يكون الانتظار عداء أصيلا لرجل يحرص على وقته كل هذا الحرص • فذات مرة قال لى مازحا : « ما عرفت شيئا أكثر سرفا من كل ذلك الفحم اللازم لاذكاء نار الجحيم • كان الأفضـــل اجراء المحـــاكمة المعتادة مباشرة والحكم على المذنب بالشـــىء مئات الالوف من السنين ، ثم يساق الى الحجرة المجاورة ويترك لينتظر فحسب اذ سرعان ما يصبح الانتظار عقابا أسوأ من الحرق بالفعل » •

ولكن التناقض سمة الطبيعة الانسانية • فقد كانت المناســبة الوحيدة التى يضيع فيها فرويد وقته عبثا هى اذا ما اضطر الى حجـــز مكانه من

(*) الكتاب السنوى ومجلة العصر وايماجو وكتابات حول علم الروح التطبيقى .

القطار • فكان يذهب قبل الموعد بوقت طويل ويضطر الى الانتظار بالمحطة ساعة او اكثر •

كان فرويد يدخن طول النهار بلا انقطاع ، بمجرد أن ينتهى من افطاره حتى يذهب لفراشه ، فقد كان مدخنا مدمنا بكل معنى الكلمة • وكان مقننه اليومى عشرون سيجارا من نوع يدعى ترباكوس وهو خير ما تحتكره الحكومة النمساوية من منتجات التبغ • كان مغرما بالتدخين حتى انه كان يشعر بالحرج ان كان المحيطون به من غير المدخنين • ونتيجة لذلك اصطنع اغلب الذين كونوا الدائرة الداخلية مغرمين بتدخين السيجار على درجات متفاوتة وبعد أن ألم به المرض وما استتبعه من عمليات متنوعة اضطر الى أن يخفض مقدار ما يدخنه بدرجة ملحوظة ، ولكنه لم يقلع عنه تماما حتى فى الأسابيع السابقة لوفاته وقد استمر يمنحنى السيجار المعتاد كلما رآنى حسب عادته دائما • وقد رفضته ذات مرة قائلا اننى انهيت لتوى سيجارا • فضحك من قولى هذا — وكانت هذه آخر مرة سمعته يضحك فيها •

ولم يكن فرويد ليأبه للعطلات العديدة التى تقررها نتيجة قيدنا الكاثوليكية • فهو ماكان يحب أن يقطع ايقاع عمله بفترات قصيرة من الراحة ، ولكنه كان كل عام يأخذ أجازة صيفية طويلة تستمر ثلاثة أشهر كاملة ، « تبتدىء » من نهاية يونيه الى نهاية سبتمبر وكان يقضى الشطر الأول منها مع عائلته فى بعض المصايف الالبية ، أو ألت سزية ، أو بمصيف من جزر دلماشيا ، وكانت الأسابيع الأخيرة تخصص للسفر والتجوال فى ربوع ايطاليا ، بصحبة أخيه أو فرنشيزى غالبا • وقد ظل سنين عديدة بمنأى عن زيارة روما ، وهى هدف رغبته القوية ، لاعتقاده انه فى سبتمبر يكون المرء هناك اكثر ما يكون تعرضا لمرض الملاريا • وبعد أن اكتشف أن هذا الاعتقاد ، مثل كثير غيره ، قد اقيم على مجرد التوهم (وهذا ما قاله فى تفسير الأحلام) لم يكل ابدا عن استكشاف المكان وأن يعيد فى مخيلته بناء مدينة القياصرة وروما فى عصر النهضة • وفى السنوات الأخيرة من حياته ، اصبحت اثينا منافسة لروما فى زياراته •

وكانت رحلته الى الولايات المتحدة اقل رحلاته نجاحا ، برغم انها بدأت فى ظل اكثر الظروف ملاءمة • وكانت الدعوة الصادرة عن جامعة كلارك ليلقى سلسلة من المحاضرات ويتقبل درجة شرفية بمناسبة عيدها العشرينى أول اعتراف عام بعلمه الجديد ، وأصبحت المحاضرات نصرا مبينا • كما أن فرويد كان ممتنا لما أظهره نحوه البروفسور ستانلى هول ، العميد المجامعة ، من مجاملة ، كما كان يشعر باحترام خالص نحو البروفسور بتمان

فى بوسطن الذى أخذ على عاتقه الدفاع عن التحليل « النفسى اللااخلاقى » بالرغم من «خلفيته» البيوريتانية المتطهرة • وما كان عبور المحيط له مكدرا فقد كان فرويد بصحبة خير أصدقائه ، فرنشيزى ، وجونز ، ويونج • وقد قال فى تاريخه الذاتى القصير (حياتى ١٩٢٥) : « كنت أشعر فى أوروبا كأنى مذنب » وهاأناذا أرى أفاضل الرجال يستقبلوننى كأننى صنو لهم •• وعندما اعتليت مقعد المحاضر فى ورشستر لألقى محاضراتى الخمس عن التحليل النفسى بدا لى الأمر كأنه تحقيق لحلم يقظة خيالى • فلم يعد التحليل النفسى وهما ، بل قطعة ثمينة من الواقع » ولكن كل شىء من هذه الرحلة جانب طريق الصواب وعاد فرويد الى وطنه مثقلا بانطباعات قاتمة عكرت صورته عن امريكا طول الوقت • وبعد سنوات قليلة قال لى : « امريكا أعظم تجربة شهدها العالم ، ولكنى ، أخشى ، أن أقول انها ليست فى طريقها الى أن تكون تجربة ناجحة » •

وما أعرفه عن هذا الأمر يرجع الى ملاحظات عارضة وأوصاف جزئية سمعتها منه فيما تلا ذلك من سنين ، من سوء الحظ انه وقت زيارته للولايات المتحدة ـ ١٩٠٩ ـ كانت سيطرة الحياء والكبت على أشدها وما كان بمقدور أحد غير حفنة من أدق الملاحظين نظرا التنبؤ بما سيطرأ على هذا الموقف من تغيير • كما أن فرويد قد أتعبه وآلمه أن يكون محط الأنظار طول الوقت ، فقد كان هذا ما يخالف طبيعته • وثمة جانب آخر من استجابته أمكننى أن أكونه فيما بعد نتيجة لخبرتى الشخصية • وهو : أن أفضل شىء بالنسبة لمن يزور قطرا من الأقطار هو أن يسمح له بأن يختار بنفسه ما يريد رؤيته ويعطى من حين لآخر لمحة عن كيفية الاستفادة منه • ولكن معظم أصدقائى الامريكيين يستبد بهم الفضول اذا ما وقع فى أيديهم زائر ذو مكانة خاصة(*) • وهكذا يصبح بعض الناس ، وخاصة أولئك الذين يتمتعون بارادة مستقلة ، على كدر وضيق اذا ما دفع بهم من مكان الى آخر ليروا أشياء لا تستثير منهم اهتماما •

وكان العمل مع المرضى يتوقف تماما أثناء العطلة الصيفية الطويلة المدى • فقد اعتاد أن يقول ان مريضا واحدا يربط أفكارك بمشاكل التحليل مثل نصف دستة منهم • وقد تغير كل هذا عندما جعل مرضه السفر مضنيا والبقاء فى مكان ناء عن طبيبه أمرا خطيرا • فكان يترك

(*) تغير كل هذا الآن طبعا نتيجة الهجرة الواسعة النطاق التى جعلت الرجال ذوى الشهرة الأوربية برخص التوت الاسود .

« المترجم »

فيينا كل صيف لفترة غير محددة ويذهب بالى الجبال المجاورة ، مستأجرا منزلا ذا حديقة ليتمكن من البقاء بمعزل عن تطفل الزائرين الفضوليين الذين تزايدت رغبته فى تجنبهم اكثر من ذى قبل. اذ بالاضافة الى كراهيته العامة للظهور امام الناس اضيفت حساسيته بالتشويهات التى سببتها العمليات والأعضاء الصناعية فى فمه . وفيما تقدم من سنين كان يقضى اصيافه باحدى ضواحى فيينا ذات الحدائق ، أولا فى بتسليندروف ثم جرينتسيج .

واصبحت الدائرة التى يتحرك فرويد فى نطاقها تتزايد ضيقا وتحديدا ، ولكن احتفاله باى شىء يتسم بالجمال ظل كما هو : فكان يلاحظ كل ما يجرى فى حديقته بنفس الحماس ويدلى لأصدقائه باشياء عديدة بالغة الطرافة مثلما يخبر عن فن حضارة البلاد الأجنبية وماضيها البعيد ، تلك التى تناولها بالدراسة فى أوقات أوفر شبابا . لقد تأمل دورة حياة الزهرة ، فى نموها وتحللها وبعثها ، بنفس العين التى نظر بها الى الصراع بين ايروس وغريزة الموت فى تاريخ التطور البشرى(*) .

فى هذه السنوات المتقدمة من حياته لم يقطع عمله التحليلى منصرفا عنه ، بل قصره على الحالات العاجلة أو المرضى ذوى الحيثية الخاصة .

ان اشهر العطلة الثلاثة التى واظب عليها فرويد عندما كانت صحته فى ابانها قد هيأت له من وقته فسحة للكتابة . وقد أحسن الاستفادة من

(*) الايروس عند فرويد هو الحب . هو المطلع من اللاوجود الى الوجود . هو غريزة الحياة التى تتجه بالكائن من الحالة اللاعضوية الجامدة الى الحالة العضوية . ولكن هذه الغريزة تصارعها غريزة اخرى هى تاناتوس (اله الموت عند الافريق) أو غريزة الموت وهدفها الاسراع بالكائن العضوى الحى فى أقصر طريق صوب الموت . وكاد الأمر يكون كذلك بالنسبة للكائن الحى لو لم تنازعها غريزة الحياة .

وثمة تجربة للشاعر العربى ميخائيل نعيمة ، يعبر فيها عن ذلك بحدس الفنان :

هلمى ، هلمى نحى القبور
ونمتص منها رحيق الدهور
عسانا اذا ما راينا قبورا
يفتق منها الربيع الزهور
عرفنا بان الفناء بقاء
وان الحياة قبور تدور

« المؤلف »

هذه المناسبات الذهبية ، ولكن من الخطأ الزعم بأن عمله قد انجز نتيجة لما توافر لديه من وقت ، بل على النقيض ، لقد كان قادرا على المضى قدما فى أشد الأعمال صعوبة واستغراقا للفكر رغم الروتين اليومى الدقيق الذى كان يشغل ساعاته وافكاره من الصباح حتى المساء • فبعض الأعمال التى تطلبت أكبر قدر من التركيز اقتضت تجميع مواد جديدة أو تنمية دراسة غير متوقعة، مثل الطوطم والتابو Totem and Tabo قد كتبت خلال الجهد والعناء اللذين يقتضيهما روتين التحليل النفسى العلاجى ولم تتاثر صياغتها الدقيقة فى ظل هذه الظروف التى اقل ما يقال فيها انها لم تكن ملائمة كما أن فرويد لم يقلل بسببها من ضروب نشاطه الأخرى • « فهناك دائما وقت لمتاعب الحب » •

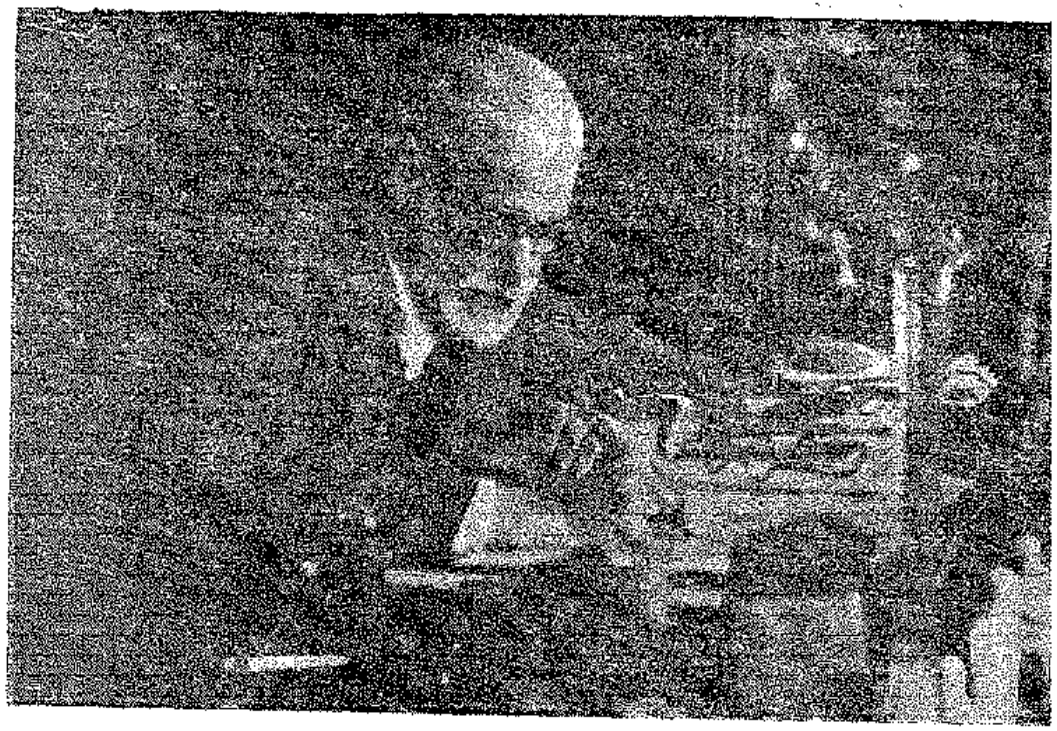

Freud in his Study

فرويد في مكتبه

الفصـــــــل الخامس

بـــروز واضـــح

كيف يتم عمل التفكـــير المبدع ؟ وكيف تدخـل الأفكار الجـــديدة والأصيلة مجال التصور ، وكيف تبعث الى النور آخر الأمـر ، بعد أن يكون قد تم نضجها ؟ ان أولئك الذين يعيشون عن قرب من عقل ذى سيادة أســتاذية يجب أن يكون فى مقدورهم ابلاغ العـالم عن ذلك ، ولكنهم **لا يستطيعون ان يتعلموا منه أكثر مما يعرف هو نفسه** • ولن يكفى هذا للاجابة على مشكلتنا مادام استبطان الشاعر ، والفنان ، والعالم ـ بما فيهـم الســـيكلوجى ـ يضـــلل بالطـرق التى يتحـرك بحســـبها الهامه(*) •

عندما يشيد رجل مثل فرويد اسلوب حياته بطريقة دقيقة التخطيط بقصـد افساح المجال أمام عمله الباحث ، فثمة شـىء يمكن تعلمه عن الصـــحة النفســـية التى وجدها ذات فائدة • وتكون لدينا على الأقل الفرصة للاحظة الشمع الذى طبع عليه خاتم ارادته • وعلى هذا يكون من المناسب هنا البدء بتعداد ضروب النشاط التى كانت قوام عمله اليومى •

(★) ان اللاشعور هو ذلك الجانب من النفس الذى يشترك فيه افراد الانسانية جمعاء ، وهو يتضمن كل ما لا تقره الذات أو الأنا • وقد أصبح اللاشعور كذلك نتيجة حيلة دفاعية يقوم بها الأنا تدعى « الكبت » • ولكن المحتوى المكبوت يتحرق شوقا الى الظهور من أعماق « اللاشعور » الى مستوى « الوعى » أو الشعور ، وهو فى سبيل ذلك يتخذ سبلا كثيرة أهمها : الأحلام وأحلام اليقظة واحلام اليقظة المتبادلة ، والابداع الفنى وفلتات اللسان • ولكنه حين يظهر الى سطح « الوعى » لا نعرف مصـــدره العميق الخبىء والقوة التى دفعت به الى السطح • فيظل المريض يأتى أقوالا أو أفعالا لا يعرف سببها وباعثها • والتحليل النفسى احدى الوسائل الرئيسية واهمها فى سبيل تبصير المريض بحقيقة هذه الاقوال أو الافعال التى تصدر عنه وتبدو له غريبة عليه •
« المترجم »

ان ثماني أو تسع ساعات من التحليل العلاجي أو التدريبي (ليس ثمة خلاف علمي أساسي بين هذين النوعين) تكون في حد ذاتها عملا يوميا مضنيا • ويمكنني أن أشهد بذلك بعد خبرة دامت زهاء خمسة وعشرين عاما • ولست اتحدث عن النشاط الذهني وضرورة الانتباه الدائم اللذين يجب أن يعتادهما العاملون باذهانهم • ولا يستحق أن يذكر على حدة التوظيف الدقيق للذاكرة ، ذلك الذي يدهش المشاهد ، لان النتيجة الطبيعية لموقف المحلل ازاء المادة التي يمارس عليها عمله • وهو يكتسب هذا الموقف بتحليله الخاص لذاته ذلك التحليل ينتج عن التوظيف التلقائي الناعم للاشعوره متى احتاج اليه ، والا ظل معوقا بمقاومته الخاصة ، ولم تغنه ارادته الطيبة او محاولته الدائمة فتيلا(*) ولا ينتج الخطر الحقيقي (الذي لا يستطيع استبعاده خير مران تحليلي) ، عن استخدام اللا شعور الخاص بحرية ، بل عن خطر المبالغة في ارخاء سيطرة الأنا الواعية •

ان فهم عقل شخص آخر ــ فيما عدا العمليات الذهنية التجريدية والرياضية ، أو المنطقية ــ يعني الدخول في بارقة أو سلسلة بوارق من التقمص مع هذا الشخص نفسه • ويعتمد عمق الفهم على كثافة التقمص لا طول مدته • فعلى هذا القانون يقوم الفهم التحليلي • فاللاشعور هو ذلك الجزء من العقل الذي يحوي الانفعالات والخبرات الأكثر شيوعا بين أفراد النوع البشري • فهو على هذا يقوم بأكثر الأدوار أهمية في عملية التقمص هذه واذا افلتت زمامه جمح وعدا بعيدا عن الوضع الصالح لأغراض التحليل • فأي صراع بين الهدف الشعوري واغراء اللاشعور يتجه نحو احداث مقاومة ، مع كل ما ينتج عنها من نتائج معوقة • وهذا يجعل التحليل الذاتي المستمر الى مالا نهاية فرضا ضروريا على كل محلل حتى يضمن ضبط النفس المستمر الذي يحفظ الفاصل ثابتا بين علاقات الشخصين ، رغم اقترابهما الوثيق وتشابكهما العارض في اللاشعور ، والا ما أمكن استخدام التقمص لما جعل له من أغراض أعني وسيلة «

(★) والمحلل النفسي الذي يقوم بهذا العمل مثله في ذلك مثل اي شخص آخر • ومن ثم فان عليه أن يحلل نفسه أولا حتى يتمكن من القيام بتحليل الآخرين • فاذا ما حلل نفسه بواسطة استاذه (وهذا ما يدعى التحليل التدريبي) وتعرف على لا شعوره الذاتي (وهو كما قلنا لا يختلف عن لاشعور غيره) استطاع : أن يفهم مرضاه ، وأن يصل الى ادراك المعاني المختفية في حنايا خواطر مرضاه واحلامهم ، وبدون أن يدرك طيشه » أولا ، فانه سيظل يرحى الآخرين •

« المترجم »

لازمة لفهم واع نزيه • كما تلزم المحافظة على المسافة التى تضمن توظيف الملكات الناقدة • ولذا يمكن انجاز المعالجة والمحـــافظة على التوازن الدقيق للتقمص دون جهاد للذهن الى اقصى درجة • والمحلل الذى يحول نفسه الى سبعة أو ثمانية اشخاص مختلفين فى اليوم الواحد ، مالـــكا زمام نفسه طول الوقت ، يحتاج ولا شك الى الاختلاء بنفسه للاستجمام •

وقد بلغ فهم فرويد الحدسـى للاشـعور اقصـى ما يمكن أن تبلغه البصيرة السيكلوجية • كان قادرا على تتبع أكثر متاهاته تشـــابكا ، تلك التى ما كان يمكن لسـواه أن يرتادها أو يجوس خلالها • وقـد كان هذا الاسترشـاد بحدسه ضربة لازب حتى يمكن البدء فى هذا العمل الخطير العظيم ، اذ أن كل خطوة تقود قدما نحـو المناطق الخطـيرة المظلمة من النفس البشرية وفى المراحل المبكرة عندما لم تكن لديه نظرية ولا خبرة تكنيكية يستند اليها كانت قوى خطيرة من المقاومة تهدد عمله من كل جانب • وبدلا من التشجيع والتأييد لم يتلق من معاصريه غير الاحتجاجات والتثبيط • وكان العمل مع محلليه سـلسلة لا تنتهى من التجارب تفتقر الى ما فى ظروف المعمل من ميزات • وكانت المادة التى تقدمها وسيلة التداعيات الحرة وقد شوهتها الأحداث الخفية والمواصف الانفعالية ادنى شبها ببوتقة ساحرمن أنبوبةاختبار انيقة • وكانت النتائج والنجاحات والاخفاقات تتمايز تدريجيا فحسب ثم تنظم فى سبيل الفائدة العلمية • ولما كان يبغى أن ينتزع من تجاربه وانطباعاته كل قطرة من قطرات المعرفة فانه ما كان بوسعه أن يصرف عنها انتباهه بعد أن تنقضى ساعات العمل التحليلى • فلم يكن لمثله ترف الاختلاء بنفسه • كان عليه أن يسجل مادته ، ويفحصها مدققا ، ويقطرها ناقدا وهى لاتزال فى ذهنه طازجة فقد كان يعرف أنه ما من طريقة غير هذه لحفظها من الضياع • وأن تسـجيل « قطعة حديث » تحليلية أو مشـــهد درامى دون تكلف أى زخرف ، عمل يعسر على خيرة الخبراء • ومنذ بداية عمله كمحلل حتى نهاية حياته تقريبا (أى زهاء خمسين عاما) سجل فرويد بلا انقطاع الحالات التاريخية لكافة المرضى الذين اثارت مشـــاكلهم فيه اهتماما خاصا موضـــحا الجوانب البالغة الأهمية بأكبر قدر من التفصـــيل ، كلمة بكلمة غالبا • ولم يكن يفعل هذا مباشرة ، عقب براح المريض ، فيماعدا مسودة قصيرة من بضعة سـطور • كان يضع الموضـــوع فى صورة ســـرد ملتئم ، مضيفا اليه كل أسبوع بعض التفاصيل ، بدلا من

كتابته ساعة بعد أخرى · وهو ما كان يعنى افلات الخيوط ثم التقاطها باستمرار · وقد طبعت ونشـــرت اربع من هذه الحالات التاريخية على حدة ، ويمكن العثور على اجزاء من غيرها موزعة خلال أوراقه العيادية وغير العيادية · هذا ــ أى التحليل والتسجيل ــ يمثل فى كمه فحسب يوما حافلا بالعمل بالنسبة لشخص مجد ، أى من ثمانى ســـاعات الى عشر يوميا ·

وخطابات فرويد ذات كثرة مثلما هى ذات عمق · وعندما تنشـر ، ســيبلغ عدد خطاباته بضـــع آلاف ، ولو استثنى منهـا تلك الخطابات الشخصية البحته وتلك التى فقدت وضاعت نتيجة الكوارث الخاصة او العامة ، مثلما حدث لاغلب الخطابات التى تلقيتها منه · اقصد الخطابات الى الأصدقاء من التلاميذ والاتباع ، والغرباء ، والنقاد ، والخصوم ، والمؤيدين ، والى المحللين السابقين والمنتظرين ، والى المدرسين الذين أثير اهتمامهم ، والى المؤلفين الذين صـــدم عمله حدسهم السيكلوجى · فهو نادرا ما نسى أن يجيب على خطابات ترد اليه مهما كان اتجاهها بل ولو قصد بها الهجوم والنيل منه ان أثارت تعاطفه أو دلت على ادنى اثر للأصالة · وكان يوجه الشطر الأكبر من خطاباته الى تلاميذه الذين يعيشون فى البلاد الأخرى ، فكان بذلك معينا دائما من العون والنصح بالنسبة لهم ، وفى بعض الأحيان مصـــدر تصويب وارشـــاد فى كافة الأمور التى تتعلق بالتحليل · وبالاضافة الى ذلك ، كان هؤلاء الرجال والنســـاء الذين تتجاوز مشاكل شخامياتهم الحـدود البسيطة والعادية يتطلعون اليه ملتمسين التوجيه والارشـــاد فيما يتعلق بمشاكل حياتهم الخاصة ومتاعبها ، فما خيب لهم أبدا رجاء · وفى خطاباته الى اتباعه كان يناقش المشـــاكل النظرية والتكنيكية ، ويحل المصـــاعب ، وينتقد ويقترح التصويبات ، ويعرض افكاره الجديدة ، ويســـاعد مراســـليه على تطور افكارهم وتوضيحها · وليست بأقل اهمية خطاباته بخصوص الأمور التنظيمية مثل تكوين الجمعيات الجديدة وعضويتها ، والعلاقات الشخصـــية بها ، والبرامج الدراسية ، والمحاضرات واصـــدار دوريات جديدة ، أو التعاون مع الموجود منها ·

كان يحتفظ على مكتبه بقطعة كبيرة من الورق ، ويكتب تحت تاريخ كل يوم الى اليسار الخطابات التى تلقاها ، والى اليمين الخطابات التى رد بها · وكان يكتب كافة خطاباته بخط يده ، وحتى فى أواخـر عمره لم يستخدم ابنته « انا » كسكرتيرة الا فى مناسبات خاصـــة ، بل انه فى

الأسـابيع التي سـبقت وفاته عندما كان محتاجا الى كل قوته ليمسك بالقلم ، كتب بخط يده الخطابات القليلة التي استطاع كتابتها ٠

وعندما تجمع خطاباته وتنشر فان ما تحويه من حمكة وبصيرة وعمق ذهنه وجرأته ، وقوة تعبيره وطرافته سـتدهش حتى أولئك ــ وعددهم يتزايد الآن بثبات ــ الذين تذوقوا وأعجبوا بهذه الصفات فى كتبه ٠ واستطيع التحدث عن هذا واثقا ، فقد تسلمت بنفسى عددا منها ، وسمعته يقرأ غيرها مما تتضمن أشياء ارادنا ــ رانك وانا ــ وأن نعرفها ، كما اطلعت بالمصادفة على بعض خطاباته عن طريق أولئك الذين أرسلت اليهم ٠

وقد عجبت طوال الوقت الذى عشته بجواره من قدرته على انجاز مثل هذا القدر الجسيم من الخطابات ٠ اذ يبدو أن العمل الآلى يستغرق وقتا أطول مما استغرقه فى كتابة رسائله ، دون أن ندرج فى الحسبان التفكير الذى استلزمته وعناء صياغتها وقد سألت عائلته عن الكيفية التى ينجز بها كل هذا فأجابوا بأنهم لا يعرفونه أيضا ٠ فهو يذهب الى مكتبه ٠ وبعد ساعة يحضر لنا عشر خطابات ينبغى تصديرها » ٠ وقد شعرت بالحيرة لعجزى عن ادراك سر هذا الى أن عثرت على فقرة توازى ذلك ، لدى سويتونيوس عن حياة قيصر حيث يستشهد بقول مأثور عن هرتيوس ، صديق قيصر بصدد « التعليقات » : « ان اعجابى يفوق اعجاب الآخرين ، لان هؤلاء يعرفون فقط ما فى كتابته من جمال ، ولكنى أعرف السهولة واليسر اللذين أنجزت بهما » ٠

ان انتاج فرويد العلمى وأبحاثه واكتشافاته تحدد بداية مرحلة فى فهم الانسان للانسان ٠ وهذا ما أثار فيه الرغبة التى لا تفتر فى بذل المحاولة التى لا تكل لجعل هذا الانتاج فى متناول أى انسان على استعداد لاستيعاب هذا النوع الجديد من المعرفة ٠ ومن هنا جاء ذلك الموكب المتصل من الكتب ، والمقالات ، والمحاضرات الذى استمر ستين عاما ونيف ٠ واذا لم ندرج فى الحسبان كتبه المبكرة فى الفسيولوجيا والنيورلوجيا ، نجد أنها استغرقت اثنى عشر مجلدا فى الطبعة الكاملة لأعماله يضاف اليها كتابه عن « موسى والوحدانية » ككتاب ثالث عشر ٠ ولكن الكلام عن الكم هنا لا معنى له ، فأى انسان يستطيع ان يملأ اثنى عشر مجلدا بالكتابة ، كما ان هذا المكان ليس بالملائم لتقييم أعماله ٠ فنها سيكون ازجاء المدح أو اضفاء القدح أمرا لا يتجاوز حدود

السطح • ولذا فانى لا أريد الافاضة فى الحديث عن كتبه التى توجد مفتوحة أمام أعين العالم كله ، بل أعود مرة أخرى الى الشخصية الكامنة خلف هذه الأعمال ، الى الرجل الذى عرفته قلة مثلما عرفته • وسأحاول أن أدلى بما استطعت ملاحظته عن طريقته فى الكتابة •

لقد كتب كل كتبه ومقالاته ، ورسائله كذلك بالخط العادى • وكان خطه اليدوى ذا خصائص مميزة فالحروف كبيرة نسبيا وبالخط القوطى ، ضيقة الفراغات متلاصقة الخطوط حتى لتكاد الكلمات أن تتشابك • وكانت رؤية صفحة من الصفحات المكتوبة بخط يده ، توحى لأول وهلة بمتاهة معقدة يضل فيها النظر • ولكن المرء سرعان ما يتبين بشىء من الفحص الدقيق أن هذه المتاهة واضحة مقروءة بما فيه الكفاية • فالحروف ظاهرة بارزة ، وما من شىء قد ترك سهوا أو اهمالا ، وانما كتابة تكشف عن تمعن وحرص • واكثر الصفات مدعاة للالتفات فى كتاباته صفة لاحظها بن جونسون كذلك فى صديقه ويليام شكسبير (مثلما قارنت فرويد بسقراط ، ونابليون ، وقيصر ، يمكننى كذلك أن اقارنه بشكسبير) : « فهو فى كل ما كتب لم يبتسر سطرا » وقد سألته مرة عن كيفية تمكنه من هذا ، لأنه كان يعالج افكارا عسيرة فى تكوينها وأشد عسرا فى صياغتها • وابديت عجبى من أنى لم أره قط وقد اعجزه التعبير فراح يتلمسه ، فلعله كان يدون أولا الملاحظات ثم يظل يقطرها ويصوبها الى أن تبلغ حد الكمال • فاجابنى بأنه ليس من عادته أن يدون شيئا قبل اكتماله ، فهو قبل أن يضع القلم على الورق يظل يلوك خطة كل مقال أو فصل بطريقة عامة ، ليس فى مضمونه وتكوينه فحسب ، بل فى الصياغة الدقيقة لكل جملة ، ولذا تكون العملية آلية تقريبا عندما يجلس للكتابة نتيجة للاملاء الداخلى للجمل التى تكونت من قبل •

ولا يعنى انتفاء التصوييات التفصيلية انه كان ينظر الى كل ما يكتبه بعين كليلة عن العيوب • فقد كان اذا شعر بعدم الرضى عن طريقة العرض أو تبين أن بناء حججه لا ينهض بالمطلوب منه ، يمزق الموضوع كله ويعيد كتابته من جديد • ويستوى لديه فى ذلك المقال القصير أو الفصل من الكتاب، أو الكتاب بأكمله • فابتسار الأشياء ، سواء فى المجال الذهنى أو الانفعالى ، كان يقع من نفسه موقع العداء • وهذا ما فعله بكتابه « المنع ، والعرض ، والحصن » وهذا ما فعله أيضا بكتابه « تفسير الأحلام » الى حد كبير فقد حال بينه وبين النشر سنين عديد مميدا كتابة بعض فصوله مرارا حتى شعر نحوها بالاكتفاء •

وقد كان نقده لذاته بقسوة سببا فى تغييرات ، وتأخيرات ، وتعويقات فى بعض الأحيان · وكان يرحب بنقد الآخرين ، الذين يعتبرهم قضاة شرفاء عادلين · وعندما كان يقرأ أعماله مخطوطة سواء لأصدقائه الخلصاء أو « لجماعة فيينا » أو فى اجتماعات الاتحاد الدولى للتحليل النفسى ، كانت تعقب قراءته مناقشة مشبوبة الأوار ، فينفذ بحرص الى روح كل معاضة ويحاول أن يقدر وزنها ويعجم قوتها لكن نادرا ما بلغ به الاقتناع بكل ما قيل حدا يشعر معه بضرورة اجراء أى تعديل· فما كانت هذه الحجج عليه بالجديدة · ذلك لانه كان يثيرها كلها اذ هو لايزال فى مرحلة جمع أفكاره وتبويبها ، ويظل يعجم عودها كلها من حين لآخر بحسب أهميتها ·

وما كان يظهره فرويد من الصبر العظيم فى الاصغاء الى الحجج والرد عليها ، مهما ضؤلت قيمتها ، كان يختص به المعارضين الشرفاء فحسب الذين لا يسألون بالمناقشة دون مستوى البحث الموضوعى للحقيقة · أما أولئك الذين يتذرعون بالمظاهر الاستعراضية والكلمات الطنانة الجوفاء بدلا من الحجج والبراهين فلم يكن يبدى ازاءهم تساهلا على الاطلاق · وقد أخبرونى بحادثة وقعت أثناء المراحل الأولى للتحليل النفسى وقتما لم يكن فرويد قد اعتزل النقاش العام تمام الاعتزال · كان الموضوع المطروح للنقاش أمام جماعة من الطلبة هو « الزهد الجنسى » فعرض فرويد وجهة نظر التحليل النفسى ، دون أن يتحيز لأحد الفريقين ، وأجاب على الأسئلة التى طرحت عليه وأوضح الحقائق · ولكن عندما اعتلى خصمه الرئيسى وهو استاذ بقسم الفلسفة ، متن حصانه العالى الجناب ذى الوطاء الأخلاقى (وكان هذا جواد الهواية المفضال وبقرته الحلوب كذلك) تناول فرويد قبعته ومعطفه وغادر الحجرة دون أن ينبس بحرف ·

وعلى الرغم من أن فرويد لم يكن يحتاج الى وقت طويل فى تدوين أعماله فانه استغرق قدرا كبيرا من الوقت فى التحضير لها · فقد قرأ قدرا جسيما من الكتب بالنسبة لأعماله قبل أن يدخل المرحلة الحاسمة فى تكوين أفكاره · أما مدى ما أنفقه من وقت وطاقة فى تأمل مشاكله فى بعض الحالات فيمكن أن يدرك على سبيل الحدس والتخمين وليس على سبيل القياس واليقين ·

وطريقة نمو افكار فرويد لا يمكن لانسان ادراكها الا على سبيل الظن والتخمين · فما كان فى البدء نواة ضئيلة فى علم النفس المرضى قد نما واتسع نتيجة لتركيز لا يكل لعقل ذى اصالة ، حتى استحال بالفعل فى آخر الأمر نظرية اساسية فى علم النفس ، والحضارة البشرية ، وكل تطور عضوى · وبعض الاستنارات الفجائية التى حددت خطوة فى هذا التطور قد وصفها فرويد نفسه ، مثل كيفية اكتشافه لمدلول التسامى — اى العملية التى يستبدل ، عن طريقها ، موضوع بدائى لدافع ما بآخر اسمى مرتبة ، ومتكيف مع المجتمع · وقد حدث هذا الكشف اثناء تطلعه الى صورة كارتونية فى دورية هزلية (مجلة اوراق طائرة) كانت تصور مجرى حياة فتاة خلال مرحلتين متتاليتين · كانت تبدو فى الصورة الأولى وهى ترعى قطيعا من الأوز الصغير بعصاها ، وظهرت فى الصورة الثانية مربية ترشد مجموعة من الفتيات الصغيرات بمسطرتها · وكانت الفتيات فى الصورة الثانية قد انتظمن على نفس النسق الذى انتظمت بمقتضاه صغار الأوز فى الصورة الاولى ·

ويختلف اسلوب فرويد فى كتابته عن طريقته السهلة المبسطة التى ميزت محاضراته · كان الوضوح هدفه فى كليهما ، ولكنه كان فى الكتابة يضع الدقة فى المحل الأول · فهو فى هذا المجال لم يكن سهل الاكتفاء ، فكان يشكل جملة ويضغطها ، ويلويها احيانا ، الى ان تعبر عن فكره بدقة ، فلا تزيد ولا تقل · ولذا كانت جمله ثرية بالظلال الرقيقة للمعنى ، لكن بناءها ، اذ هو واضح ومنطقى ، وليس بالسهل البسيط فى غالب الأحيان ، ولذا يتعسر على القراءة العابرة · ربما لا يوجد غير قلة من الناس اوثق معرفة باعماله منى ، لكنى كلما احتجت الى الاستعلام عن نقطة أو اخرى ، بقصد المحاضرة او الاستفهام عن مشكلة صادفتنى اثناء عملى مع محلل ، اجدنى مضطرا الى قراءة كلماته باقصى انتباه وغالبا ما اتبين شيئا جديدا كنت قد تخطيته اثناء قراءاتى السابقة كلها · وهذا يعنى ان فرويد قد كتب لقراء يريدون الحصول على المعرفة متكلفين جهد الدراسة لالأولئك الذين وردوا للتسلية والاستعلام السريع ، او شغل وقت شاغر ·

وقد قرا فرويد قدرا جسيما من الكتب والمقالات العلمية عن موضوعات كان يشعر نحوها بالاهتمام · وكان منها فى المحل

الأول ، فدراسة الحياة وطرق الفن فى روما واليونان القديمة كانت له مصـــدر افتتان ، ولكن يفوقهما الشرق الأدنى : مثل مصـــر ، وبابل ، وسوريا ، وفينيقيا • فكان يتتبع التقارير عن الحفريات الجديدة وكان كل اكتشاف جديد يثير روحه الجامعة • ولما كان يدرس الأوصـــاف والتفاصيل بشغف وكلف ، فانه كان يقارن مايدرس بمقتنياته المكتنزة • وما كان يفتر فى اظهار بعض النقاط ذات الأهمية الخاصة او فى ايضاح التقنية الرديئة • او الجيدة ، وامكانية التزييف ، الخ • بفهم صــاحب المجموعات الواعى وطريقته • وكان يقع من نفسى موقع الايثار تمثال فرعونى صغير لقرد استقر على مكتبه ، اذ كان يمثل الوضع المميز لهذا الحيوان المبجل فى خطوط قليلة تدل على الأســتاذية وذا تعبير قد يدل على أعمق تفكير أو اتم جمود ولا شيء وسط بينهما •

وكان لفرويد عادة تناول قطعة أو أخرى من مجموعته من مكانها ، وفحصها بالنظر واللمس ، اثناء حديثه • ولكنه لم يكن يفعل هذا ابدا عندما كان يستمع الى الآخرين ، فحينئذ كان يجلس سـاكنا ، وعيناه تنظران الى الداخل ، ولا يحرك غير خاتمه فحسب من حين لآخر • وما كان تعبير من تعبيرات وجهـة أو هـزة فى وضعه تبين أقل ابانة عن ارتياحه أو عدمه بما سمع • ولكن تعليقاته الأخيرة لم تكن تترك شــكا فى مدى انتباهه أثناء استماعه •

وفى سنوات شهرته المتزايدة تزايدت مجموعته من التحف بسرعة كذلك فأضيف اليها الكثير من القطع الهامة التى احضرت من جميـع انحاء العالم اهداء أو اقتناء • وقد آتاه تمثال مصــرى صغير من مقبرة توت عنخ آمون مباشرة • كما أخذ الشــرق الأقصى يحتل مكانه الآن بجانب الشرق الأدنى • فقد كان فرويد دائم الكلف بالفن الصينى وقد حصل على بعض القطع التى تجلى فيها جمال المـادة عن طريق كمال التقنية الفنية ، وقد حاز جـائزة الجمـال تمثـال لحكيم صـينى هرم من المرمر الأخضر الغامض • فأصبح نتيجة لذلك نوعا من الطوطم بالنسبة لنا جميعا يلزم وجوده فى كل مناسبة ذات أهمية خاصة •

ولم أستطع ان ادرك الانطباع الكامل للقدر الجســيم الذى بلغته المجموعة وغرابة موضوعاتها الا عندما شاهدتها فى صيف عام ١٩٣٩ فى لندن • اذ هناك عرضت فى حجرة استقبال فسيحة ، تغمرها أشــعة

الشمس التى تنفذ اليها من الحديقة خلال أبواب ونوافذ مفتوحة بعد أن كانت مكدسة بحجرة خلفية ضيقة معتمة ٠

وفى كل اهتمامات فرويد التاريخية ، حتى أقل تفاصيل فى مجموعة تحفه ، كان « الخيط الأحمر » للتحليل النفسى موجـــودا ٠ فهو فى كل مجال من مجالات الحضارات المنقرضة التى قامت عليها حضارتنا ، قد درس طرق الكبت الحضـــارى المتنوعة ونتائجها ٠

ولم يكن الأمر يختلف اذا ما تحدث مع خلصائه ، فما اهملت أبدا وجهة النظر التحليلية ٠ فهو فى كل حادثة من أحـــداث الحياة طرحت للمناقشة ، اكتشف وأبان تأثير شكل معين من الرغبة الخيالية الطفلية ، والآثار الناجمة عن كبتهـــا وتعديلها ، وتشـــويهها ، والتســـامى بها أو التعويض الزائد عنها ، والطرق التى يتنكر بحســـبها اللاشـــعور خلف الأقنعة الفاجعة والهازلة ٠ ولم تصـــبح ملاحظاته أبدا مظاهر تجريدية لنظرية ، فقد احتفظت الشخصيات والحوادث التى تناولها بالدراســـة بخاصية الحياة المرنة أثنـــاء تحليله لها مثلما احتفظ مكبث وموســـى لميكائيل انجلو بخاصية الفن المرنة عندما أخضعها لأشد الطرق نفاذا من تفسيره السيكلوجى ٠

ان النظارات التحليلية التى نظر فرويد من خلالها الى العـــالم قد كشفت عن جوانب عديدة ظلت لأعين الآخرين فوضى أو خافية ، ولكن هذه النظارات لم تشـــوه منها شيئا ٠ اذ ان وعيه الدائم بتأثير اللاشعور على كافة الأمور الانســـــانية لم يتجه الى تبسيط تعقيدات الحياة ٠ فلم يغفل من طابع العصر ، والوسط الاجتماعى وتأثير العائلة ، وأدرج فى حسبانه تدخل الحوادث العرضية مع « القدر » ، ولكنه لم ير أيا من هذه العوامل وحدات منعزلة عن بعضها ٠ فهى الصخور التى يندفع خلالها نهر الحياة من ينابيعه المجهولة ، مقتحما مجراه ٠ ومثل هذا الموقف قد ينعته بعض النقاد بأنه أميل الى الفن منه الى العالم ، ولكن العلم ليس بالضرورة زائفا أو غير فنى ٠

وســـلطان اللاشـــعور الطاغى وقســـوة الظروف الخارجية والطفولة وأحداث الحياة اليومية ، والفانتازى والمصـــير تبدو أجزاء من نموذج معقد حيكت فيه كل الخيوط بطريقة متلاحمة متشابكة ٠ « فى كل شىء

كمنت وخفيت كل الأشياء » كما يقول أنجلوس سيلسيوس الشاعر الصوفى الذى عاش فى القرن السابع عشر ٠

وكان اهتمام فرويد بالكتب جزءا من اهتمامه بالذهن البشرى الحى : فشملت قراءاته ما هو أكثر من الكتب التكنيكية أو العلمية ٠ فقد عرف اغلب ما يدعى عادة « روائع الأدب العالمى » وقرأ لكثيرين من مشاهير الكتاب فى عصره ٠ وقد افادته معرفته الواسعة باللغات ــ ولم يكن هذا بالأمر المستغرب فى فيينا فى زمنه حيث كان الذين على مستوى راق من التعليم لايدرسون اللغات فحسب كما هو المتبع فى كل مكان بل يدرسون كيفية الاستفادة منها ٠ فبالاضافة الى لغته الأصلية كان متمكنا تمام التمكن من الانجليزية والفرنسية ويقرأ الايطالية والأسبانية بطلاقة ٠ ولكنه لم يستفد كثيرا من اللاتينية والاغريقية برغم أنه كان متفوقا فى كليهما أثناء الدراسة ومن بين المؤلفين المحدثين الأثيرين لديه ــ ولم يعودوا محدثين بعد ، بل أصبحوا كلاسيكيين ــ كان اناتول فرانس مدار نقاشه معى غالبا ٠ وقد حثنى على قراءة كتابه ثورة الملائكة ٠ ولفت انتباهى خاصة الى الفصول التى تصف تقدم الحضارة نتيجة الصراع بين الملائكة والشيطان الثائر ويهواه ــ يلدعبوث ٠ وكان متأثرا بما ورد فى الخاتمة حيث يرفض الشيطان أن يقبل الزعامة التى منحت له ويرتضى نوعا من النصر لأنه يدرك أنه بعد ازالة الطاغية القديم بالقوة واحتلال مكانه ، سيرث حتما قسوته ويؤول اليه ضيق افقه ٠ وقد ألقى فرويد محاضرة عن هذا الموضوع فى Bnai Birth (أطفال العهد) وهى جمعية من مثقفى اليهود وكانت احدى الحالات القليلة التى تحدث فيها الى جمهور يتألف من المحللين ٠

وكان جوته الموضوع الذى لا ينتهى ، ولا ينفد بالنسبة لكل الذين تربوا ونشأوا فى جو الثقافة الألمانية ابان القرن التاسع عشر ٠ وعلى هذا لم تلعب حياته وأعماله دورا ضئيلا فى أحاديثنا ٠ وثمة قول من أقوال فرويد أذكره جيدا ٠ كنا واقفين أمام طبعة من صوف ودوروثيا من أعمال جوته التى لكونها أكثر الطبعات الكاملة دقة كانت تشغل ثلاثة أرفف من مكتبته ٠ فقال فرويد وهو يشير اليها ، « كل هذا قد استخدمه كوسائل لاخفاء الذات » ٠ فالواضح أنه لم يقبل تحديد جوته لأعماله وتعريفه لها بقوله انها « أجزاء من اعتراف عظيم » ٠

وعندما قادنى اعجابى بدوستويفسكى الى فرويد ، لم يخطر ببالى اننى كنت مقودا بخيط خفى ٠ فقد بين لى التحليل النفسى فيما بعد اننى

كنت مقودا بسحر الكاتب الروسي الفذ ، ذلك السحر الذى اعتاد أن يبعث به الأرواح المعذبة الملعونة المكبوتة من أعماق الهاوية وكانت معرفته الكاملة بالقوى اللاشعورية التي تسود شخصياته وتصويره الدقيق لهـا الطريق الذى اختارته عبقريته المعذبة لدفع لا شعوره من الظلام الى النور • كان دوستويفسكى يستحق أن يدعى الرائد لفرويد لو لم يتحرك طريق الفن والعلم على انفصال • وقد عرف فرويد كل هذا ووعى عبقرية دوستويفسكى تمام الوعى ، لكنـه كان يتحدث عنه بشىء من عدم الرضى • فلم يكن يبدى نحوه نفس الحماس الذى كان يكنه لغيره من السيكلوجيين الحدسيين الذين يقلون عنه عظمة • ان صراعات دوستويفسكى الداخلية ــ لم يشخصها فرويد أبدا على أنها صراعات صرع بل صراعات هستيرية تتبدى فى نوبات عنيفة على شكل صرع ــ تتطابق مع تلك التى اكتشفها فرويد وحدد خصائصـها • ولـكن صـراعات دوستويفسكى وصراعات أبطاله المخلوقة على صورته قد قدر عليها أن تظل بلا حل • اذ بدون تدخل الله ، وهو حل ظل حتى بالنسبة له عرضة للشك ، قدر عليها أن تدور فى دائرة شريرة لانهاية لها • لقد أقر فرويد واعترف بعمق سيكلوجية دوستويفسكى ، ولكن شخصيته لم ترض تعذيب الذات هدفا نهائيا للحياة • فطاقته وطبيعته التى لا تنثنى كانت تتطلب المزيد، وقد ثار بالغريزة على هذا الرفض لقوة الارادة • حدث ذات مرة أن استخدم تعبيرا حادا عن مرضـاه العصابيين فدعاهم « الأغبياء » ــ وفسـرت هذا لنفسى بأنه رد فعل مشابه لرد الفعل الذى يتركونه فى نفسى • كان يظهر بوجه عام اسمى تقدير لما يتمتع به مرضاه من صـفات قيمة ولو أفسـدتها تماما موانعهم العصابية • وكان أميل فى موقفه نحوهم الى التقدير الزائد العطوف وأظن انه كان فى هذه اللحظة قد شعر بالضيق من جراء اتجاههم الدائم الى النكوص والدخول ثانية فى عملية تعذيب الذات •

وفيما تلا هـذا من سـنين عنـدما نشرت الحـكومة الروسـية أعمال فرويد بعد الثورة تحدثت اليه بتفاؤل شديد عما يمكن أن يـكون للتحليل النفسي من أثر فى بناء روسـيا جديدة ولكنه أجاب متشـائما بالنسبة للروح الروسية « هؤلاء الروس كالماء يملأون كل اناء ، ولكن لا يحتفظون بشكل معين » •

وكان فرويد غالبا ما يستشـهد بهاينى ، وقد سـمعته يردد بمرح العارف هذه الفقرة « كان بالقرية ثور شـاخ حتى أصبح كالطفل ولكن عندما ذبحوه كان مذاقه مثل مذاق ثور عجوز » • وكان بوسع فرويد

ان يجد تأييدا جديدا لاحترامه للشاعر ، ولو امتد به العمر ليرى تحقق نبوءة هاينى الكبرى فى الصفحات الأخيرة من « تاريخ الدين والفلسفة فى المانيا » (الصالون ، المجلد الثانى) ·

وكان شكسبير اكثر موضوعات الحديث ترددا فى مناقشاتنا ان اتجهت صوب الأدب · وقد لاقت آراء فرويد حول عقدة أوديب تربة خصبة فى هاملت · وقد ذكرت المناقشات التى دارت حول هاملت فى المراحل المبكرة من الدراسة ثم جاء كتاب ارنست جونز عن نفس الموضوع وفيما بعد وجه فرويد انتباهه الى مسرحيات أخرى : الى ريتشارد الثالث ومكبث فى كتابه « بعض نماذج شخصية على ضوء التحليل النفسى » والى تاجر البندقية فى « الباعث على اختيار علب المجوهرات » وحذا كثيرون من اتباعه حذوه ، وأنا من بينهم(*)، ووجدوا مرعى تحليليا خصبا فى مسرحيات شكسبير · قد لفت انتباهى اثناء مناقشاتنا الى ان شكسبير ، رغم استاذيته فى عرض تكنيك البواعث أو اخفائه حسب الارادة ليس مثل ابسن الذى كان على وعى آلى بها · فهو يلقى بالمنطق والتتابع فى الحوادث ادراج الرياح · ويدخل فى المتناقضات متى لاءمت الموقف الانفعالى · ودلل فرويد على ذلك بان شك هاملت فى البقاء بعد الفناء ليس له ما يبرره ، ما دام على اقتناع بانه راى منذ فترة وجيزة شبحا يعود اليه من عالم الفناء ·

وقد أعار فرويد فيما بعد التفاتا الى النظرية القائلة بأن أعمال شكسبير من عمل نبيل عريق من عائلة دى فير · وأعارنى الكتاب الذى يعرض هذا الفرض الجديد ويدافع عنه(*) ، ولكننى لم أقتنع به · فالصبى القروى الصغير الذى غرم والده بسبب تكوم « الزبالة » عند باب بيته ، بدا أقرب الى الرجحان أن يكون هو نفسه مؤلف « العاصفة » و « قسط بقسط » ·

انني فى عرضي للضروب المختلفة من نشاط فرويد ما قدمت الا ملاحظاتى المباشرة والشخصية دون زيادة أو نقصان · لقد اعتدت أن أقارنه بتلك الشخصيات التى تحكى عنها الأساطير ان لها قوة أثنى

(★) شكسبير « ليس الا ادوارد دى فير ، ايرل اكسفورد السابع ، تأليف ج. توماس لونى » .

(★) للمؤلف دراسة طويلة ممتعة من مسرحية « قسط بقسط » فى ضوء التحليل النفسى فى كتابه « اللاشعور الابداعى » .

« المترجم »

عشر رجلا . والشيء الغريب - وربما لم يكن غريبا على الاطلاق - أنه لم يكن يكل اذا ما اقتضى منه الأمر مجهودات بدنية ، فهو رغم بنيته الرقيقة ، وكتفيه المنحدرين ، وظهره الذي يشوبه انحناء من النوع المدرسي ، كان في قطع المسافات الطويلة أو تسلق الجبال لا يعتوره كلال ، واني اذكر مشوارا طويلا قمنا به في الجبال الواقعة قرب فيينا سيرا على الأقدام في الثلج العميق يوم عيد الميلاد وقد اصطحبنا بعض الأصدقاء من برلين ، ولندن ، ولاهاي ، بحيث كنا نكون جماعة كبيرة العدد . وعندما وصلنا الى نهاية خط الترولللي كان اغلبنا على وشك السقوط اعياء ولكن فرويد ومعه واحد او اثنان من الرفاق ساروا حتى البيت . وكان رفقاء أسفار أعني أخاه الأصغر ، وفرنشيزي وغيرهما يشتكون - فيما عدا رانك الذي كان من نوعه - من انه يكلفهم من الجهد اكثر مما يطيقون . وعندما كان يذهب الى أي مكان كان يعرف بالضبط ما يريد رؤيته ولم يكن ليعود الا اذا رأى كل جزء منه . وفي صيف عام ١٩٣٧ ذهبنا في رحلة الى جبال « تاترا » ذات الدروب الوعرة ، وعندما قررت بقية الجماعة بعد ثلاث ساعات من السير الجلوس ريثما تلتقط انفاسها ، لم يجلس فرويد معنا ، بل قام وحده بجولات قصيرة . وكان يعثر دائما على مشهد غير منتظر أو نبات غريب أو شيء يقع منه موقع الاهتمام . فقد كان لعينيه نفس الصفة التي لعقله ، أو بالأحرى كانت هذه الصفة فيه من القوة بحيث سيطرت على كل افعاله - أعني القدرة على رؤية ما تتخطاه أعين الآخرين . وقد أدركت هذا بوضوح من حادثة بسيطة . كان ينمو بغابات تاترا نبات يدعى عش الغراب وهو أحلى أنواع نبات الفطر مذاقا فنظم فرويد مسابقات لقطف ثمراته ، جاعلا قيمة الجائزة الأولى قطعة من النيكل والثانية سنتين لمن يأتي بخير انواعه ، ولكن لم يمس أحد هذه النقود ، لأنه كان يربح كلتا الجائزتين في كل مرة .

انني اعرف ان هذا الوصف المتالق لقدرة فرويد على تحمل عبء العمل الثقيل بطريقة هادئة واقعية مع اتساع الوقت والطاقة للاعمال الأخرى التي ذكرتها سيوحي بمبدأ عبادة البطل - أو سيرة الزعيم كما اعتاد أن يقول . ولن يضعف هذا الانطباع كثيرا عندما أصرح أنني وجدته مرة أو مرتين في مكتبه يلعب لعبة « الصبر » ومع ذلك فهو غير ذي أساس ، لسبب بسيط وهو أنني أعتبر كل هذه الأمور ليست فريدة في نوعها ، وان كانت موضع اعتبار . فهي ليست أكثر من الخلفية التي تبرز ازاءها معالم شكل الرجل . فهناك علماء مدرسيون وكذلك رجال

دولة وعمال يعملون بنفس الجد والثبات ويؤدون اعمالهم بنفس القـدر من الكفاءة • وعندما اكتب هنا عن جسامة العمل وعن الأسلوب الذى اتخذه فى ادائه ، يعاودنى الشـعور القديم بالحيرة ولاشـىء أكثر • وما استطردت فى تعداد هذه الصفات الا لأنى اعتقد انه من المفيد أن أصف الطريقة التى اعلنت بها طبيعته عن نفسها ، ولكنى ما نسـيت ابدا أن كل هذا مظهر خارجى فحسب لجوهر مستتر • وعلى هذا فانه ذو قيمة ضئيلة نسبيا •

« ثمة جبل آخر دعوته عظيما • فقال : لا ، بل بروز واضح(*) •

(*) رحلة فى جبال الهبريد ، لبوزويل : اليوم الأول من سبتمبر •

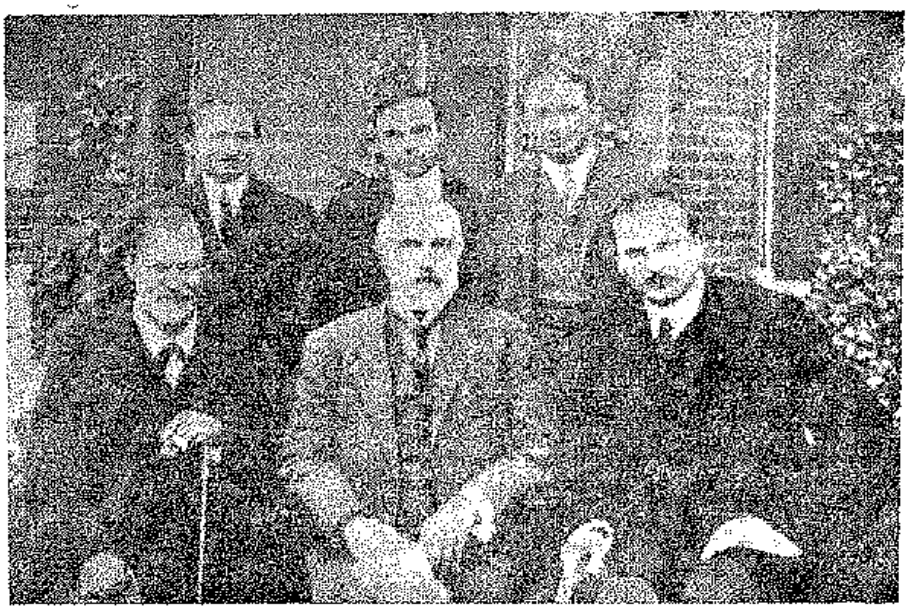

صورة تذكارية اخذت فى سبتمبر ١٩٠٩ بمدينة ورشستر بولاية
ماساشوستس (الولايات المتحدة)
الجالسون من اليمين : يونج ، ساتلى هول ، فرويد
الواقفون من اليمين : فرنتزى ، ارنست جونز ، بريل

الفصـــــل الســـــادس

فى حلبــة النزال

يظل تحديد خصسائص فرويد وصسفاته ناقصسسا دون صسورة له كمناضل : فقد كانت الصراعات جزءا جسوهريا من حيساته ، لان عمله تحدى المحارم التى خلع عليها الزمن هالة من التبجيل · وهز اسسساس اكثر المعتقدات قداسة · والحجج التى استخدمها فى الرد على خصومه يمكن فحصها ومناهج جدله يمكن أن يدرسها أى انســــان ، فى كتبه · ولكن كيفية استجابته الانفعالية ليست بمثل هذا الوضوح · ولقد اتيحت لى فرص عديدة لأكون لها شاهدا لأن ســنوات تعاونى الوثيق المنتظم معه تقع بالضبط فى نفس الوقت الذى اشـتد فيه الرفض للتحليل النفسى « وقسا النقد الموجه اليه حدة » ، عما كان عليه من قبـل أو من بعد · والواقع أن ليس لدى الكثير لاقوله بهذا الخصـــوص لا لسبب الا انى رأيت الأشياء من جانبه وحده · وبرغم أن قدرا كبيرا من الضوضاء قد اثير من حوله الا أن اليسير منها نفذ بعمق كاف لاســــتثارة ذهنه أو ليسبب له قدرا كبيرا من التحمس · فقد وقف داخل دائرة سحرية لا تسمح بدخول اية أرواح معادية اليه · وليس معنى هذا فتور همته أو دفاعه عن الذات تهربا ، ولكنه دخل ساحة السباق فى مناسبات معينة مختارة · وبعد المعركة كان يعود هادئا الى عمله غير ملق بالا الى الجمهور الثائر ·

فاغلب ما وجه اليه من انتقاد كان امثلة جوفاء لتاكيد الذات ومظهرا فارغا لغطرسة ازدهرت فى العقل الألمانى ابان السـنوات التى سـبقت الحرب العالمية الأولى ولا يضاهيه الا نفس المدى الذى بلغته أثناء الفترة السابقة على الحرب الحالية · يضـــافا اليهما النزعة المميزة للغلظة الألمانية التى لا تكتفى بالافحام عن طريق البينات بل تنزع الى ملاشاة كل اثر للخلاف فى الرأى ، بل انكار حق الخصم فى الوجود · وانها لمشكلة

مطروحة للبحث عما اذا كانت هذه الغلظة شكلاً من أشـــكال المنهجية الألمانية أو المنهجيية نتيجة الغلظة ، ولكن لاشك أن ما من أمة عاصت عظماء رجالها بمثل هذه القسوة ــ مثل الأمة الألمانية ٠ ومن المعروف أن العبقرى لا يقر بفضله فى زمنه ٠ وحقيقة انجيلية أيضا أن لا كرامة لنبى فى وطنه ، ولكن حالات مثل القذف بالطين والشـــتيمة التى تكومت على جوته وشيللر استجابة « لعملها العملاقى والصمت المطبق الذى جوبه به شوبنهاور على مدى ثلاثين عاما ردا على عمله الخـالد هى حالات لا مثيل لها فى تاريخ غيرها من الأمم المتحضرة ٠ وايفاء الشيطان حقه يقتضينى أن أقرر أن بعض النقاد اليهود شـــاركوا فى معرض الفجاجة ورداءة الذوق ــ ولعلهم ارادوا ان يثبتوا بالمبالغة تماثلهم الكامل للعنصر التيوتونى ٠ وبصرف النظر عن هذه الأمور المســـتهجنة يمكننى أيضا أن أقرر أن العلماء اليهود كـانوا أشد ناقديه قســوة ــ وهذا مثل طيب لأسطورة النازية عن تضامن اليهود الروحى ٠

ويخبرنا فرويد فى كتابه « تاريخ حركة التحليل النفسى » عن مدى دهشته لرد الفعل العنيف الذى جابه قوله أن الاضطرابات العصـــابية ذات مصدر نفسى جنسى ٠ والأرجح أن دهشـــته كانت قصـيرة المدى وذكرى من ذكرياته الماضى ولاشك عنـدما عرفته ٠ فقـد كان فرويد حينذاك على يقين من أن الرفض الانفعالى الذى لاقاه التحليل النفسى للوهلة الأولى كان ظاهرة طبيعية ضرورية مثلها مثل المقاومة التى يلقاها الطبيب أثناء تحليل مريض مصاب بالعصـــاب(*) ٠ ولذا لم ينزع الى التورط فى شحان مستمر لا فائدة منه ٠ وكان ينصح أتباعه أن ينهجوا نهجه ٠ فلم يستطع مهاجموه أن ينالوا منه غير رد سريع حاد بين الحين والحين ٠ ومرجع هذا عقم الدفاع كتابة عما أثبتت صـــحته النتائج ٠ فنجاح التحليل النفسى ــ فى مداه ــ لا يعزى الى انتصاراته فى غمار المصادمات الملحمية ، بل الى ما أتت به نتائجه الايجابية من ثمار ٠

ولم يكن تســليم فرويد بحتمية المعارضة للتحليل النفسى ولا ندرة احتجاجاته العامة عرضين ناجمين عن رخاوة فى طبعه ، ولـكن وعيه بالسبب الأعمق للهجمات نأى به عن النظر الى شـــخصيات المهاجمين وبواعثهم الشخصية بعينين راضيتين ٠ فهو قد أسقطهم من حســـابه بسبب انعدام ما يشعر به نحوهم من الاحترام ، وليس لرقة شـــعور أو

(★) يقصد المؤلف ان مقاومة النقاد للتحليل النفسى مثلها مثل مقاومة المريض المصاب بالمرض النفسى للمحلل الذى يقوم بتحليله ٠

« المترجم »

لرغبة فى تجنيب احساساتهم كل ايلام ولذا كان اذا تحدث عن احد مهاجميه المعتادين ، فعن رغبة فى التفكه ببعض القصص المسلية • ولازلت قادرا على تذكر اثنتين من هذه القصص رواهما بشىء من الحماس الساخر •

كان هناك « ناقد رفيع المقام » انكر بشدة وجود أية صلة بين العصاب والجنسية ثم ووجه فى عيادته بفتاة مصابة بالهستيريا كانت نوباتها تقليدا سافرا لفعل الولادة • فقال « لا شأن للأطفال بالجنسية » وانصرف •

وثمة آخر اخبر تلاميذه بانه لا شىء من الصحة فى النظرية الفرويدية ثم تقدم ليعرض حالة عصاب حصارى • فروى المريض بعض حصاراته واشتكى من أن الحصار الذى يسبب له أشد عذاب هو ما يشعر به من دافع لرفع سترات النساء اللاتى يلتقى بهن(*) • ورأى الأستاذ الابتسامة على وجوه طلابه فقال : « رويدكم • سترون أن المظهر السطحى لهذا العرض مضلل » • وعندئذ سأل المريض : أتشعر بهذا الدافع الحصارى بالنسبة لوالدتك كذلك ؟ » « أجل يا سيدى الأستاذ ، اشعر به شديدا جدا ، وهذا أسوأ ما فى الأمر !! » وهنا قال الأستاذ « أرايتهم أيها السادة أنه لا يمكن أن يوجد شىء جنسى فى هذا العرض(**) » •

ان عداء هؤلاء النقاد الذين نظروا الى التحليل النفسى من الخارج ولم تكن لهم به غالبا سوى معرفة واهنة لم يسبب لفرويد اية متاعب • كانت لديه ابتسامة مرة للادعياء وردود سريعة للناقد الجاد • ولكن ثمة ضرورة لم تكن فى الحسبان اقتضته للدفاع عن أعماله وسببت له عناء اكثر جدية الا وهى : اضطراره الى محاولة اتباعه السابقين الذين تحولوا عن تعاليمه مرتدين وكونوا مذهبا خاصا عن طريق اعادة تشكيل جوانب معينة من التحليل النفسى ، واهمال جوانب أخرى واضافة

(*) كان هذا وقت الفساتين الطويلة والسترات القصيرة .

(**) ثمة علاقة جنسية بين الطفل وامه (عقدة أوديب) ولكن هذه الرغبة تكبت ، ولكن المكبوت يعود للظهور ، فى ظل ظروف خاصة ، ويكون المرض النفسى (العصاب) ، دون أن يعرف باعثه . وهذا يمثل حال المريض فى هذه الدعابة . أما الأستاذ ، فقد بنى حكمه هذا ، لأنه يجهل المكبوت لديه .

« المترجم »

عناصر جديدة مشكوك في قيمتها(*) • هنا وضع فرويد كل نار طبيعته وقوتها فى الرد على هؤلاء ، وخاصة يونج وادلر • وما كل له جهد ابدا فى العثور على حجج جـــديدة تفحمهم ، وما توانى قط عن العـــودة الى الميـــدان ، ودفع اتباعه الى الاشـــتراك فى المعـــركة • ولا يرجع هـــذا الحماس ، البين الاختلاف عن موقفه ازاء المعارضـــــة من الخارج الى الاعتقاد الخاطىء الى أن هذه النظريات الجديدة كانت اكثر خطورة على التحليل النفسى من المقاومة القديمة ، كما لم يؤثر فيه أن هؤلاء الخصوم كانوا فيما مضى يدرجون فى عداد خيرة اتباعه • ولكن الذى أثاره ــ بعيدا عن العنصر الشخصى الذى سنتحدث عنه ــ **كان مشكلة أن هذه** الآراء الجديدة التى ظهرت أولا تحت اســم التحليـــل النفسى ســـتخلط **الأشياء وتوردها مورد الارتياك الى درجة يصبح معها من المستحيل تبين ما هو تحليل نفسى فعلا وما ليس كذلك** • ويجب أن لا يغيب عن البال ابدا ان فرويد لم ينزل اهمية التحليل النفسى دون منزلتها لأنه كان من بنات افكاره • بل لأنه **كان على يقين أنه أبعد الاكتشافات التى أوجدها الانسان فى سبيل فهم نفســـــه مضاء وفعالية** ، واعتبر أن أمانته المنزهة وواجبه المقدس أن ينأى به واضحا خالصـــا عن كل ما يشينه • وكان فى أداء هذا الواجب لا يعتوره ملل ولا ينال منه كلل ، صلبا ماضيا كالفولاذ « مؤمنا » يكاد يبلغ حد التعصب والاستشهاد •

وكانت اكثر « الانشقاقات » اهمية تلك التى قام بها كل من ادلر ، وشتيكل ، ويونج ، ورانك • ولم يثر فيه رحيل شتيكل اى شعور عميق • فلم يأخذه فرويد ابدا مأخذ الجد رغم اعترافه بمواهبه المختلفة • وكان هدوؤه مثيرا لمزيد من الدهشة عندما غادره رانك الذى كان اكثر معاونيه ائتمانا لأكثر من عشرين عاما • ولكنه قد لاحظ أن تغييرا اســـاسيا قد طرأ على تكوين شخصية رانك وأخذ فى النمو ابـــان ظهـــور مرضه القديم العضال (**) فمعرفته بأن رانك سيغير من موقفه بالنسبة للتحليل النفسى عصمته من أى أسف عاطفى كما ســـنبين فى مكان ما من هنا **الكتاب • وعندما اعتزل ادلر كنت لا أزال حديث العهد بالتحليل النفسى**

(*) ان مشكلة ما اذا كانوا قد قاموا بمجهودات مستقلة فى علم النفس ، فيما بعد عندما اصبحوا اكثر بعدا عن طرق فرويد فى التفكير ، ليست موضـــوع نقاش هنا . اذ ان قصدى هو ان ابين موقفه ، لا ان اعطى تقييما او نقدا لمدارس الفكر السيكلوجى المختلفـــة .

(**) استخدم فرويد وصف هذا التغير للاستشهاد به فى احد كتبه ، دون ادنى دلالة على الذى يعنيه من الاشخاص .

حتى أعرف رجعه الشخصى ، ولكن عملية خروج يونج من التحليل النفسى شـــهدتها خطـوة خطـوة ، حتى ذروتهـا النهائيـة فى مؤتمر ميونيخ عام ١٩١٣ ٠

ان الشاعر العظيم خير من يسدى النصيحة فى كل حال ، لكل من يرضى أن يعيره أذنا واعية ٠ كان على فرويد أن يقرأ ويتذكر ما يقول كارل ســتبلر فى روايته « ايماجو » عن مواطنى سويســرا « لو انفتح امامهم بابان ، يؤدى احدهما الى الفردوس ويؤدى الآخر الى محاضرة عن الفردوس لاختاروا الباب الثانى » ٠ وهكذا حدث ان أســاء فهم يونج واهتمامه بالتحليل وشــيد آمالا كبارا على شخصيته التى رأى منها الجانب البراق فحسب ٠ وكان مرة أخرى ضحية تفكيره المتطلع وذهب خداعه لذاته الى حد انه لم يقرأ العلامات ف الســـماء ــ أعنى الأعراض الضئيلة ولكن المتكاثرة بثبات ف موقف يونج المتغير نحوه ــ بينما كان آخرون أقل منه حدة نظر قادرين على تبينها ٠

وقد اطلعنى فرويد على خطاب يونج الأخـير الـذى أيقظـه على الحقيقة الأليمة ٠ ولا شك أن هذا الاجراء كان أكثر الحوادث ف حياته ايلاما ٠ وبعدما برأ منه بذل كل جهده ليخط خطا بين الوضوح بينه وبين تابعه السابق ٠ فلم تكن القيمة العلمية لنظـريات يونج تقع من نفسه موقع التقدير ٠ وانتقد هروبها الدائم الى غيبيات شــبه صوفية ، وعندما أولاها مزيدا من الالتفـــات لم يكن مدفوعا بغير رغبته ف النأى بها عن التحليل النفسى ٠

وقد آثارت كل هذه الانشـــقاقات ــ ولم أذكر البســيط منها ــ وما أعقبها من مشاحنات فكرة خاطئة عن شخصية فرويد والدور الذى قام به ف حركة التحليل النفسى فقد آثارت هذه الاحداث قدرا كبيرا من الضجة واجتذبت لفترة انتباه العامة لاالعلماء فحسب ٠وهلل اعداء التحليل النفسى ــ وكانوا متوافرين دائما ــ لهذه الأحداث متنبئين ف شــماتة بانحلاله الســريع ٠ فقد بدا للنظر السطحى كأن كافة الرجــال البارزين الذين كانوا يوما أقرب الأصدقاء الى فرويد وأعزهم عليه ، مثل بوير وفليس أولا ، ثم ادلر ، ويونج ، ورانك ، قد اعتزلوه عاجلا أو آجـــلا نتيجة اســتبداده أو ســـوء طبيعته ٠ وهذا بعيد عن الحقيقة ولكن كان غض النظر عن جماعة الاتباع الأكثر عددا من « الأبناء العصاة » الذين يثيرون اهتماما أكثر ٠ وساد لفترة من الوقت الزعم القائل بأن فرويد كان شخصا جافا ممضا ، وناظر مدرســة طاغى السلطان يعدو على

كل من يظهر أدنى علامة على العصيان • وانه لمن أغراض هذا الكتاب أن يحطم هـذه الخرافة ، التى هى فى الواقع كاملة البطلان • على أية حال سـيكون من المفيـد فحص العـوامل الكامنة فى ذهن فرويد ، تلك العـوامل التى تسببت فى حدوث سـلسلة طويلة من الانشـقاقات ، واحدة فى اثر أخرى : فثمة شىء ظاهر موجود فعـلا فى المواقف التى سببتها شخصيته ، شىء مسـتقل عن البواعث الفردية فى كل قضـية على حدة •

كان التخفف من كل عبء للسلطة رغبة فرويد الزائدة • فاندفع فى طريقة بحثا عن الرجل الصالح الذى يسـتطيع ان يأتمنه على قيادة حركة التحليل النفسى ، وكان عندما يخال أنه قد عثر عليه ، يحاول أن يلقى اليه بمقاليد السلطة كلها • وهذا ما حدث مع ادلر ، ويونج ، ورانك • وكان هذا خطأ تكتيكيا لأنه من الحقائق التاريخية الذائعة أنه من بين الأشخاص الذين يحتمل منهم عصـيان السلطة الحاكمة ، يكون الأمير المتوج أقربهم الى الرجحان فى هذا الحسبان • والتحليل النفسى يوضـح سبب مصداق هذه القاعدة التى قوضت الكثير من الأسـر الحاكمة • وكان فرويد يعرف كل هذا ولكن ولعه الحاد بالقاء زمام التحليل النفسى بين أيد أمينة كانت من القوة بحيث تطغى على كل معـرفته النظـرية وخبرته المكتسبة بشق النفس •

ويصبح هذا الانشقاق المحتوم بين الملك والأمير المتوج ، بين الأب والابن بين الأستاذ وتابعه ، بنفس الخطورة والصعوبة اذا ما حدث فى المجال التحليلى بين المحللين ، الذين هم بشـر مثـل غيرهـم ، بل على العكس ثمة تعقيدات معينة تتدخل وفيها جانب من الضريبة التى يجب دفعها من أجل فهم سيكلوجى أفضل •

فالاشتغال الدائم باللاشعور يعمل لفترة طويلة من الوقت أشـده بمكدر لا يمنح العقل راحة • اذ من السهل اثارة الانفعالات ولكن ليس من السهل اعادة تنظيمها على أساس جديد • فلا يمكن أن يتبع المحللون النفسيون نصـيحة الاختلاء بالذات • والسـبيل الوحيد أمام المحلل ليتخلص من هذا الوضع المؤلم هو الا يقف أبدا فى منتصف الطريق فى بحثه للاشعور الى أن يتبين أن تحليله كامل شامل ولكن فى المراحـل المبكرة ، لم يكن هذا السبيل ميسرا ، الا عن طريق التحليل الذاتى وهو عملية بطيئة وليست فى ميسور كل انسان • ومن الوجهة العملية كان

فرويد فى تلك الأيام الوحيد الذى كانت معـــلوماته وخبرته من التقـدم بحيث يقوم بعمل كهذا بنجاح وقد كان دائما على استعداد ليساعد أصدقائه واتباعه بتوجيه النصح اليهم فى تحليلهم لذواتهم ، ولكنه رفض أن يقبلهم كمحللين المنتظمين • وكان هذا القرار حكيما وحريصـــا لأن تداخـــل العلاقات الشخصية والتحويل التحليلى النفسى كان من شأنه أن يقيم عقبات اســـوأ فى طريق التقدم التحليلى ، وبرغم كل هذا لم يكن هذا القرار اقل عقما • فالوجدانات المسموح بها نصفا ، والمكبوتة نصفا ضد الأب البديل والتمرد ، والبغضاء ، والحنق ، وغير هذا من الأمور لعبت كافة ضروب الخدع الماكرة وقد اختفت هـذه المشـكلة فيما بعد ، مع « الجيل الثانى » من الرجال الأحدث ســنا الذين لم تكن تربطهم بفرويد علاقة شـــخصية وثيقة ، واســـتجاب مرارا لرغبتهم فى أن يقـــوم بتحليلهم(*) •

وثمة حجر كان فرويد يقذف به الآخرين الا وهو : موقفه المتعصب اذا ما واجهه شىء يعتبره انحيازا عن نغمة الاخلاص والأمانة الذهنية ، فهو لم يكن يعرف الاستفادة من نصيحة بنيامين فرانكلين الحكيمة لتجنب الصدام : « استطيع أن أقدر وجهة نظرك » أو ما يشـبه ذلك • لم يكن يعرف الابتسام فى وجوه أولئك اللئام الذين ينشغلون ببناء الجسور بين « لا » و « نعم » وما كان يرغب فى مهادنة القاطنين فى ارض حرام بين الحق والباطل • وكان يشعر انه ابعد ما يكون عن أولئك الذين يولون متنكرين لحقيقة اثبتت على يقين لأنهم اصبحوا على خوفمن أعدائهم ، أو من أصدقائهم أو انفسهم خائفين • ولم يكن يرد على مثل هذا النقص فى الشجاعة الخلقية باللوم العنيف ، بل بالاحتقار • وما من دعوة يمدن اقامتها ضد الاحتقار ، فصمته يخز ويسبب ألما انكر وقعا من أجهر الأحكام وهذا ما جعل وصل ما انقطع لا وصل له فى مقتبل الأيام فكانت كل قطيعة مع صديق سابق فى حياة فرويد لا رجعة لها • لقد رأيته مرات عديدة يبذل كل ما فى وسـعه لأولئك الذين يمرون بأزمة من الأزمات ولكنى لم الحظ ابدا انه شعر بالرغبة لكى يخطو خطوة فى سبيل اقرار اواصر السلام • (بينه وبين من لا يشعر نحوه بالتعاطف) •

(*) لم تكتمل فكرة « التحليل التدريبى » الا حين قدمت معاهد التحليـل النفسى الحديثة العهد التسهيلات اللازمة له ، وقد تبين ان خير طريقة لتحاشى المصاعب الناجمة هى تعيين شخص آخر غير استاذ الجماعة ووالدها كمحلل تدريبى يكون بمثابة الوسيط • ولكن يمكننى ان اقرر بعد التى عشر عاما من الخبرة فى برلين انه حتى عمل الوسيط ليس مرضيا فى جميع الأحوال •

لم تكن كل هذه السمات والاتجاهات فى شخصية فرويد بمجرد المصادفة جوانب من شخصية مكتشف اللاشعور وواضع اسس التحليل النفسى . انها لم تكن الا مظاهر مختلفة لنفس الاقنوم الأول . فالتطلع الى رأس « الميدوزاليس » (*) بالأمر الذى يؤخذ ماخذ اليسر وقد كان فرويد ـ وهذا خلاصة كل ما قيل فى هذا الفصل ـ من رباطة الجأش بحيث يقف كالطود ثابتا عندما يتبين اننا لسنا سادة انفسنا ولن نسودها أبدا ، وحتى عندما اكتشف الاكتشاف المذهل الذى بين من اية مادة غير مقدسة جبل السادة المجهولون (**) . فلم يجفل عندما كان عليه ان يتطلع الى اسفل ، من مكانه بحافة الهاوية لكن أغلب الآخرين الذين تابعوه أصابهم الدوار لأول وهلة . وكان عليهم أن يتعلقوا به عندما أخذت الجبال تميد من حولهم . فماذا استطاع أن يفعل أولئك الذين حالت كبرياؤهم دون تقبل مساعدته وكانوا من الضعف بحيث لا يسندون انفسهم ؟ لقد حجبوا أعينهم بأيديهم وولوا هاربين .

(*) الميدوزا لعبان هائل الحجم متعدد الرؤوس ، كلما قطع منه راس ظهرت مكانه رؤوس عديدة . وهو رمز للمشكلة التى يعسر حلها ، أو التى يستلزم اى حل لها حلا آخر . وهذا ينطبق على المشاكل العلمية .

« المترجم »

(**) لسنا سادة انفسنا لان اللاشعور هو المتحكم فى افعالنا واقوالنا . وهو السيد الحقيقى كما انه ، نظرا لانه يحوى كل « مكبوت » ، ليس من مادة يقبلها ويرتضيها المجتمع .

« المترجم »

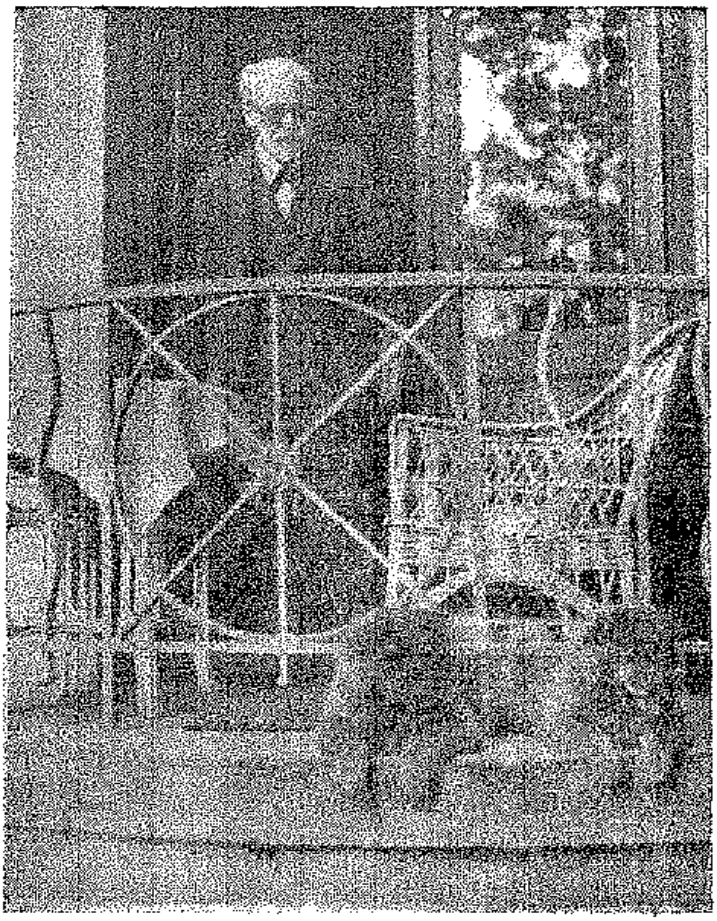

Hans Cecpasius

Freud in his Summer Place

فرويد في مصيفه

كل ما اعرفــه عنه

كل من يستغرق فى قراءة كتاب يعقد مع مؤلفه نوعا من الزمالة • وتبنى مساهمته فى هذه المشاركة على استعداده للاستجابة للكتاب بكل سمة من سمات شخصيته وانفعاله • وخياله ، وذهنه ان لزم الأمر • ويصـــبح الكتاب ومؤلفه جزءا متكاملا منه ، فيقتســم معهما جانبا من حياته الخاصة ، يعزل عنه الغرباء ، بل الأصدقاء فى أغلب الأحيان •

ويمكن ان يحدث هذا حتى لقارىء كتاب لا يدور حول الانفعالات ، بل يحوى مادة موضـــوعية فحسب عن الحياة العضوية أو الطبيعية الصـــماء ، مثل كتب البيولوجيا والفلك ، والجيولوجيا • ولكن يحدث هذا حتما اذا ماذكر الكتاب القارىء بخبراته الداخلية الخاصةواللاشعورى منهاطبعا • وتصبح هذه الرابطة بالغة المتانة بالنسبة لأولئك الذين عار المؤلف لخيالهم المكبوح المقيد بالارض زوجا من الأجنحة ، فتهتز نفوسهم وتلهج الى الأبد بالامتنان من أجل احساس لم يكن لهم به عهد وفرح لم يكن معروفا لديهم • وتنعقد أواصر هذه الرابطة فى الغالب فضل روائى الفن الكبرى كالقصائد ، والروايات ، والأعمال الدرامية ولكنها ليست بمنأى عن الأعمال التى تدور حول الحقائق الجامدة ، كالتاريخ ، وسير الشخصيات ، والاجتماع ، والفلسفة تلك التى تعكس الحياة الانسانية ، وعواطفها ، وحـــالاتها المزاجيـــة ، واهواءها ، اذا كــانت انسانيتها اصيلة لا يشوبها زيف •

ومشـــكلة خلق هذه العلاقة أو عدمها ذات مغـــزى بعيد الدلالة بالنسبة لعلم النفس • اذ يمكن ان تستخدم كمحك اختبار لقيمة اى كتاب عن الذهن ومســـائله • فان اخفق الكتاب فى ان يثير فى طالبه اهتماما

بشخص مؤلفه واحساسا بشخصيته ، فانه لا يقدم أكثر من قشرة فارغة من علم النفس ·

وتتحقق نتيجة كل مشاركة من هذا النوع بان يحاول القارىء أن يكون لمصلحته الشخصية صورة عقلية لصديقه وزميله الجديد (أو خصمه وعدوه الجديد) · ويتم هذا بلا قصد ولا شعوريا فى كثيرا أو قليل ، ولكن كلما عمق تاثره بالكتاب ، قويت رغبته فى ابداع لوحة كاملة واضحة عن مؤلفه ، وان تكن من نسيج الخيال · ومعظم المادة اللازمة لصورة كهذه يقدمها الكتاب نفسه والانفعالات التى آثارها · فأجزاؤها تلتئم بما يلقاه القارىء فى طريقه من أحداث سيرته ومدى اتفاقها مع ما كونه من قبل من أفكار · ويستخدم الشكل الخارجى للمؤلف ، سواء فى شخصه أو فى صوره لدراسات فى علم الفراسة ·

ومثل هذه الصورة برغم افتقارها الى الموضوعية ، تمتاز بأنها تنبض بالحياة ، ومن هنا تختلف عن تمثال الجص التقليدى الجامد الذى يقام تكريما لأحد «الخالدين» وهى تبنى شخصية الرجل على عمله أكثر مما تبنيه على حياته الفعلية وتخلع عليه مما يتفق مع مثالية المعجب به أكثر مما يطابق الحقيقة · وبرغم كل ذلك ، فهى ليست أكثر بعدا عن الدقة من الصور الذهنية التى نكونها عن معارفنا الشخصيين بل ربما عن أصدقائنا الخلصاء وسواء أكانت صحيحة أم خاطئة فان هذا الميل المعتاد يلعب دورا هاما فى التقريب بين الأفكار ولولاه لظل عالم الآداب بالنسبة لنا مغلقا ·

وانى لأتساءل عما يمكن أن تكون انطباعات قراء فرويد عنه كل على حدة وليس فى مجموعهم — فى الوقت الذى كنت فيه قارئا له ولا شىء أكثر — أعنى الفترة الواقعة بين التقائى الأول بكتاب « تفسير الأحلام » وأول اتصال شخصى لى به بقاعة المحاضرات » وكان وجيزا للغاية وهو الآن محتجب فى ذاكرتى خلف الذكريات التى توالت عبر خمسة وثلاثين عاما · وقد بدأت محاولتى من زاوية خاصة فأعطتنى حيازة ذلك الجانب من فرويد الذى — استبعد منه تلاميذ عمله فيما بعد ، ولذا فمن المحتمل أن تكون تجربة الرجل العادى مخالفة لتجربتى ·

وكلما ساءلت نفسى عن انطباعى السائد الدائم ، يأتينى جواب بعينه الا ، وهو : انه كان مختلفا عنى · وقد كان هذا الشعور قائما ،

وظل ماثلا طوال السنوات العديدة من تعارفنا ، ولم يهون منه ودنا النسبى شيئا · « لقد عرفت دائما أنه كان مختلفا » ولكن هذا القول لا يقع موقع الوضوح والوجاهة ، بل يحاول ايضاح رأى مباشر بمساعدة استدلال ضعيف يذهب التوقير الدائم · وسيكون من الأفضل أن نحاول اعطاء اجابة من الجانب السلبى · ونبدأ بتقرير انى لا اعتقد فى التفرد والامتياز الذى ينتج عن هبات خاصة تسقط الى الشخص بطريقة غامضة على الافهام من أحضان الآلهة · وقد قابلت عددا لا بأس به من هؤلاء الأشخاص الممتازين وكانت لى ببعضهم صلات وثيقة ، مثل كارل ستيلر الشاعر السويسرى ، وسريجى اينشتين ، مبدع بوتمكين Potemkin وارثو شنابل الموسيقى ولا يمكننى أن أقول اننى لم اشعر بالحسد من مواهبهم ، ولكنى لم أعتقد انهم شخصيات من عالم مغاير لعالمنا ولم اتردد فى قبول صداقتهم على قدم المساواة اذا ما واتت الظروف ·

وقد قابلت كثيرين يمتازون بصفات اقتبستها لنفسى بنجاح اقل ، مثل الأصالة وسداد الرأى ، والعمق ، والمثابرة ، وقوة الشخصية ، وغيرها من حميد الخصال وعزيت نفسى بتفكيرى انهم جبلوا من نفس المادة التى جبلت منها برغم أعمالهم العظيمة ·

ولكن فرويد كان مختلفا بطريقة اخرى · لامراء فى أن بصيرته السكلوجية كانت هبة من الآلهة مثله مثل الموسيقى أو الشعر · ولكنى شعرت أن فرويد كان يمكن أن يكون مختلفا عن عامة البشر لو لم يستدبر العمل الفسيولوجى وينشغل بعلم النفس أو علم النفس المرضى · فما امكننى ببساطة أن اصدق انه جبل من نفس الطين الذى جبل منه الآخرون · فثمة جوهر من نوع خاص قد صهر فيه واسبغ على النتاج النهائى لشخصه درجة اعلى من الكمال · وكان معنى هذا وجود هوة بيننا لم أحاول عبورها · وبرغم انه كان يدعونى صديقه ، لم اشعر ابدا انى كذلك ، فقد ظل بالنسبة لى دائما على استعلاء (*) مثلما لقيته للمرة الأولى بقاعة المحاضرة · لقد مررت بلحظات من النقد والعصيان ، ولكن لم تعم عيناى لحظة عن الهوة التى تفصل طبيعتى عن طبيعته ·

(*) لا يقصد المؤلف أن فرويد كان متعاليا متكبرا ، بل يقصد انه ، مهما امعن فى التواضع ، يظل موضع التوقير والتقدير ·

« المترجم »

ولا يساورني شك في ان فرويد ايضا لم يكن يعتبر نفسه « في مصاف الرجال العاديين » · وما قال ابدا شيئا يمكن ان يحمل محمل الاشارة الى فكرته السامية عن نفسه ، كما انه لم يجد امتيازه متواضعا · واظن انه تقبل هذا الأمر كما تقبل اية حقيقة أخرى اثبتها البرهان اثباتا كافيا ، اعني بالامتثال « لمبدأ الواقع » دون النظر الى ما تتضمن من خير أو شر · فقد حدث اثناء فترة الخلاف الادلرى ان بدا احد الخصوم حديثه بازجاء المديح لعبقرية فرويد ، فقاطعه بجفاء قائلا انني لست محبا للمديح ·

فهو اذ رضي ان يتحمل علامة الامتياز ، فانه كان يرفض دائما ان يضع نفسه من الآخرين موضع الرجل العظيم ، ومعلم الحكمة ، والعبقري الذي لا تكتم عنه العقول أسرارا ، أو الشخصية التي تحار في سبر كنهها الألباب · وان تجنب الدعاية الشخصية بكل صورها لم يكن سهلا على رجل صفع عمله الدنيا في موضع حساس ، ولكنه نجح في هذا دون عناء كبير · وكان عدم اكتراثه لهتاف العامة واعجابهم كاملا مثله مثل قلة احتفاله فيها مضى بسخطهم وضجيجهم· فذات مرة كنا نتحدث عن الشعبية الفجائية التي حازها اسمه ، فاخبرني أن أوليفر كرمويل قد سئل مرة « السـت فخورا اذ ترى الجماهير قد اقبلت لتعاين المختار من لدن الله وهو يحوز انتصارا ؟ » فاجاب قائلا : « كان من الممكن أن يأتي قدر هؤلاء اضعافا ثلاثة ليروني على حبل المقصلة معلقا » ·

كان من الواضح الملموس ان المرء لاحظوة له عنده فلم يزج اليه منه غير النذر اليسير · وكان احترام اتباعه له يتجلى اعمالا لا اقوالا · كما لم يكن في نفس الوقت من اولئك الناس ذوي الحساسية المرهفة الذين ينشغلون دائما بما تحمل شخصياتهم من قيم · فكم من مرة هوجم بطريقة تنبو عن الذوق ، وكنت اشهد ما يجري، وانا اتميز غيظا · بينما ظل ثابت الجنان لا يتحرك منه ساكنا · وعلى الرغم من هذه الدماثة الزائدة (لعلها الصفة الوحيدة التي كان يدين بها لفينا) فانه قد رفض ان يمر بالخلافات الجدية مر الكرام بالكلمات الناعمة والتربيت الحنون على الظهر · فعندما اخبره بعض اتباعه بانه قد وجد طريقة لنشر التحليل النفسي دون اثارة للعداء ـ وكان يونج قبل أن ينشق على التحليل النفسي أولهم ـ وقف منهم فرويد موقف المستنكر · فقد اتضح له أن لاسبيل الى المهادنة دون تضحية بعض الجوانب الهامة ، وأن « التحليل النفسي دون دموع » يدل دائما على بداية التنازل عن المبدأ ·

وتتضح كراهية فرويد للادعاء فى طريقة حديثه · فما استعمل ابدا جملة جوفاء · فكل اقواله كان وقعها من البساطة والعمق بحيث يفوت معناها القـارىء العابر · كنت احيانا اذ آخـذ طريقى عائدا من منزله ، اتمعن حديثنا بحرص فاتبين ان هذه الملاحظة او تلك التى بدت عادية للغاية انما تتضمن فى الواقع شيئا اصيلا فريدا فى اصالته · وكان يفضل فى احيان اخرى ان يبدو مستخفا اكثر منه عاطفيا فمثلا ، كانت المشكلة المطروحة للبحث هى السبب فى وجوب بقاء المحلل غير مرئى اثناء الموقف التحليلى ، فيجلس خلف المريض · فقال فرويد فجأة بعد ان اصغى الى الحجج : « لا يمكننى ان ادع نفسى عرضة لتحديق الأنظار ثماني ساعات يوميا» فوقع قوله هذا موقع البساطة الزائدة وعلى شىء من الجفاء · وقد علمتنى التجربة فيما بعد انه يحوى كل معنى جوهرى · فما من انسان يشـــعر نفسه تحت ملاحظة وثيقة دائمة ، ويعرف ان ابسط حركة منه ستستخدم كدليل ، يســـتطيع ان يترك نفســـه للانتباه المتحرك فى حرية واللازم لتجميع المادة اللاشعورية ·

وكان فرويد غير اســـتعراضى كذلك فى اثناء المواقف الانفعـــالية المثيرة · فقد كنت حاضرا اثناء توديع ابنه الأكبر الذى عاد بعد اجازة قصيرة الى الجبهة الروسية ، وهى بالنسبة لضابط فى ســـلاح المدفعية مكان محفوف بالأخطار · بعد « الى اللقاء » ومصافحة قصيرة باليد تحول فرويد واستانفنا حديثنا · وقد اتيحت لى مناســـبات اخرى لأتبين مدى ما تعنيه حياة اطفاله وحسن تربيتهم بالنسبة له ·

كل هذا ـ اريد ان اكرره ـ كان نتيجة نفـــور فرويد العميق من التظاهر والادعاء · فلم يكن فى طبيعته ادنى اثر للتصنع · وقد افاد هذا فى كبح جماح كل ميل الى التعاظم او اية نزعة الى ان تبدو صـــورته الروحية اقل سموا مما هى عليه فى الواقع ·

تحدثت كثيرا عن موقف فرويد ازاء الأحداث المختلفة · ولنعد الآن الى يقينى بكونه مختلفا ، او الى اعتقادى بعظمته بعبارة اخرى · كان عمله هو الأســـاس طبعا ولكن قوة خفية فى شخصيته ، صفة خاصـــة بالعبقرى ، كانت موجودة ولا شك قبل ان يبدأ عمله العلمى بوقت طويل وحافظت على وجودها المستقل · او بعبارة أخرى ، كان به شىء واد عبقريته وظل دائما متساميا عليها ·

قالت ارتميس بهدوء : « لم كل هذا الصخب ؟ ان عمله ليس الا بعضا منه ، انه هو نفسه الذى كان عظيما » ٠

كارل ستيلر ، « الربيع الاوليمبى »

الجزء الثالث ، الفصل الخامس « ابولو المكتشف » ٠

اما مدى سبق الرجل على عصره فقد ادركته من حادثة بسيطة فى مبناها كبيرة فى معناها ٠

وكان ذلك فى السنوات الأولى للتحليل النفسى عندما روى فرويد هذه القصة اثناء مناقشة جماعية : « سألنى مؤخرا أحد الذين يترددون على للتحليل ٠ وهو مريض بالغ الذكاء مصاب بعصاب حصارى : انك تعرف ان الاطفال عندما يحصلون على الخبز والكعك ، يأكل بعضهم الخبز أولا ويأكل البعض الآخر الكعك أولا ٠٠ فماذا تراني آكل أولا ؟ فأجبت انه بالطبع أحد الذين يأكلون الخبز أولا » فسألنا فرويد « كيف عرفت ذلك ؟ » فكانت اجابته نظرة تدل على الدهشة ٠ وكان كل ما قاله بعد فترة صمت « كيف يمكن أن يكون غير ذلك » ٠ واليوم يعرف كل من درس مبادىء التحليل النفسى أن العصاب الحصارى نتيجة تثبيت على المرحلة الشرجية السادية(*) وأن من صفاته الجوهرية تكثيف اللذة عن طريق التأجيل ٠ ولكن فى هذه الأيام لم تكن مقالتا فرويد « الاختيار العصابى » و «سمات الشخصية الشرجية » قد نشرتا بعد ٠ ولم نتكونا فى ذهن فرويد ٠

كثيرون غيره من السيكلوجيين الحدسيين ــ معظمهم لايدعون انفسهم « سيكلوجيين » ــ قد وجدوا الحقيقة ، يقودهم الحدس اللماح ، ولكنهم توقفوا عند هذا الحد ، مكتفين باستخدام موهبتهم كما منحت لهم٠ ولكن طبيعة الأمور تختلف حين يتعين المضى قدما فى البحث والتصفية ، وموازنة الحقائق وتقدير البراهين حتى يستحيل الحدس نظرية علمية قابلة للاثبات فى متناول أى انسان ٠ فهنا تلزم شخصية حرة من الكف(*)

(★) أحد الاكتشافات الهامة التى اكتشفها فرويد ، هو أن الجنسية لا تقتصر على مرحلة البلوغ ، وانما هى توجد فى مراحل الطفولة المبكرة ، وفى تلك الفترة المبكرة من العمر لم تكن تقتصر على الأعضاء التناسلية ، وانما كانت تشمل مناطق اخرى عديدة من الجسم ٠ من بينها المنطقة الشرجية ٠

(★) او المانع inhibition

« المترجم »

حتى يستطيع سيل الحدس أن يأخذ مجراه الخفى وفى نفس الوقت شخصية من القوة تتحكم فى السيل عندما يعترض طريق التمحيص المضنى المتقدم • وعن هذا الطريق فحسب يتم توازن القوى • وهو الأساس الذى لاغنى عنه لعمل مجد ، وجهد موثوق به •

ولذا فان فرويد لم يثمله ما اظهره احد اتباعه الأوائل من موهبة على الفهم والحدس اللماح لمنتجات اللاشعور • فقال فى حديث خاص عن ذلك الرجل الذى افتقد فيه الميل الى تمحيص تفسيراته ، انه يجب أن يعامل معاملة الخنازير التى تستخدم حاسة الشم القوية لديها فى العثور على الأشياء ، ولكن لا يسمح لها أن تمسها بخياشيمها •

وليس هذا مكان الكامل فى طبيعته • وسأحاول بدلا من ذلك أن اقدم نتيجة ملاحظاتى التى أتاحتها لى ظروف خاصة • وليست محاولاتى لتوضيح انطباعاتى عن فرويد بالجديدة ، فقد عاشت معى سنوات عديدة، منذ بداية اتصالى الشخصى به تقريبا • فقد كان طول الوقت أهم شخصية فى حياتى وكان شغلى الشاغل أن اشكل صورته فى ذهنى وأعيد تشكيلها حتى شعرت الى حد معقول بالرضى • ان صورتى التى كونتها لم يكن فى الامكان أن تكون ادنى واقرب الى الواقع • ومن الشطط الادعاء بأن انتباهى لم يفته شىء أو انه ليس ثمة مواضع معتمة لا يمكن اختراقها تحدث ادراكى ولكنى واثق على أية حا لمن انى وفقت فى العثور على بعض المكونات الأساسية لشخصيته وفى تشكيلها •

واذا سلمنا بالجانب الموضوعى(*) من البحث والاكتشاف العلميين ، فان مجالا متسعا للعناصر الذاتية يجب أن يحسب حسابه ، حتى فى مجال العلم « البحت » • فكيف يحدث أن يتقيد انتباه شخص بمشكلة مر بها الآخرون مر الكرام ؟ من الواضح أن هذا لم يحدث الا لأنه كان بطريقة غامضة مهيأ لهذا الاهتمام الخاص • وفى علم النفس يغدو مصدر هذا النوع من الاستعداد أسهل تبينا من أى مكان آخر • يجب أن يكون قد استثير واجتذب اللاشعور ، ذلك المصدر الكلى للارادة الذى منه تنبثق كافة طاقات العقل العظمى • ولقد خبرت كافة الأذهان هذه الاثارة من حين

(*) يقصد الصفات التى ينبغى للعالم أن يتحلى بها ، تلك التى نوه بها فرنسيس بيكون وغيره . أما الجانب الذاتى فيقصد به العوامل النفسية التى تصرف ذهن الباحث العلمى الى هذا المشكلة أو تلك .

« المترجم »

لأخر . ولكن أولئك الذين يحلقون فى عليائهم فوق عامة الناس يخبرونه بدرجة أعمق من الآخرين . فثمة نوع من القدر يعمـــــل فى بناء نظرياتنا وكذلك حياتنا التى بين جنبينا دون أن ندرى عنه شيئا .

ثمة كون فى الاعماق كامن
أعماق الخلق أجمعين
فما يبدو لامرىء أفضل الأشياء طرأ
الها كان أو الها من صنعه هو
سماء أو أرضا . انما كل شىء
يستمده من ذلك المعين وكذا
كل ما يثير فيه الخوف أو
يدفعه الى أن يسبغ عليه الحب

كان هذا المحـــور فى أفـــكار فرويد ، الذى ادت اليه كل الطــــرق والدروب ، هو المدرك الجدلى عن العقل أولا ، ثم عن الحياة ، وأخيرا عن الكون(*) (أفضل « ثنائية » على « جدل » الذى أصــــبح الملعب الخاص بمدرسة هيجل ماركس الفلسفية ، أما الاصطلاح الانشــــقاقى وان يكن قيد الاستعمال ، فيبدو تكنيكيا للغاية) . لقد رأى فرويد فى كل مـــكان حوله الصراع بين قوتين متعارضتين فاستخدمه مفتاحا لحل عدد كبير من المشــــاكل المحيرة للعقـــــل : « ظهر الخلاف الأول بين بروير وبينى حول مشكلة تتعلق بميكانيزم اكثر بساطة للهستيريا ، فقد آثر نظرية ـ شبه فسيولوجية .. وفهمت الانقســــام النفسى على أنه نتيجة عملية نبذ دعوتها حينذاك دفاعا ، ثم « كبتا » فيما بعد . » ان هذه الفقرة تصف بالطريقة الهادئة التى اعتاد فرويد ان يتحدث بها عن أعماله العظيمة ، لا شىء أقل من مولد التحليل النفسى . وبعد أن قدمت وجهة النظـــــر الثنائية الدينامية وطبقت رغم كل المصاعب ، لم تعد نظرية « الحــالات

(*) غريزة الحيــاة أو الايروس (وهو أوســـــع من التناســلية وأشــــمل) وغريزة الموت .

« المترجم »

التنويمية » ذات معنى · وأمكن ادراك نقطة التحول وانفتح الباب نحو اكتشاف اللاشعور وبداية علم نفس جديد · وسرعان ما استبدل الاصطلاح « دفاع » الذى استخدم عندما كان المدرك الثنائى لايزال غامضا أوليا ، الى الاصطلاح « كبت » باعتباره أكثر دلالة على صراع فعال بين قوتين متعارضتين ، وانتصرت هذه الكلمة وأصبحت فى الصـــف الأول من المصطلحات التحليلية ·

والتاريخ الداخلى لتطور نظرية التحليل النفسى (الذى لا علاقة له اطلاقا بالتاريخ الخارجى لحركة التحليل النفسى) هو قصة تعميق هذا المدرك الثنائى الدينامى وتوسيعه · واذا كان فرويد قد ابتدأ بالصراع بين ميول نفســـية معينة ، قد رأى أخيرا فى كل مظهر من مظاهر الحيـــاة العضوية نتيجة الصراع الذى لا يتوقف بين غريزة الحياة ، بانتصاراتها العارمة ، وغريزة الموت ، بقوتها الساكنة الخفية لكن لا يغلبها غالب ، أى الصراع بين ايروس وتيناتوس ·

والطريق المعقد المخادع أحيانا لهذا التطور هو نتيجة مباشرة للثنائية فى موقف فرويد العلمى ، فهو لم يقف من أمجاده أبدا موقفا جامدا ، إذ أن ظمأه الذى لا يروى له غليل من أجل كل استبصار جديد قد دفعه على الدوام نحو مشاكل جديدة واكتشافات جديدة · فكان الرائد فى كل مجال جديد ، نفذ اليه التحليل النفسى مستكشفا ، فى علم النفس وعلم النفس المرضـــى وكذلك كافة العلوم التطبيقية كالانثروبولوجى ، والبيولوجيا ، والاستطيقا وكان الأول دائما سباقا على كافة المحللين الآخرين · لكنه اعتصم طوال الوقت بالنقطة التى بدأ منها ، فما ضل النظر عنها أبدا وكان **يرتد اليها مخلصـــا من بعد الانتهاء من كل عمل جديد · فهو اذا جعل العالم قاطبة حلبة صراع بين ايروس وتناتوس ، فانه لم يحد أبدا عن وضعه الأول وثبت أقصى انتباهه على الصراعات النفسية داخل افراد · فقد** رأى فيها الشكل الخاص الجزئى الذى تتبدى فى ظله القاعدة العامة · أما كيفية تقابل هذين الخصمين الرئيسين وعجم قوتيهما فى حلبة النزال من العقل البشرى والخطط التى نمياها والخدع التى استخدماها فى ظل هذه الظروف الخاصـــة ، كل هذا ظل بالنسبة له المشـكلة الرئيســية من البداية حتى النهاية ·

وفى مجال الحديث عن ثنائية فرويد الأساسية ، تستحق على الأقل تلك المحاولة التى تستهدف وصم التحليل النفسى بأنه « الجنسية الكلية »

عارضا من الذكر وان كان عهدها قد ولى الآن ، اذا كان لهذا الاصطلاح اى معنى ، فهو الانكار التام للثنائية ، وهو الطغيان المطلق المستبد لسلطان الجنس مطلق الجماح لا يردعه رادع • ولكن يتضح من مفهوم الاصطلاح « كبت » أن فرويد قد أكد من مطلع الأمر على أن بعض القوى المعارضة لابد من وجودها ومنها تنبثق الميول الكابتة وقد اقتضى الأمر أن تتأخر دراسة المصادر الرئيسية للكبت خلال المرحلة الأولى للتحليل النفسى ، ولكن وجودها لم يغفل من الحسبان أبدا • ان مدركى « الجنسية الكلية » وعقدة أوديب (أى المانع ، والتابو ، والأنا الأعلى) لا يصدقان معا •

وبالرغم من ذلك ، فلا يزال قائما ذلك الاعتقاد القائل بأن فرويد قد نادى بالاباحية الجنسية المفلتة الزمام كعلاج أو كوقاء وحيد للعصاب • يبدو أن بعض الناس عاجزون اصـــلا عن فهم الفرق بين حفظ دوافعهم قيد الضبط ــ ولهذا السبب يدرسونها بدقة وعناية ــ وبين المحاولة العمياء لانكار وجودها أملا فى غير فائدة الهروب من غيرها بحكمة النعامة • وكانت طريقة فرويد فى المعيشة التى لم تبد اثرا « للجنسية الكلية » مثبطة لهذا السبب بالنسبة لصيادى الاحساس الذين املوا ان يجدوا فى حياته كل الشذوذ الذى كرهوا ان يروه فى عقولهم ذاتها •

وكانت احدى نتائج ثنائية فرويد ــ وكما سيحدث غالبا ــ **ان كان هذا** الجانب او ذاك يرى دون غيره وينال التقدير أو يرفض بحســـب الميل **الشخصى للناقد** فثمة فريق رأى فرويد كممثل للاتجاهات الثورية ــ أو الرجعية اذا ما نظر اليه من الجانب الآخر ــ فى القرن العشرين التى عبدت فيما بين الحربين القوى المبدعة الصـــوفية ، السابقة على العقل وازدرت الذهن ، والقاعدة ، والنظام كعلامات تدل على الدونية • وكان اللاشعور بالنسبة لهم « الفوضى ، ابنة الظلام » ، وهللوا للمبدأ الذى وضـــعه على عرش العالم • ولا مراء فى أن فرويد كان أول من أعطى العنصر الفوضوى فى نفوسنا « موضعا واسما » ، بعد أن تنبأ به قبله فى غموض كبير كثير من الفلاسفة ، والشعراء والأنبياء • ولقد اكتشف شيئا أو شيئين عن طربيعته ومصدره وأوضح بعض الطرق التى يؤثر بها **على العمليات النفسية • واقره مصدرا لكل فعل ابداعى ، ولكن يجب ان لا يغيب عن البال أن الفوضى ، متروكة لنفسها ، تظل دائما فوضى وان سلطة الأنا الضابطة ، المصعدة ، المهيمنة لها الحق فى أن تعتبر النتائج الأولى والعامل اللازم لارتقائنا النفسى • « ان تمو الأنا يتقدم ابتداء من الاعتراف بالغرائز الى السيطرة عليها ، من الاذعان لها الى كفها • والأنا**

الأعلى ، لكونه فى جزء منه التكوين العكسى ضد العمليات الغريزية فى الهو، **يســـاهم بدرجة كبيرة فى هذا الانجاز · والتحليل النفسى هو الأداة ـ المؤكدة للتغلب شيئا فشيئا على الهو » (الأنا والهو ، الفصل الخامس)***

ورأى الفريق الآخر فرويد على انه السليل المباشر للعصـــر العقلى ، ويرجع فى أصوله الى «انسكلوبيديى» القرن الثامن عشر أو ـ وهو الأسوأ ـ كممثل للقرن التاسع عشر الذى **جعل الاعتقاد فى التقدم أقرب مايكون الى** قلبه · ومنهج فرويد العلمى عقلى الى أقصى حد ، والا ما استحق أن يدعى منهجا علميا · فهو لا يدع للحدس مكانا أكثر من اللازم وليس للغيبيات فيه مكان على الاطلاق ، فالغيبيات يحاول أن يبحثها ويفسر مصدرها ، وهذا ما لا يتيسر فعله بالركوع أمامها وعبادة قواها الصوفية المتعالية · ولكنه اذ يستخدم شمعة الذهن ، **لأنها تمدنا بقبس الضـــوء الوحيد** ، لا ينسى أبدا الكون الفسيح الجنبات الذى تسوده الظلمات · لقد أصاخ السمع الى ما دعاه « نغمة عالم الغرائز الفسيح الجنبات واحتج ضد المحاولة المتجددة دوما لعدم سماع شىء غير بضعة نغمات قليلة اضافية » كما لم يشمله وهم تقدم الحضـــارة نحو هدف الرغادة الشـاملة · ففى كتابه « الحضارة ومتاعبهـــا » يبين بلا رحمة كيف أن كل شـىء يبدأ مساره على الدرب مســـتهدفا التقدم حتام عليه عاجلا أو آجلا أن يرتد دائرا على نفسه لينتهى أســـوأ نهاية · فالضـــغط الدائم على الدوافع الشبقية واماتة النزعات العدوانية ،وكلاهما ضرورى لبناء الحضـــارة وتوسيع مجالها يسببان معهما عناء متزايدا يؤدى الى أفولها النهائى · فالحضـــارة ، الماثلة فى نفوســـنا فى شـــكل الأنا الأعلى تهدد بالتهام أطفالها ·

ولهذا السبب كانت وعود الشيوعية تقع من نفسه موقع التشـــكك · فعندما أخبره بولشفى بارز أن لينين (وكان له صـديقا شخصيا) ، قد تنبأ بأن أوربا ستمر بفترة من الكرب أسوأ مما نجم فى روسيا عن الثورة والحرب الأهلية والمجاعة ، ولكن سيعقب ذلك البلاء الرخاء والنماء ، اجابه فرويد : « دعنا نقسم الأمر نصفين وسأقبل أنا النصف الأول » ·

وحتى فى التحليل النفسى ، وهو « الأداة التى يتعين عليهـــا قهر « الهو » وجـد فرويد الجانب المظلم المشـئوم غير معدوم : » لقد تبينت

(*) لا يمكن شرح هذا بعبارات قليلة ، لانه يستغرق التحليل النفسى برمته · وانما نجد بيتين لابن الرومى يؤديان الغرض فى ايجاز :

قد خلق الانسـان من طينة ... يصدق فى الثلب لها الثالب
لولا عـلاج النـاس اخلاقهم ... لفـاح منهم العمـا اللازب

علاوة على ذلك بالتجربة أن التحليل النفسى يبين عن أسوأ ما فى الطبيعة البشرية (تاريخ حركة التحليل النفسى) ٠

لذا فايقاء تعاليم فرويد حقها ، يقتضى استبقاء كلا الجانبين فى مرمى النظر فى وقت واحد ٠ اذ لا يمكن فهم أى فعل من أفعال احدى القوتين المتعارضتين دون الأخرى ٠ وحفظ التوازن بينهما عمل عسير ، فهو يعنى معرفة قوى الفوضى دون الفزع منها ، والاصغاء الى صوت العقل دون الركون كثيرا الى عمله الكلى ٠ لكن هذا هو السبيل الوحيد حتى نرث حكمة فرويد التى هى الثمن من اكتشافاته ٠

ما قد آل اليك من آبائك

يتعين عليك أن تؤيده وتنميه

حتى تصبح له مالكا

جوته ، فاوست ، الجزء الأول

وهنا يلزم التصريح بلا مواربة بأن الفائز بهذه الجائزة ليس أحد أتباع فرويد ، وليس محللا على الاطلاق ، وليس عالما بأى حال ، بل كاتبا الا وهو : توماس مان ٠

وثمة صفة أخرى من الصفات الجوهرية فى شخصية فرويد تنتصب أمام ذهنى فى وضوح جلى ، ولكن من العسير العثور على التسمية الصحيحة لها ٠ لقد كان الاستقلال الذهنى ، وهو احدى سمات فرويد البارزة ، نتيجة لها ، ولكنه ليس الصفة نفسها ، انها صفة ذات صلة بالعناد وليست بعيدة فى أصلها عن شكل معين من أشكال القساوة ٠ ولعل خير تعبير عنها فى ابسط كلمات هو : **التصميم على الا يخدع بأى ثمن ، لا من قبل الآخرين ولا من قبل نفسه** ٠ والصلابة الفولاذية لهذا التصميم ، وسلطانه المطلق والاستعداد لوضعه فى مقدمة أى الزام ، كل هذا يعتبر من الصفات الثانوية التى حاولت عن طريقها الاقتراب من هذه الصفة ٠

ان الملاحظة الوثيقة المستمرة لسمات شخصية من الشخصيات يقوم بها محلل تعود رؤية الأمور من وجهة نظر جنسية ستؤدى به الى فكرة

عن مصدرها · وهذا ما حدث معي وسأحاول أن اقدم نتيجة هذه الأفكار ، لانها تحمل معها بعض السمات التوضيحية ·

هذا الفرض عمل « شخصي » الى اقصى حد ، مستمد مما وجدته في كتبه وأخصها كتاب « تفسير الأحلام » الذى يقرب من أن يكون اعترافا بأمور شخصية للغاية بحيث يفوق في ذلك كتابه « تاريخ حياتي Selbstdarstellung (*) » · وقد أوصلت هذه الأجزاء بعضها ببعض ووازنتها بانطباعاتي الشخصية وببعض ملاحظات عابرة صدرت عنه · وما فكرت قط أن اسأله تاييدها ·

يتكون المضمون الشخصي لكتاب « تفسير الأحلام » من احلام فرويد الخاصة وقد كان فرويد متطرا الى استخدامها لأنه لم يكن من الميسور لديه العثور على احلام محللة لشخص غير مصاب بالعصاب ، ولكنه كان حريصا اشد الحرص بالنسبة الى هذه الافشاءات وقدمها في شكل شذور ، لاتعدو ما هو ضرورى لهدفه · ومهما يكن من شيء ، فان المحتوى الأساسي لأحلامه يبدو أنه جانب من نقاش مستمر أو بالأحرى دفاع عنيف من جانب واحد من والده (الذى مات في عام ١٨٨٦ أى في الوقت الذى شرع فيه فرويد في تاليف هذا الكتاب) · وهذه ، على فكرة ، هي الاستجابة النموذجية الكلية للابن ازاء موت والده · وقد استخدمت في هذا النقاش كل انواع الحجج واطلقت كافة ضروب العواطف : كالحب والثورة والعدوان والدفاع والانتصار وخفض الجناح · ومن الواضح بجلاء حب فرويد العميق الصافي وأسفه على فقدان والده · ولكن مكتشف عقدة أوديب لم يقمع الجانب الآخر الأقل دماثة « لقد بين والدى في المحاضرة التي القاها على قائلا : « لن يصل هذا الولد الى شيء يستحق الذكر » لاشك أن هذا كان قضاء رهيبا على طموحي ، لأن ثمة اشارات الى هذا المشهد تتوارد بثبات في احلامي وترتبط ارتباطا ثابتا بتعدادا اعمالي ونجاحاتي كأني أريد أن أقول : (لقد وصلت الى شيء يستحق الذكر) · وقد حدث هذا المشهد ــ الذى يمثل ولا شك سلسلة باكملها ــ عندما كان فرويد في السابعة أو الثامنة من عمره ·

(*) استخدم فرويد بعض احلامه الخاصة كامثلة توضيحية ، في كتابه « تفسير الاحلام » وما اعمق هذا الراى من ساكسي الذى يعتبر احلام المرء اشد دلالة على شخصيته من تاريخ حياته الخارجي الذى يزودنا بالاعراض والقشور دون اللباب والنواة اما الاحلام ، فهي الانصاب التي تدل على شخصية صاحبها · وما أجدر مؤرخي الشخصيات ان يأخذوا ذلك بعين الاعتبار ·

« المترجم »

كان والد فرويد من الوجهة العلمية مثل اى يهودى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، يكسب عيشه وعيش أسرته عن طريق التجارة ، ولكن يبدو أنه كان يفتقر الى المهـــارة المأثورة عن اليهودى فى الأمـــور العملية • فبقى على حاله من الفقر وعاش مع أســـرته فى حى بائس من أحياء المدينة (ليوبولد شتات) يشغل معظمه اليهود الذين ينتمون الى طبقة أقل من المتوسط • وكان على استعداد تام لان يمد يد العون لابنه الذى ابدى فى وقت مبكر مخايل ذكاء لا يتوافر فى كثيرين ، ولكن ظروفه ابقت اريحيته فى حدود ضيقة • وعندما عثر الطالب الشـــاب فى معمل « بريكه » على العلم الذى اراد أن يكرس له حياته ، اضطر الى اعتزاله ولاح أمامه الباب الى حياة علمية مغلقا ، رغم ما بشـــر به من وعود براقة • ولما كان والده أعجز من أن يمد له يد العون فقد اضـــطر الى تحصيل عيشه معجلا غير قادر على الانتظار الى أن يحصل على منصب ذى مرتب نادر • ويمكن العثور فى « تفسير الأحلام » على اشارات طفيفة تكشف عن خيبة أمل فرويد فى انه لم يرزق والدا أقوى بأســـا وأوفر نجاحا • وفى هذا الخصوص ثمة ذكرى أخرى ذات أهمية خاصة : (كنت أناهز من العمر العاشرة أو الثانية عشرة عندما بدأ والدى يسمح لى بمرافقته فى نزهاته ويدلى أمامى أثناء حديثنـــا برأيه فى أمور الدنيا • وقد اخبرنى فى احدى هذه المناسبات بقصد اطلاعى على ما ينعم به الزمن الذى ولد فيه من تقدم ، قائلا : حدث عندما كنت شابا أن خرجت للنزهة فى المدينة التى ولدت فيها ، وكنت قد أحسنت ارتداء ملابسى وأمسكت بيدى قبعة جديدة من الفراء ، فاعترض طريقى أحد السـادة وطوح ، بضربة منه ، بقبعتى فى الوحل وصـاح : « تنح عن الطريق أيها اليهودى فسألته » وماذا فعلت قفزت الى منتصـــف الطريق والتقطت قبعتى ، ولم أرد عليه بشىء » • فلم يقع ذلك من نفسى موقع العمل البطولى الذى ينتظر من الرجل العمـــلاق القوى الذى يقودنى من يدى • (الطبعـــة الكاملة ، نفس المرجع • جزء الثالث ، صفحة ١٩٧ الى ١٩٨) •

وقد لمس فرويد نفس الموضع الحساس بحرص أقل فى مقال وضعه عام ١٩٣٦ (« اضطراب فى الذاكرة فى أكروبوليس ») قائلا : « ان المضى قدما ، والرقى فى مدارج الحياة صعدا ـ كان حينذاك بمنأى عن كل امكان بالنسبة الى • وكان هذا نتيجة الضيق والعوز المارين بظروفنا خـــلال شبابى •• وكان لهذا علاقة بنقد الطفل لوالده وبالتقدير المتضائل الذى حل محل التقدير الزائد فى مرحلة الطفولة المبكرة » •

هذا يصف الملامح الرئيسية فى موقف فرويد المتعادل اثناء الطفولة ازاء ــ والده : « انك لست قويا بقدر ما اعتقدت · ولن تصدق تنبؤاتك وساتمكن من اثبات ذلك » · وقد اصبح حل هذا الصـــراع بين الموقف الناقد الناقم من جانب والحب والتوقير من جانب آخر حجر الزاوية فى شخصية فرويد · فالحب ــ خاصة اذا تكشف بالفقدان والحزن الشـــديد من اجله ــ يظل مثبتا على الشـــخص الأصـــلى · والأفراد المختارون بوصفهم (عائدين) ، أى الشخصيات البديلة فيما استقبل من حياة ، يمثلون فى الأغلب ابن الأخ زميل اللعب الأكبر سنا ، وليس الأب · وعندما تخلص المظهر السلبى من الكتبت من عقاله كان قد انفصل عن المضايقات الشخصية وتسامى الى نمط من الرفض الرحب الواعى ، الموجه ضد أية محاولة لحل مشكلة بالرجوع الى سلطة من السلطات · فى هذا الطريق غير المباشر اطلق سراح العدوان المكبوت ضد الأب واكسبه تصـــميما على أن لا يلعب مرة اخرى دور الصبى المؤتمن الذى يحقق مزاعمهم ، حدة وقساوة وعنادا · ولا يمكن ان ــ يسمى هذا حادثة عارضة بل يجب ان ينسب الى القدر ــ وهو كلمة اخرى للتعبير عن الطريقة التى تتكون بها حياة انسان ما عن طريق اللاشعور ــ رجوع فرويد مقودا الى نفس الوضع الذى كان عليه وهو طفل · فليس الأب ، بل كل السلطات المعاصرة قالت لسنين عديدة ، عندما شـــرع فى التحليل النفسى : « لن يصـــل هذا الصبى الى شىء يستحق الذكر » ، الى أن نجح فى النهاية فى أن يثبت لهم أنهم أنبياء كاذبون ·

لقد كان يرفض رفضا قاطعا ان يقبل اية قضية ارتكانا الى سلطة عليا ولم يكن يطيق صبرا على اولئك الذين يفعلون فعلا كهذا نتيجة للكسل الذهنى أو الجبن أو لأنهم ارادوا ان يقروا أمرا بأقل قدر من الجهد · وكان يرى فى الزعم القائل بأن كل برهان علمى يجب أن يكون منزها عن كل خطأ بحيث لا يأتيه الباطل من اى مكان ، رجما حصاريا لعدم الثقة ، والشك ونقصا فى الاعتماد على النفس · كما انه لم يكن يقف موقف المؤيد من الطرف الآخر المناقض ، أى اللاادرية العلمية التى تنعى كل جهد يبذل للوصول الى الحقيقة قائلة : « كل الحقائق لن تسلم من الشك فى صحتها ولذا فليست احداها خيرا من الأخرى » ·

كان يقينه القوى هو انه لا يجب ان تتدخل فى عمل العـــالم الحق وحماســه الرغبة فى الوصـــول الى الحقيقة المطلقة ولا التحقيق للقيمة النسبية لكل معرفة من الممكن ادراكها · فقد كان ما يهمه هو الوصول

اقرب ما يمكن الى الحقيقة ، والوقوف موقف المكافح المناهض لكل حكم متحيز ، وكذلك التقليد ، والسلطة أو رغبات المرء الخاصـــة أو نواحى ضعفه ، ولا اهمية أن تكون المحاولة قاصرة بالنسبة للطريق الطويل · فنتائج أى علم تظل عرضة للشك فى قليل أو كثير ،بحسب مرحلة تقدمه وفقا لمناهجه الخاصة · ان العالم ـ أى المفكر المستقل الرأى ـ يجب أن يكون واعيا بهـذه الحواجز فيقف ، بعد الفحص الدقيق المتكرر ، حاملا حكمه دون أن ينتظر تأييد البرهان الكامل المطلق · فقد كان من أقوال فرويد الأثيرة لديه : (يجب على المرء أن يتعلم التجمل بجانب من عدم اليقين)·

وقد ابرز هذا فى المقدمة من صفاته صفة هامة الا وهى : الكبرياء · وانى على يقين من انها كانت قوة هائلة فى حياة فرويد · لم تكن كبرياء المظاهر الخارجية ، كما انها لم تكن غطرسة بأى حال ، ولكنها كبرياء داخلية قائمة على الاستقلال الذهنى والشـجاعة التواقة الى اكتشاف مناطق جديدة وخطيرة · فاذا ما أضيفت هذه الكبرياء الى طاقته التى لا يحدها حد ، تطلبت سـيلا لا نهاية له من الحقائق الجديدة والنظريات وبحثا لا يكل عن الاكتشافات ·

وقد ارضت دراسـه الحقائق الخارجية نهمه فى مبدأ الأمر · فقد دفع مجرى الاهتمام العلمى فى منتصف القرن التاسع عشـر الطالب الشـاب صوب البحث الفسيولوجى والبيولوجى · فتركزت أبحاثه الأولى حول تركيب الجهاز العصبى ووظائفه · فاذا فرضنا أن ضرورة الحياة ، ونصيحة أستاذ مبجل (بريكه) لم تدفعانه الى التخلى عن هذا النوع من الدراسة ، فهل كان يظل رهين العمل المعملى طيلة حياته ؟ لا شـك انه كان يكون فسيولوجيا عظيما ـ فابحاثه الأولى تقدم على ذلك برهانا كافيا ولكن اكان يكون ذلك كل شىء ؟ يبدو الأقـرب الى الرجحان انه كان يصل الى نفس الهدف ، وان يكن بطريق مخالف ومن مدخل مغاير · فكتابه « ما وراء مبدأ اللذة » والأعمال التالية تدل على أن مادة افكاره قد صيغت من لحمة علم النفس وسدى البيولوجيا ·

وكان من المحتم أن تقوده هذه الكبرياء على شـجاعة فى الخلق واستقلال فى الرأى الى أعظم الأعمال بطولة الا وهى : التحرر من ربقة الموانع والأوهام التى تقيد أفراد النوع البشرى ومواجهة الحقائق التى حولت عنها الأجيال التى لا عداد لها اعينها مرعوبة · اذ ان هذه الكبرياء لابد أن تثور عاجلا أو آجلا ضد ادنى أثر لعدم النزاهة فى تفكيره محاولة

العثور على بواعثها الخبيثة بقصد القضاء عليها • كما تفسر هذه الكبرياء الرائعة ــ بالنسبة لي على الأقل ــ ما كان يبدو منه تناقضا صارخا : فقد كان عطوفا دون رخاوة ، اريحيا دون عاطفية •

ولم يكن ، بعد أن اشرع نفسه كرمح من النقي فولاذ ، ليتعاطف أبدا مع أولئك الذين يكشفون عن صغار ويبدون عن ضعف • حدث عندما طلبت منه أمرا في بداية تعارفنا ، أن قال : « انني أقدر فيك الصراحة والمباشرة في طلبك لما تريد » • فقد كان يزدرى أولئك الذين يعيشـــون عن طريق انصاف الحلول • كما لم يكن من الجـائز المفهوم في عرفـه التطلع الى الخلف بعد العزم والتصميم أو رفع اليد عن المحراث • كنت حاضرا معه عندما وصلتنا الأنباء بأن أحد الأصدقاء قد انتحر • فالفيته وكان هذه الحادثة لم تحرك فيه ناهزة • اذ لم يكن الانتحار في مفهومه غير هروب من واجب ، ومحاولة للانسحاب من خضم الأحداث • لقد تبينت منه دائما أن عاطفته الانسانية يكبح جماحها الاحتقار • كان دائما على استعداد لأن يهب وجدانه بلا تدبر حيثما يظن أنه يقع في موقعه الحق ، ولكنه لم يكن مستعدا قط لأن يهب صدقات العاطفة كاحسان من جانبه •

كان رانك سنين عديدة مساعد فرويد الأمين وتابعه ، وصديقه المكين وكان مرتبطا به بأوثق روابط التآزر وعرفان الجميل ، والمشـــاركة في التفكير • وقد قدر فرويد كثيرا طاقته التى لا تكل وذكاءه الحاد ، وبذل كل ما في وسعه ليجعل طريق رانك في الحياة سهلا ويهيىء له من حركة التحليل النفسي مركزا قياديا • ثم اتى الوقت الذى انفصل فيه رانك عن التحليل النفسى ، انفصالا لم يعلنه قرار محدد واضح ، بل التنازل عمليا عن كل آرائه السابقة ثم العودة اليها مرة أخرى نصف عودة • الا أنه بعد الكثير من الارتفاعات والانخفاضات حدث بينهما الانفصال النهائي وهنا لم يظهر فرويد ذلك الأسف الدال على الضعف ، الذى شـــعرته أنا عند فقدان صديقى العزيز • وقال بحزم : « عندما يغتفر امرؤ لآخـر كل شيء يكون الأمر قد انتهى معه » كان استقلال الرأى والشجاعة والكبرياء هى العلامات الدالة على شخصيته ومن خلال هذه القوى العظيمة الثلاث كون اجابته على السؤال : لماذا ؟ ذلك السؤال الذى انتصب أمام الذهن البشـــرى منذ الفجر الأول للذهن متحديا معذبا في اغلب الأحيـان يقول هاينى في قصيدته عن الشباب الذى يقذف الكون بهذا السؤال : « ان الغبى هو الذى ينتظر جوابا » لكن لا الدين ، ولا الفلســـفة ، ولا العلم ، ولا استخفاف هاينى (وهو استخفاف ليس أصيلاً بما فيه الكفاية) استطاع

التخلص من هذه الـ « لمـاذا » لماذا نحن هنا ولماذا يجب علينا أن نغادر ماهنا ؟ أو : ما الغرض من الحياة ؟ ، ولماذا نعجز عن العثور على السعادة ان كانت هى الغرض ؟ ولماذا لانزول عندما نقتنع أن السعادة لا وجود لها ، لا على الأرض ولا وراء القبر ؟ ·

ولم تتضمن اجابة فرويد القول بأن السعادة يمكن ادراكها بأية وسيلة من وسائل « التكتيك » الذى يستخدمه الانسان · فقد خبرها ووجدها كلها ناقصة · كما انه لم يعتقد أن معنى الحياة يكمن فى تكريسها لخدمة النوع البشرى عامة · فقد كتب قائلا : « ان حبى يعنى بالنسبة لى شيئا عظيم القيمة فلا يمكننى التفريط فيه دون تحمـل مسئولية ذلك» (الحضـارة ومتاعبها ، الفصل الخامس) كما أن اجابته لم يملها التفاؤل الوردى ، ذلك الذى يأمـل أن يزيل العلم والتقدم يوما كافة العقبـات التى تعترض الطريق الى سعادة الانسان · فهو قد عرف أن الدافع التدميرى قائم فى ثنايا كل شكل من اشكال الحضارة ، وأن كل مجهودات ايروس عاجزة عن التغلب على غريزة الموت ·

فما الذى دفعه الى أن يضنى نفسه حتى أخريات عمره ، خـــلال المرض والعذاب ، والاعياء ، وفى ظلال الموت وليس ثمة أمل يخامره فى جزاء يعود عليه من نفسه أو من الآخرين الذين احبهم ؟ ·

ذلك لأنه قد تناول الحياة كعبء ، كواجب القاه على كواهلنا الماضى الذى نحن ثمرته · وهذا الميراث موجود معنا دائما فى شكل الأنا الأعلى ، غير مرئى ، وغير محسوس ، ورغم ذلك فهو اكثر الحقائق منأى عن الشك اذ بمقتضاه تتشكل حياتنا ·

نحن الموتى ، نحن الموتى جيش لجب صخاب
يفوقكم عدا سواء كنتم على الأرض او متن العباب
و ما عثرنا عليه من قوانين ونظريات
مقيد به كل ما يحدث على الأرض من تغيرات

« كونراد فون ماير »(١)

---

(١) كونراد فون ماير ، شـاعر سـويسرى تمتـاز اشعاره بالعمق الصـوق ، والموسيقية الرقيقة ·

ونحن لا نستطيع أن نتخلى عن ميراثنا الذى نحمله بين جوانحنا ونرتد ناكصين الى الحيوانية · فمحاولة المساومة بقصد الاقلال من مطالب الأنا الأعلى دليل ضعة تأباها كبرياؤه ·

ويبدو كان فرويد قد سار بالحدس ودون وعى مترسما خطى أسلافه، تابعا تقليدا من أقدم تقاليد اليهود الا وهو : الاعتقاد بأن كافة اليهود الذين ولدوا والذين لم يولدوا كذلك ، قد وجدوا على جبل سيناء ، وهنـاك اخذوا على عاتقهم عبء الالتزام بالشرائع · فاذا قبلنا هذه الفكرة الدينية بعد تجريدها من ضيق الافق والقومية نجدها تلتقى مع اجابته على مشكلة الحيـاة ·

لقد تعهد اليهود النكتة عادة للتعبير عن اكثر أفكارهم جدية وأشد احزانهم مرارة وأعنف نقدهم لانفسهم · وقد اسيء فهم هذه العادة غالبا وآثارت على رؤوسهم الكثير من الوان النقد ، ولكنها أنتجت سلسلة من اعمق قصص مضحكة عرفها العالم · وما من انسان فهمهم أفضل منه ، كما يتضح من كتابه « النكتة وعلاقتها باللاشعور » ·

وانى فى هذا الصدد أحذو حذوه فلا استطيع قمع نكتة تدل بطريقتها الفكهة على نفس الشيء :

يحكى أن حوذيا كان يضرب جواده بالسوط بلا رحمة · ولما كـان الواقفون حوله من طبعهم القسوة فقد ترجوه أن يرحم الحيوان المسكين· ولكنه أجابهم ببرود « مادام قد أخذ على عاتقه أن يكون جوادا فيجب أن يعـدو » ·

وحيث اننا قد أخذنا على عاتقنا أن نكون بشرا ·

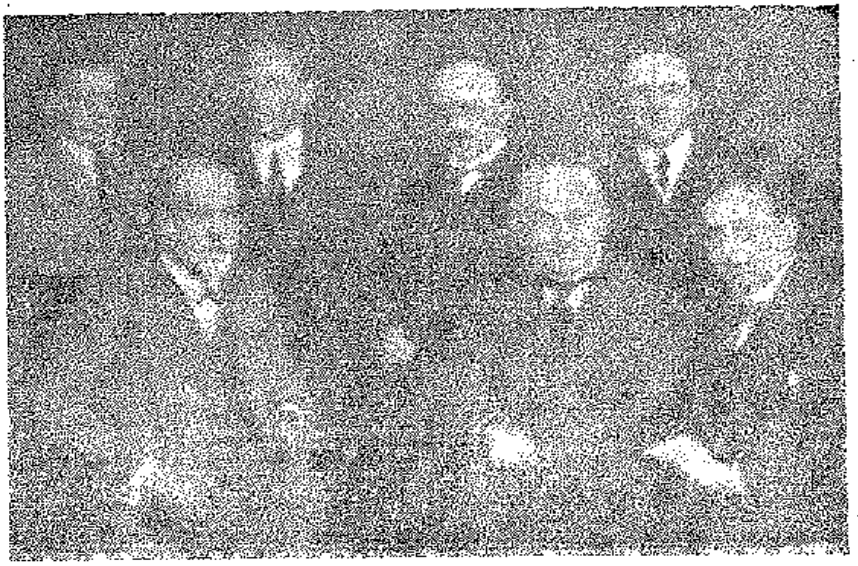

« الخـواتم السـبعة »

الجالسـون من اليمين : ساكس ، فونتزى ، فرويد . الواقفون من اليمين : جونز ، آينتجون ، أبراهام ، رانك . وقد اشتهرت هـذه الصـورة باسـم « السبع خواتم » لأن فرويد كان قـد أهـدى الى كل من تلاميذه الستة حجرا اثريا ليرصـع به خاتما كذلك الذى يحمله فرويد ، فيكون ذلك رمزا للرباط الوثيق الذى ينظمهم فى حلقة تعمل على دعم التحليل النفسى .

الفصل الثامن

الخواتم السبع

تشتمل مجموعات الفن الرومانى الاغريقى على بعض احجار شبه كريمة تبين عن الفن والمقدرة اللذين تفردت بهما تلك الأزمان · وكان فرويد يمتلك بضع عينات من هذا النوع ، ولما كان يجب أن يحيط نفسه بشذور من الجمال الأثرى القديم فقد اختص منها خاتما لا يخلعه أبدا · وكان الواضح انه صنع لهذا الغرض، أما فائدته كختم فترجع الى عهد روما القديمة ·· وكانت الشخصية المحفورة به عبارة عن صورة لرجل ملتح بلحية خفيفة ــ أعتقد أنه نسخة من جوبيتر ــ ولم يكن فرويد يمل فحص كل تفصيلة من تفاصيله بالنظر واللمس · ثم اهدى فيما بعد أحجارا مشابهة لبعض اتباعه كدليل على صداقة خاصة وتقدير زائد · وكنا فى تلك الأيام جماعة محدودة من الخلصاء ظفرت بهذا الامتياز ، تتكون من ابراهام وايتنجتن وفرنشيزى وجونز ، ورانك ، وانا · وقد عمل الاخـــلاص للتحليل النفسى على توثيق الروابط بيننا باعتباره الموضوع الرئيسى لاهتمامنا المشـــترك ، والتبادل الدائم المستمر للأفكار والآراء ، والتعاون فيما بيننا من أجل بناء حركة التحليل النفسى بناء منظما· وكان لاهداء الخواتم معنى رمزى معين، فقد ثبت فى اذهاننا أن علاقاتنا الشخصية المتبادلة لها نفس طابع القداسة · واشعرنا اننا ننتمى الى جماعة داخل الجماعة وان يكن بدون روابط رسمية أو محاولة لتصبح هذه الجماعة تنظيما مستقلا · وقد عبر فرويد عن تكوين هذه الجمـــاعة اثناء المؤتمر الذى عقد فى هاج ، بهولندا عام ١٩٢٠ ذلك المؤتمر الذى قدم اكثر من دليل على بداية عهد جديد بالنســـبة لحركة التحليل النفســـى وكان من الأمور ذات الأثر والدلالة ان كان المحللـــون النفسيون أول تنظيم علمى يهدف الىاستئناف التعاون الدولى بعد الحرب· وقد اتضح بعد زوال القيود التى فرضـــتها الحرب ان فترة الانزوار عن التحليل النفسى قد آلت الى غير رجعة · فرغم ان الغالبية الســاحقة من الأطباء والأطباء العقليين كانوا لايزالون على موقفهم من التردد أو العداء

بالنسبة الى التحليل النفسى ، فان عدداً لا بأس به من العلماء البارزين ونفرا من رجال الأدب المشـــهورين فى عالم ما بعد الحرب الجديد أخذوا يتحدثون عن التحليل النفسى بتوقير واعجاب أضحى من السخف معهما اتباع نفس الطريقة السابقة المفعمة سخرية وتحقيرا • وتأســـست معاهد التحليل النفسى فى برلين ، وفيينا ولندن وأخذت تتقدم فى خطى متوازية • وعلمنا لأول مرة بالاهتمام المتزايد بالتحليل فى امريكا ولكن فرويد ، وقد رزق موهبة على الرؤية أبعد مدى وعقلا وأكثر تشككا فيما يتعلق بعقلية الجماهير تبين أخطارا جديدة تلوح فى الأفق • ذلك ان عالم ما بعد الحرب بدا شغوفا بكل ما كان عالم ما قبل الحرب يقف منه روقف المعارضة •• فارهاصـــات الثورة الخلقية كانت تتطلب ايديولوجية ، أى مذهبا عقليـا مغايرا على الأقل ، وبدا أن التحليل النفسى مهيأ للقيام بهذا الدور معشىء من التحوير فى هذا الجانب أو ذاك • ولكن هذا الحماس الهادف الى وضع فرويد موضع الرائد لنظام جديد لم يقع منه موقع الرضى • فرفض أن يجعل من التحليل النفسى مطية لأى غرض آخر عدا فهم العقل البشـرى خير فهم متيسر ودراسته أفضل دراسة ممكنة • ذلك لأنه لم يغب عن فطنته أن أولئك الذين ينشدون من الآن « لحن هوسانا » مسبحين سيكونون أول من يصرخون « أصلبوه » حالما تتغير اتجاهات الظروف •

كان عقد جماعتنا قد انفرط بسبب الحرب أولا ، وما فرضته التغيرات الجديدة للحدود من حواجز وانقطاع ســـبل الاتصال حتى أنه لم يتبق مع فرويد فى فيينا سوى خلال السنتين الأخيرتين من الحرب ، فقد كان رانك فى جراكو يقوم بخدمة حربية من نوع ما ، وكان فرنشيزى وايتجتن طبيبين بالجيش المجرى النمســـوى • وقبيل المؤتمر الذى عقد فى فيينا (خريف ١٩١٨) وفى الصباح قبل بدء (العمليات الحربية) سعلت قدرا كبيرا من الدم نتيجة للمجاعة التى اســـتشرت خلال سنى الحرب الأخـيرة وأخذت الفرص التى أتيحت للاتصال الشخصى بفرويد تشرف على نهايتها •• وقد أتيح لى الانفراد به ليالى عديدة ، ولكنى لم أحسن الاستفادة مما أتيح لى • وعذرى انى كنت مهزولا ، مصدورا ، جائعا • ولم يكن من اليسور فى ظل هذه الظروف أن اركز ذهنى فى شىء وأن اتتبع أفكار فرويد أو اشارك فيها شىء ذى أصالة • كنا جالسين بحجرة مكتبه المحرومة من وسائل التدفئة لابسين معاطفنا وقفازاتنا ، حاملين قبعاتنا على رؤوسنا ، نعانى خواء بطوننا ووخزات البرد ــ وعلى هذا المنوال كانت حالنا تقريبا خلال السنتين ١٩١٧ ــ ١٩١٨ • ولا عجب انى لم أستطع أن أقف مع قوة فرويد التى لم يعتورها كلال على قدم المساواة • وفى يوم توقيع الهدنة سافرت

الى سويسرا لأعالج ما ألم بصدرى من داء وقضيت فى دفوس ، وباڤل ، وزيوريخ زهاء سنتين · هناك زارنى رانك فى ربيع عام ١٩١٩ وسرعان ما انضم الينا ارنســـت جونز الذى قطعت الحرب أخبـــاره عنا تماما · واستأنفت اتصالى به دون صعوبة وكنت قد نزلت عليه ضيفا منذ خمس سنوات أى فى مايو ١٩١٤ ·

وخلال الأشهر الباقية على عقد مؤتمر ١٩٢٠ رتبت شـــئونى بحيث أغادر سويسرا عائدا الى برلين وليس الى فيينا ، ففى برلين أسس ابراهام واينجتن بالاشتراك مع زيميل معهدا وعيادة للتحليل النفسى وعملت هناك كمدرس ومحلل تدريبى زهاء اثنى عشر عاما ·

وعندما ارتد بذاكرتى الى الخلف متمليا مجرى حياتى أتذكر قصة من تلك القصص التى تتضمن مرارة الحياة فى ثوب من الفكاهة كنت قد سمعتها من فرويد منذ أمد بعيد قبل أن تصبح ذات دلالة تصدق على حالى ·

وها هى ذى القصة : يحكى أن شابا بائسا عقد أواصر الصداقة برجل ثرى من ذوى النفوذ · فقدم الرجل الطيب للصبى الذى لاذ بحماه خطاب توصية لاحدى الجمعيات الدينية القائمة بمدينة صغيرة ــ وليكن اســـمها زريزوف ــ حيث شغرت بها احدى الوظائف الكتابية · وكانت الوظيفة ذات مرتب ضئيل ولكنه يقى الشاب المسكين غائلة الموت جوعا ولذا كان الشاب شغوفا للغاية بالحصول على هذا المنصب · وبدأ كل شىء وكأنه يسير فى مجراه السوى حتى أسفرت الحوادث عن أن الموظف الجديد لا يعرف القراءة ولا الكتابة · ولما كانت الوظيفة تقتضى بعض العمل الكتابى والمراسلات الرسمية · فقد فصلوه من وظيفته · وعاد الفتى الى مسقط رأسه كسير الفؤاد محزونا وعندما تبين مولاه مدى ألمه ، أعاره قدرا ضئيلا من النقود كى يتمكن من البدء فى كسب عيشه كبائع جوال · وهنا أظهر الفتى حسا عمليا وتمكن من جمع قدر من المال ثم حدث أن اكتشفت ينابيع لزيت البترول فى بعض أجزاء من البلد الذى يمارس فيه عمله فساهم الفتى فى لعبة الزيت هذه وغدا البائع الجوال فى مدى سنين قليلة صاحب مصنع كبير لزيت البترول · ولذا أقام له مدير المصرف الذى أشرف على الصفقة وأمدها بأمواله احتفالا فخما تنتقل فى خلاله رياسة المصرف الى صاحبنا· وقد طلب منه أن يقرأ الاتفاق ويوقعه · وعندما سمع صاحبنا بذلك، انتحى بالمدير جانبا،وسأله أن يتغاضى عن هذا الأمر·وعندما ألح عليه المدير السابق فى معرفة السبب صرح له أخيرا بأنه لايعرف القراءة ولا الكتابة ·فصاح المدير

السابق متعجباً : «ماذا ؟ رجل فى مثل ثرائك ولاحظ له من الثقافة ! ماذا كان يكون مجرى حياتك لو لم يشبه هذا النقص ؟ » فأجابه صاحبنا قائلا : « أستطيع أن أخبرك عن ذلك ، فلا شك أنى كنت أكون الآن موظفا وضيع الشأن فى زرزوف » ٠

وقد حكى حاله حالى بلا زيادة ولا نقصان ٠ فلو اتبعت مجرى حياتى الذى اختطوه لى مقدما وارتضيت أن أحذو حذو والدى وأعمامى ، وادرس القانون بجد وإخلاص لكان نصيبى الموت جوعا أو الاصابة بمرض السل أو السجن فى أحد معسكرات الاعتقال ٠

وفى « هاج » فى سبتمبر ١٩٢٠ استدعى فرويد ستة منا فى وقت واحد واطلعنا على خطة كان قد أعدها من قبل بالتفصيل ٠ وكان مؤدها أنه من الآن فصاعدا يجب أن نكون جماعة تعمل فى تناسق، ولكن خفية من الناس٠ فمستقبل التحليل النفسى يجب أن لا يترك للظروف أو العمل الفردى أو الطموح الشخصى ٠ وكان واجبنا أن نقود خطى التحليل النفسى المتسارعة دائما بأن نعمل متآزرين ونتصرف بحسب خطط موضوعة ٠ كما كلفنا بأن نستخدم فى سبيل تحقيق هذا الهدف نفوذنا الشخصى وتكاتفنا ، ولكن غير معتمدين اطلاقا على المنصب واللقب ٠ وكان علينا أن نحفظ حقيقة تنظيمنا طى الكتمان حتى نتمكن من القيام بعملنا ٠ وكان يجب أن نعتبر دائرتنا مغلقة الى الابد ، فلا يباح لأى أعضاء جدد التعاون معنا ٠

لم يستعمل فرويد هذه الكلمات بنصها ولكن الغرض الذى عقد من أجله هذا الاجتماع كان قد طرح للمناقشة مرارا فيما بيننا حتى أنه لم يحتج الى مزيد من الايضاح ٠ ولكنا لم نكن ندرى تماما الوسيلة التى تمكن من تحقيق هذا الهدف ولذا كان فرويد أكثر وضوحا فى هذا الصدد ٠

لما كنا نعيش فى أربعة أماكن مختلفة (فرويد ورانك فى فيينا ، وابراهام وايتجتن وأنا فى برلين ، وفرنشيزى فى بودابست ، وجونز فى لندن) ، كان يتعين علينا أن نتبادل المراسلات فى فترات معينة ، لكن متقاربة ، وأن يتم ارسال الخطابات بطريقة « دائرية » حتى تتاح الفرصة لكل عضـــو من أعضاء الجماعة أن يكتب وأن يقرأ ما كتبه الآخرون ، وكان يجب أن تتضمن هذه الخطابات كل شىء يتعلق بموضوع اهتمامنا المشترك ٠ مثل كتابة التقارير عما يحدث فى المنظمات المحلية ومختلف الحوادث التى تتعلق بنمو التحليل النفسى ، مثل دراسة المشاكل وكتابة التعليقات ، واسداء النصح ، ومناقشة المسائل التى تتطلب حلولا ، وتنظيم الاجتماعات ومناقشة الأفكار

العلمية الجديدة ، واخيرا الأمور الشخصية ، والخطط والمشـــروعات والمطالب ، والمتاعب وكان يجب أن نلتقى فى اجتماعات نظل بعدها سويا على التقاء • فقد كان المفروض أن تنظم اجتماعات أخرى تشمل كافة أفراد الجماعة •

ولقد وقعت هذه الخطة منا جميعا موقع القبول فقد خلعت على هذا التنظيم السليم العملى طابع جمعية من تلك الجمعيات التى يكونها التلاميذ سرا ، وأسبغت عليه اغراء • وقد قبلناها طوعا ونجحت الخطة زهاء خمس سنوات ، وقد استفادت حركة التحليل النفسى من تنظيمنا هذا فقد كانت السنوات من ١٩٢٠ الى ١٩٢٥ فى تاريخه فترة ســـلام شامل وتقدم • ثم أخذت أعراض التصدع فى الظهور ، تلك الأعراض الناجمة عن الانحرافات الداخلية • فقد ادهشنا رانك عندما نشر كتابه الذى يعزى فيه كل الاعراض العصابية الى صدمة الولادة وقد نقد الآخرون ، عدا فرنشيزى ، الكتاب ومنهجه ونظرياته نقدا مرا ، وقد حاول فرويد التوسط فى أول الأمر ولكن باءت محاولته بالاخفاق • فقد أخذت هوة الخلاف بين آراء رانك الجديدة ونظريات التحليل النفسى تزداد اتســاعا • وكان فرويد فى ذلك الحين قد أجريت له العملية الجراحية الأولى ولم يكن فى المتوقع أن يعيش أكثر من سنة • ثم حدث أن غير رانك مستقره من فيينا الى باريس وأشبه بالرزيئة النكباء كان اختزام الموت لابراهام ، فقد قضى على أفضل حلقة فى سلسلتنا وقد حاول من تبقى من الجماعة المحـافظة لفترة من الوقت على تبـادل المراسلات ولكن ذهبت المحاولة ادراج الرياح ، فقد نضب معين الحيوية من تحالفنا •

وقد ذهبنا فى رحلة الى هارتز بعد انعقاد مؤتمر برلين عام ١٩٢٢ وهو الأقليم الجبلى من جنوب غرب ألمانيا • وقبل أن نشـرع فى رحلتنا القصيرة المدى سيرا على الأقدام ، مكثنا يوما أو يومين فى هيلدا شـــايم وكانت هذه المدينة الصغيرة ذات كنيستين شهيرتين ، أحداهما على الطراز القوطى والأخرى على الطراز الرومانسكى وتحوى عددا من المنازل الثرية بزخارفها التى ترجع الى عهد النهضة فى ألمانيا ومتحفا صغيرا فريدا فى **نوعه آثار اعجـــاب فرويد • وكان أحـد مواطنى هيلد شـــايم ، ويدعى** بليزايوس ، قد جمع هذه التحف من مصر ، وأحضرها معه الى مســـقط رأسه • كما اشتملت حجرتا المتحف على بعض القطع النادرة التى لا يتيسر مشاهدتها فى أى مكان آخر •

وقد ابدى فرويد اهتماما زائدا بمحتويات المتحف • وقد نسيت الآن التفاصيل التكنيكية لمناقشته مع صاحب المتحف ، ولكنى اذكر آن الشاب المهتم بالدراسات المصرية القديمة عرض بعض المظاهر الخاصـــة بطريقة الدفن لدى المصريين القدماء التى تعتبر من اقدم ـ الطرق واكثرها بدائية • فكانت الجثث توضع حسب ما اخبرنا ، فى وضع يشبه تماما وضع الجنين فى الرحم ، ولكن كان من رأيه أنه قد يكون هذا محض تشابه حيث ان المصـــريين القدماء لم تكن لديهم المعرفة العلمية الكافية التى تمكنهم من التعرف على الوضــــع قبل الولادة • ولكن فرويد ذكره بأن بعض القبائل الأكثر بدائية ربما تكون قد حصلت على هذه المعلومات من الحيوانات ، ولم يتوان المصـــريون الذين كانوا مولعين بالمعـــرفة منذ فجر تاريخهم عن استخدام هذا الاكتشاف • وقد تناول فرويد تناولا خفيفا الجانب التحليلى النفسى : المدلول الرمزى للأرض والأم ، للموت والولادة من جديد •

وحدثت فى هذه الرحلة حادثة بسيطة ولكنها كانت بالنسبة لى عظيمة الأهمية • فقد أخبرت فرويد بعمق الانطباع الذى تركه فى نفسى المضمون الداخلى لكنيســة سان مارتن ذات الطراز الرومانســكى ، عمقا يفوق أى كاتدرائية غوطية • فقال فى الحال : « يجب عليك اذن أن تذهب الى رافينا » ولقد عملت بنصيحته فى أقرب فرصة وكان هذا سببا فى اكتشافى نوعا من الجمال لم تكن لدى ادنى فكرة عنه واتجاها جديدا فى بحثى للمشـــــاكل الجمالية •

ومن هيلد شاليم استأنفنا المسير الى هارتز وقضينا وقتا رائعا متمتعين بأشعة الشمس والهواء العليل فى تلك الأيام الخريفية ، متنزهين خلال غابات الصنوبر عبر النهيرات والمرتفعات متسلقين قمم البروكين التى تشتهر بأن الساحرات فى الأوقات السعيدة الخالية كن يمارسن عليها رقصهن السحرى فى الليلة الاولى من مايو •

كان كل هذا أعنى التفرج على المشاهد الطبيعية الساحرة ، وتسلق الجبال والأكل بشهية عملا جانبيا سارا بالنسبة لعملنا الرئيسى الذى يعنى مناقشة النظريات الجديدة أو الخبرات التى ادخرها بعض الأعضاء خصيصا لهذه المناسبة • فكنا نتبادل الآراء والانتقادات ، وكان كل شـــىء مثـيرا للاهتمام ، والمناقشة ممتعة فى أغلب الأحيان • وكان فرويد أول من ضرب المثل ، فقد افتتح المناقشة بإخبارنا عن أفكاره الجديدة ذات الأصالة عن عن طبيعة الهلوسات البارونية • وعندما شعر أنه محاط بإتباعه الخلصاء

تحدث بانطلاق آمنا من أن يساء فهمه ، وبطريقته الطبيعية مستخدما الكلمات الدقيقة النفادة ، فكانت كل جملة ذات مغزى أصيل ومرصعة ترصيعا ثريا بملحوظات تنم عن روح الفكاهة والمفارقة ٠

ولم يكن فرويد يقرأ من ورقة قط ٠ وكان يصر على ذلك اصرارا ، غير مقيم حسابا لما يكون عليه عدد الجمهور من كثرة أو قلة ، وما اذا كانت المناسبة ذات طابع رسمي أو غير رسمي ٠ فكان اثناء الاجتماعات التى عقدت فى فيينا يوقف كل محاضر يستخدم مخطوطا يقرأ منه الا فى حالة الرجوع اليه بين الحين والحين ليحصل على لمحة سريعة ينعش بها ذاكرته ٠ وكثيرا ما قال ان الرجل الذى يقرأ من ورقة كلمة كلمة لهو أشبه بمضيف يدعو ضيفه للقيام بنزهة بالسيارة ثم يدخل السيارة ويترك الضيف يجرى خلفه ٠ وانى أستطيع اثبات هذه الحقيقة بفضل عديد الخبرات والملاحظات ٠ فالتعبير عن الأفكار بالكلام عملية مستمرة الخلق فى كل حين لأنها نتيجة لبحث المتحدث باستمرار عن تعبيرات تناسب الموقف خيرا من غيرها ٠٠ ولكن هذه العملية تنعدم عندما يتم الحديث بطريقة آلية ٠ فالمعاونة فى هذا الفعل الابداعي تجذب انتباه كل فرد من أفراد الجمهور لأنه يضطر الى تقمص شخصية المتكلم ، والمشاركة فى متاعبه ومشاكله ــ أىقن يعوم معه منتصرا متغلبا على التيار ٠ ولكن الذى يقرأ مواجها مخطوطه لا جمهوره يبعد عنه مئات الأميال وسرعان ما يستسلم ، لأحلام يقظتهم أولئك الذين لا يهمهم الأمر عمليا ٠ « وعندما يقف الطاحون ، يستيقظ الطحان » ٠ ويصفق الجمهور لما ظن أنه استمع اليه ٠

وكان الحديث فى دائرتنا الصغيرة ينساب سلسا لما كان لدينا دائما من مادة تزيد عما تستطيع هذه الأيام القلائل استيعابه ٠ واتماما للمتعة قمنا بزيارة جوسلر ، وهى قطعة من المانيا فى العصور الوسطى ، وكالبرشتات ، الشهيرة بكاتدرائيتها وقهوتها الرديئة ، وقد فاقت الأخيرة كل ما كنا نتوقع ، ثم ودع كل منا الآخر ، عائدين الى بيوتنا ٠

وشارفت على النهاية قيادة فرويد الشخصية للجماعة فى فيينا ، وحضوره المؤتمرات السنوية للجمعية الدولية للتحليل النفسى ، بالاضافة الى رحلاتنا ومناقشاتنا ٠ وقد جاء ذلك نتيجة لظهور مرضه المشئوم وتفاقمه وهو نمو قرحى (كارسنوماً) داخل الفم ٠ وفى ظل هذا الخطر الداهم المخيم علينا ، خيم الظلام على كل ضروب نشاطنا المشترك ، وعانت كل علاقاتنا المتبادلة وقيمها تغييرا ٠ فقد بدأ من غير المعقول التحدث

بسهولة ويسر مع رجل يتطلع فى عينى الموت ، ولكن قوة ذهنه جعلت ذلك ممكنا • ورغم انه لم يخامره ادنى وهم فى النهاية الزاحفة ، فانه لم يتاثر اطلاقا بمدلولها • فظلت طاقته الذهنية واهتمامه العميق فى عمله ، وشغفه اللحوح بكل معرفة جديدة لا يعتكرها معكر • فكانت الساعات التى اقضيها معه مستمعا او متحدثا ، هى المناسبات التى اكون فى خلالها اكثر استعدادا لنسيان مصيره • وظل محافظا على موقفه الشجاع ما ينيف عن عشـــر سنوات من العذاب المبرح ، دون أن يعتريه وهن حتى اللحظة الأخيرة •

لقد ظلت حيويته العارمة ، حتى ظهور الداء الوبيل ، لا يهون من مضائها التقدم فى العمر ، رغم مشارفته السبعين من سنيه • وكان هناك ما يبرر الأمل فى بلوغه شيخوخة ناضجة على سلامة جســم وصـــفاء ذهن ، فقد وضعته أمه ــ وهو بكريها ــ قبل ان تناهز العشرين ، وظلت على قيد الحياة لتشهد عيد ميلاده السبعينى • وبلغت من العمر الثالثة والتسعين وظلت حتى العام الأخير قبيل وفاتها تفيض صحة ومرحا ونشاطا • وكانت فى عيد ميلادها التسعينى موضع احتفاء عظيم فى ايشل ، وهو مصيف بجبال الألب النمساوية اعتادت التردد عليه بانتظام زهاء ثلاثين عاما • وعزفت لها فرقة المدينة التحايا ، واكرم وفادتها العمدة والأعيان وحضر زائرون لا عداد لهم مقدمين التهنئات حاملين الهدايا • وعندما ارخى الليل سدوله قالت لها حفيدتها : « لا شك انك متعبة للغاية يا جدتى » فسألتها السيدة العجوز مندهشة : « لماذا ؟ اننى لم اقم بأى عمل طول اليوم » •

وقد ذهب فرويد فى المساء السابق على عيد ميلاده السبعينى لزيارتها وتقبل تهنئاتها ، كى لا تضطر الى قطع الطريق الطويل من الضاحية التى تقطنها الى منزله • ولكن فى صباح اليوم التالى كانت أمه أول من قرع جرس الباب ، من الزائرين •

وغالبا ما حملتنا حيويتها الدافقة ــ وكانت حينذاك فى التسعين ــ على الابتسام ، ولكنها اصبحت ابتســـامة مفعمة بالمرارة ، عندما عرفنا ان شيخوخة ابنها لن تماثل شيخوختها ، فقد كان ظل دائه الوبيل يخيم مقبضا على رؤوسنا ، حتى عندما بدا أن انتشاره قد أوقف لفترة من الوقت • وبالنسبة لاحتفالات أعياد الميلاد فانى أعرف مدى ضآلة التقدير الذى كان فرويد يكنه لما دعاه كارل ستبلر ــ « عاطفيات النتجة » ــ أى الرغبات الفجائية التى تنتج عن تاريخ معين مدون فى نتيجة بالنسبة لهذا اليوم •• فقد حدث ذات مرة ، فى سنوات أنضر شبابا ، ان كان على أن اقوم برحلة

اثناء حلول يوم عيد ميلاده (١٦ مايو) فطلب منى مشددا ان لا ارسل اليه اية تهنئات • ولكنى رغم هذا ابرقت اليه قائلا : (التهنئات الممنوعة اخلصها) ــ وقد اغتفر الأمر بابتسامة •

وفى هذه المناسبة ، اى عيد ميلاد فرويد السبعينى ، التقت البقية الباقية من جماعة « الخواتم السبعة » ايتنجتن ، وفرنشيزى ، وجونز ، وانا ــ وذهبنا جماعةلنراه ، ولنحيطهعلما ببعض الأمور الهامة لا لتهنئته فحسب ، وعقد فى المساء اجتماع خاص لجماعة فيينا للتحليل النفسى • ولاشك انه كان اجتماعا من الاجتماعات الآخارى التى حضرها فرويد • وقد افتتح حديثه بالكلمات الآتية : « كثيرون من بينكم قد ارسلوا الى هدايا عيد الميلاد وانتهز هذه المناسبة لازجى لهم الشكر • وآثر آخرون ان لا يرسلوا هدايا ، وانى اقدر شعورهم واشكرهم بالمثل «ولازلت اذكر هذه الكلمات جيدا لأنى كنت من الفريق الثانى •

وقبل عيد ميلاده السبعينى بوقت قصير اتيحت لى فرصة لأرى فى لمحة كخطف البرق عمق شعور فرويد يتكشف عاريا أمام عينى • واســـتطعت عندئذ أن أدرك بطريقة افضل سبب كرهه للتصنع • فقد حدث انى قدمت فيينا بعد موت ابراهام ببضعة شهور وفى احدى زياراتى لبيت فرويد كان هناك عدد من الناس فانتحينا هو وانا ركنا من الحجرة نتناقش آمور التحليل النفسى فى برلين • وفى اثناء حديثنا ، سالنى فرويد برقة «وكيف حال ابراهام؟» وعندما تبين دهشتى تطلع الى وثمة تعبير فى عينيه جعل قلبى يرتجف وتمتم قائلا : (لازلت عاجزا باستمرار عن تصديق ذلك) ولم يحضر معه عيد ميلاده الخامس والسبعين التهنئات فحسب بل الاحتفالات والتهليلات كذلك ولكن كان الأثر الذى تركه بنفسى مقبضا • فكلما ازداد اسم فرويد تبجيلا وكثر عـــدد اولئك الذين يريدون عن احـــترامهم واعجابهم تعبيرا عظمت اتساعا الهوة بين هذه الامجاد الصاخبة وبين الرجل العجوز المعذب المعتزل الذى يواصل عمله رهين محبسه على عزم لا ينثنى ، بينما يرى الموت يزحف منه مقتربا لا يثنى وقد كان من المعروف أن فرويد ذا كلف بزهور الاوركيد ، فاهديت اليه زهور الاوركيد من كل الالوان والانواع ملء عربات وازدحمت الحديقة المتواضعة حيث نجحت فراو بروفســور فرويد على مدى عديد السنين وبجهد لا يكل فى تنمية بضعة زهور منتقاة وزحفت بعشودها الى حجرة الاستقبال وحجرة الطعام • واضحى جمال زهرات متوحدات لا معنى له مثله مثل اقحوانه فى مرج من مروج الربيع • ولا اظن أن فرويد قد اعارها التفاتا كبيرا ، فبعد يومين او ثلاثة وجدت فى صندوق القمامة •• زمرا ملائما لشهرة تاتى متأخرة على تبذير وعدم تدبير •

واصبح العالم « واعيا بفرويد » فاى شيء قرأت ، سواء كان مجلدا فلسفيا او مجلسةوجدت ذكرا لاسمه، وسمعته يتردد فى الاجتماعاتالعلمية وعلى منصة الفودفيل • وسعى خيرة معاصريه واشهرهم الى خطب وده مثل اينشتين ، وتوماس مان ، ورومان رولان • ووجد فى لواندريا سالومى صديق فريدرش نيتشه ورانير ماريا ريلكه اتباعا ، ومارى بونابرت فيما بعد ، اميرة اليونان ، التى جمعت بين الحدس النسوى وموهبة التفكير الصافى المستقل • ورغم كل هذا • كانت هذه السنوات سنوات وحدة وانعزال متزايد •

ولم تفد العملية الأولى الخارجية التى اجراها تلميذ فرويد السابق البروفسور هاجيك شيئا فى الحد من انتشار المرض الخبيث • فاستدعى خيرة الخبراء وقرروا القيام بعملية جذرية ولزم ازالة جانب من عظمة الفك • ولم يعد الكلام والطعام ممكنين الا عن طريق بديل صناعى • واخذ البروفسور بيشلر ، الأخصائى الشهير فى فيينا على عاتقه مسئولية العلاج وأطال حياة فرويد بضعة سنوات • ولست أعرف مهارته الفنية الا من طريق شهرته ، ولكنى سمعت فرويد وعائلته يمتدحون مقدرته ورقته واخلاصه • ولما كان سطح الجرح الناجم عن العملية فى الجزء اللحمى من الفم يتغير بثبات ، كان من الضرورى أن يتغير الجزء المصطنع ويعاد تشكيله باستمرار ، ورغم أن كل هذا كان يسبب ألما مستمرا نتيجة لما يسببه من ضغط فان فرويد تحمله بشجاعة دون شكوى • ولكنه كان حساسا ازاء ما نجم عن ذلك من شوه فى حديثه جعله فى بعض الأحيان غير مفهوم • وتزايدت عادته فى العيش رهين العزلة ورغبته فى أن لا يرى أحدا عدا أصدقائه أو أولئك الذين يهمونه بوجه خاص علاوة على أفراد عائلته ومرضاه • كما كان يكره أن يكون موضع ملاحظة اثناء تناول طعامه فندرت الدعوات الى مائدته حيث كنت زائرا منتظما لسنين عديدة وأصبحت لا تقدم الا فى المناسبات •

ورغم انه احتفظ اسميا برياسته لجماعة فيينا الا انه كان دائم التغيب عن الاجتماعات • لكن كانت هناك اجتماعات تعقد بمنزل فرويد كل اربع أسابيع أو ست كى يتعرف على رغبات الأعضاء الذين لم يريدوا أن يفقدوا الاتصال به كلية ، ويستدعى اليها جانبا من الأعضاء على حدة • وكان بعض المحللين من الجمعيات الأخرى يدعوة عادة كضيوف • وقد حضرت هناك مرات عديدة ووجدت هذه الاجتماعات ، حيث كان المحاضرون المنتقون يحاولون تقديم خير ما عندهم ، وكانت هذه الاجتماعات تبدو اكثر

تشويقا من اجتماعاتنا العادية • وكانت مناقشة فرويد للموضوع ضوءه الساطع • وأذكر خاصة مناسبة ألقى فيها الدكتور نونبرج محاضرة عميقة ولكنها نظرية للغاية • فافتتح فرويد ملاحظـــاته بأن ذكرنا بلوحة ذائعة الصيت فى فيينا من عمل موريس فون شفيندت تمثل حادثة من أسطورة القديس فولجانج • تظهر الشيطان الذى أبرم مع القديس اتفاقا يقضى أن يمده بالحجارة اللازمة لبناء كنيسة (وقد خدع طبعا فى هذه الصـــفقة) فشرع الشيطان يدفع قدرا جسيما منالصخور ويكومها فوقبعضها البعض دون نظام • بينما يظهر القديس فى الخلفية من الصورة وهو يصـلى فى محرابه هادىء النفس مرتاح الضمير • وقال فرويد : « وكان دورى هو دور الشيطان فقد كان على أن اقتلع الاحجار من محجرها وكنت اســر عندما انجح فى تكوينها كيفما اتفق حتى كونت شيئا يشبه البناء • لقد كان على أن أؤدى العمل السريع معجلا • والآن جاء دوركم ويمكنكم أن تتأملوا فى هدوء وتضعوا خطة لبناء متناسق ، وهو أمر لم تتح لى الفرصة لأدائه أبدا» • وكان هذا أسمى مديح • ولكن يكمن خلفه ظل من التهكم ، ذلك التهكم المعروف عن فرويد •

وحلت محل الصلات الانسانية التى لا تستقيم الا على ود واخلاص صلة من نوع جديد غير منتظر• لم يكن فرويد كلفا بالكلاب ، ولكنه اختبريا كثيرا وبارتياح ظاهر عن كلب جميل يخص أحد المرضـى الذين يترددون للتحليل ، كان يصحب صاحبه أثناء الســاعة التى يستغرقها التحليل • وتحدث فرويد بأعجاب عن دقة هذا الكلب وذكائه قائلا : كان عندما يدخل الحجرة يتجه صوب مكانه المعتاد • ويقبع هناك دون أن يصدر عنه ما يزعج من صوت أو حركة • فاذا ما انتهت ساعة التحليل نهض فى موعده واقترب من المقعد وأتى من الحركة ما يمكن التعبير عنه بالكلمات التالية : « كفانا الآن هذا النوع من الأشياء • ودعنا نذهب من هنا » •

وكانت ابنته « انا » المكلفة بالكلاب تمتلك كلبا الزاسـيا كبيرا يدعى رولف وكان ظريفا لطيفا لكنه ضخم بالنسبة لحجم البيت الصغير ، ولكن فرويد لم يحتج ضد صوته وضجيجه بل أصبح كلفا به غاية الكلف وأحب نباحاته التى كانت تسبب له من الازعاج قدرا ليس بالقليل • ثم قبل مضى وقت طويل اصبحت مارى ، أميرة اليونان (حفيدة لوسيان أخو نابليون) تلميذته وعاملة ممتازة فى مجال التحليل النفسى • ولما كانت زائرة دائمة لبيته وصديقة عائلته فقد سمعت ولا شك بقصة فرويد عن كلب المحلل أو لعل شعورها الدافىء ازاء كلبها ذلك الشعور الذى اسقطته على فرويد قد دفعها

الى أن تهديه كلبا • وكان ابناء ـ أو ابنة ـ الكلب التاتون الذى يخص الأميرة ويجمع فى سلوكه بين كبرياء النبيل وصفات رجل البلاط المصقولة • وأصبح فرويد شديد الكلف بالكلب وولديه ذوى العيون الصفراء ، والفمين القاتيين ، منذ ذلك الحين نادرا ما رأيت فرويد بدون أحد كلبيه • وكان رغم آلامه يوليهما خلال حديثة بعض الالتفات ويلاحظهما بعناية وبرقة • ويشرف على طعامهما وشرابهما بنفسه ، ويلاعبهما كما اعتاد أن يلاعب خاتمه •

وعلى هذا النحو كانت تمضى السنون • وكل منها يضيف مزيدا الى العبء الثلاثى ، الشيخوخة ، والألم ، والتهديد باللوت الوشيك •• ولقد خفف عنه ولا شك ما أحاطه به الملتفون حوله من عناية حانية ورعاية متفانية ، وخاصة ابنته الصغرى ولكن كان عمله الشىء الوحيد الذى لم يطرأ على موقفه منه أدنى تغيير وكذا موهبته، على التفكير المتجدد المستقل، واصراره على التمييز بين الحقيقة والزيف • فقد كان ذلك جزءا لا يتجزأ منه مثل نفس الحياة الذى يتردد بين حناياه •

وكنت فى كل مرة أحضر فيها الى فيينا اتبين فى شخصه على ، مدى الزمن ، تغيرا طفيفا ، حتى استحال الرجل النصف الذى عاشرته طويلا شيخا ، حانيا ، شائبا ، بائن التحول • ولكنى كنت أجد روحه قوية لم تهن منها السنون ، حرة من الموانع مثلما كانت من قبل •

وقد غادرت فى تلك الاثناء برلين وحططت رحالى فى يوسطن واصبحت دون علم منى فى طليعة حركة نامية • وكان هتلر قد تسنم منكب السلطة قبل أن اغادر برلين بعام واحد وكنت اتطلع بقلق زائد الى السحابة السوداء التى خيمت على أوروبا ، لأنه اذا اتيح لها الوقت لتنتشر ، فستكون التمسا فريسته المنتظرة ، ولم تكن خطط هتلر عن الحرب والغزو سرا ، فقد أعلنها على رأس العالم ليسمعها جهرا •• وكان السؤال المتواتر هو : هل يتاح له من الوقت فرصة لينفذ ما يهدد به وهل يباح له التصرف على حرية دون أن يكبح جماحه كابح ؟ وهل حانت اللحظة التى أضحت فيها الحضـــارة الأوروبية على شفا الانهيار والانحدار ، بعد أن اكتملت الدائرة ، مثلما حدث من انهيار الدولة الرومانية وانحدارها ؟ •

ولم تكن هذه الأسئله ماثلة فى ذهنى بنفس الوضوح الذى صارت اليه فيما بعد ولكنى كنت مثل كثيرين غيرى أشعر بوطأتها الشديدة • !

وقد واصل فرويد عمله خلال الاعياء ، وتحت نير الألم ، ورغم عبء الشيخوخة • وكان حينذاك يدرس المراحل المبكرة من تاريخ بنى اسرائيل، ويكتب كتابه الأخير : « موسى والوحدانية » وفيما هو منهمك فى هذا العمل بلغ عيد ميلاد الثمانينى (١٦ مايو ١٩٣٦) • ولم أتمكن فى تلك الاثناء من ترك عملى والعودة الى أوروبا ، بل كان على أن انتظر الى أن يحين موعد اجازتى • فوصلت بعد شهرين من عيد ميلاده الثمانين الى أوروبا واتجهت الى فيينا مباشرة • وكان فرويد قد انتقل ليقضى الصيف بمنزل ذى حديقة كبيرة بضاحية من ضواحى المدينة وكانت فيمامضى قرية صغيرة تدعى جرينتسيج • وهناك كان جدى يملك منزلا كبيرا ذا حديقة واسعة وبستانا للكروم حيث قضيت كل أصياف طفولتى • وما من مكان فى الدنيا يثيرنى بعـــاطر الذكريات مثل ذلك المكان الذى أضـــفت اليه الآن ذكرى جديدة • ذكرى آخر لقاء لى بفرويد فى فيينا • وكان ذلك الرجل الذى لا يكل من السير ، كان يصعد السلم درجة درجة على اعياء وذلك ان صحت صحته وكان فى أوقات أخرى يتحرك مستقرا على كرسى ذى عجلات بينما أسير بجواره محدثا •

وقد تحدث الى عن عمله دون اطالة ، واشـار الى الأشـياء المثيرة للاهتمام فى حديقته ، وسألنى عن حال التحليل النفسى فى الولايات المتحدة وعن وضعى الشخصى فى القطر الجديد •• ولم يغير ثنائى على امريكا ، كما عرفتها ، من فتوره القديم نحوها •

وقد اخبرتنى عائلته بما تم فى عيد ميلاده • لقد أبقى فرويد نفسه رهين الوحدة ولم يشترك فى أى اجتماع عام ولم يسـمح لأى زائر أقبل مهنئا بمقابلته ، عدا أفراد عائلته وأخلص أصدقائه • واطلعونى على الكلمات التى وجهت اليه من عدد غفير من « ممثلى » عصـره ، ومنهم العلماء المدرسيون ، والفنانون ، ولكن شكلا من أشكال التكريم الذى تم فى حضرته، ترك فى نفوس الموجودين أثرا بعيدا • فقد قرأ توماس مان لفرويد وعائلته، وفى خصوصية مشـــددة ، الكلمة التى ألقاها فى الاجتماع العام تكريما لفرويد • (وقد نشر المقال فى حينه ، وهو الذى أشرت من قبل الى أنه خير ما وصف به فرويد عمقا وفهما) •

ثم اضطر فرويد فى صيف ١٩٣٦ ، أى فى مدى أقل من سنتين ، الىأن يغادر البلاد هاربا منفيا عن المكان الذى بدأ فيه عمل حياته وانجزه • ولم يكن من جراء ذلك منزعجا ولا مندهشا عندما وقعت الواقعة •

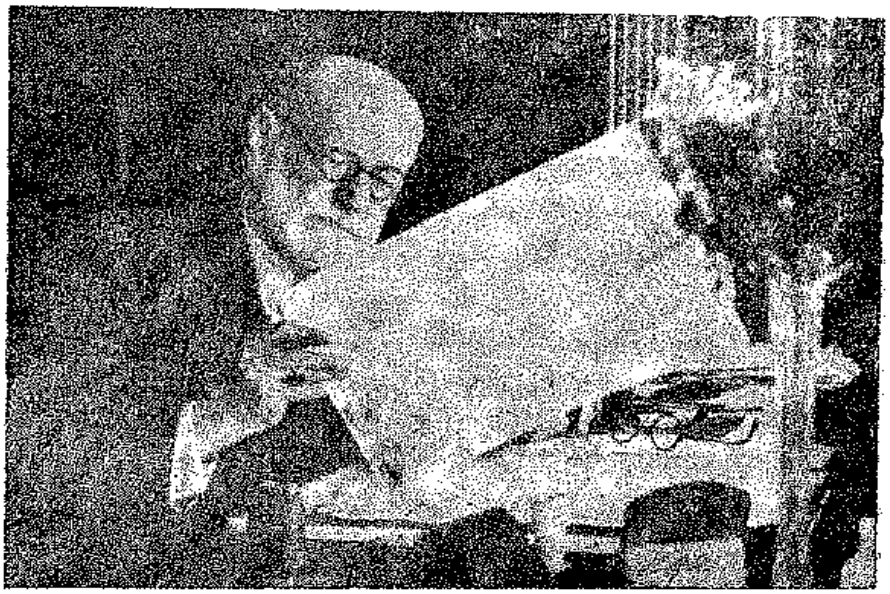

فرويد يراجع بروفات كتابه « موسى والوحدانية »

الرحيـــــل

وقع المحذور المحظور الذى كان يلمح فى عالم الغيب المقدور : فقـــد زحف هتلر بجحافله واحتل النمسا ، ووقف العالم يشاهد ما يجرى من احداث دون أن يحرك ساكنا • وعندما تبين النازيون ذلك ســـــــارعوا بالقاء كافة الضوابط والقيود ادراج الرياح وعمدوا من ساعتها الى اطلاق العنان لقسوتهم ، واصبح الارهاب ، وهو الأثير الى قلوبهم دوما ، السلاح الذى يرتكزون عليه ، ولم تتعد ضروب الوحشية التى اقترفت خلال خمس سنين فى المانيا ــ وكانت تفوق كل حسبان ــ ماأتوه خلال الأيام القلائل الاولى من الاحتلال ثم اخذت فى التزايد بأستمرار •

لا شـــك ان جانبا كبيرا من هذا قد خططت معالمه من ، ولكنه نما بوفرة مذهلة فوق التربة الخصبة التى قدمتها فيينا • فقد فقدت المدينة العجوز صوابها اياما بل أسابيع ، وعاش أغلب سكانها فى حالة من النشوة الزائدة ، فكان الهواء الذى يتنفسونه يشملهم • (وهذا قائم على وصف أكثر من شاهد عيان موثوق به) •

ولم يكن السبب الحقيقي لهذه النشوة العامة الحماســة السياسية والعداء لليهود • فهو لايمكن أن يدركه الا من يعرف ماتعنيهالكلمة «Hetz» بالنسبة للذهن الفينوى • (الكلمة مثل اغلب التعبيرات المحلية غير قابلة للترجمة ، ولعل النشوة الثائرة ادنى ماتكون الى معناها) • كانت حينذاك مرغوبة اكثر منها فى أى وقت آخر • اذ لم يحدث شىء منذ سنين ــ منذ نهاية الازمة الاقتصادية ــ لوضعحد للضنك العام المتزايد والبطالة • ولم يخفف من وطأة الأزمة شىء من الدراما ، فلم يكن لها من السمات شىء غير الامحال والقنوط • وماهو ذا التغيير الفجائى قد حدث : فـاطلقت وعود النازى ودعايته الآمال من كل عقال ، وخلع التعصب علىكل ماحدث

الوانا زاهية براقة ، وخير من هذا كله ، أن عرضت المشاهد المثيرة فى كل مكان مجانا • فها هنا عرض عسكرى مشوق وهناك مظاهرة سياسية روعاء ، وبركن من شارع تمتهن امرأة حسنة الرداء ، وبركن آخر كاهن ملتح وقور يعرض لايذاء الغوغاء • وكان كل هذا مسليا بالنسبة لأولئك الذين لا يابهون لما يسببه مشهد من هذه المشاهد من عذاب ولا يتكلفون عناء التفكير فيما سينتج عنه من نتائج محتومة الوقوع •

وكان وضع فرويد قبل ان تقع الواقعة يعتبر بالغ الخطورة اذ قام النازيون بغزو البلاد ، فقد أحرقت كتبه رسميا فى برلين ، وكان اسمه فى مقدمة قائمة الاتهام • وقد عرضت عليه جهات عديدة عروضا لادارة مستشفى للأمراض العقلية ، مستقرا آمنا فى بلد أكثر حماية ولكنه رفض قبولها باصرار • وقرر ان يبقى ويدخل فى التجربة • ثم سلك سلوكه المميز بعد أن اتخذ هذا القرار : رفض أن يدع نفسه نهبا للقيل والقال وتضارب الآراء ونأى بأفكاره عن الموضوع • كان قراره ضربة لازب لا راد له وارتد عاكفا على عمله •

فى الأيام الأولى لوقوع الرزيئة النكباء لم يكن فى الامكان الوصول الى شىء غير الشائعات الغامضة المتضاربة • كما اننى كنت مشغول البال بخصوص أقربائى دائم الانشغال بأن أكون معهم على اتصال عسائى استطيع تنجيتهم عندما تواتى الحال • ولم يهون من قلقى عرفانى بانهم اناس ودعاء ورعاء ومن الميول السياسية براء • فقد بينت أولى التقارير ان الاضطهاد استشرى على عماء يصيب الجميع على السواء • فقد كان بين أقاربى الأبعدين صبى تخلف جسما وعقلا ، أنتزع من أحضان والديه، وهو طفلهم الوحيد ، وبعد مضى أيام قلائل تلقيا بطاقة بريدية تعلنهم ان الصبى قضى نحبه • ولم يعرفا أبدا ما اذا كان قد أغتيل أو لفظ انفاسه من الرعب ، واقتحمت فرق العاصفة بيوت من أخذوهم بالشبهات ، وسلبوا من الأثرياء النقود والجواهر ، نهبوا من الفقراء زادهم القليل • وكان حظ بعض أصدقائى ومعارف القدماء الاغتيال أو الزوال فى معسكرات الاعتقال ، وكانوا جميعا ، بلا استثناء ، اشخاصا أسوياء لا يخطر صدور الضر عنهم ببال ، انتزعوا من متاجرهم ومكاتبهم أو أعمالهم وما عرفوا لا هم ولا جلادوهم بأى ذنب يعذبون •

وخلال هذه القلاقل حاولت عبثا ان اتحرى عن فرويد وما جرى له صحاح الأنباء • وقد حصلت على أول نبأ هدأ من أسوأ مخاوفى بفضل

دكتور ميريل مور الذى ابان فى هذه المناسبات وفى اخريا تعن انه خير صديق ان حل الضيق وادلهمت الملمات • فقد جعلنى على اتصال برجل طيب يعمل بالاسوشيتدبرس استطاع أن يؤكد لى مرارا سلامة فرويد الشخصية من كل سوء • وبعد أسابيع قلائل عرفت المعالم العامة للاحداث خلال أشد الأوقات حرجا • أما التفاصيل الجوهرية الخاصة بفرويد فقد أحطت بها علما بعد انقضاء اكثر من عام ، أثناء اقامتى بلندن بفضل أفراد اسرته •

عندما تواترت الانباء حضر الى فيينا على جناح الطير ارنست جونز من لندن كما حضرت مارى ، أميرة اليونان ، من باريس • وقد كون هذان بالاضافة الى السيدة دورثى برمنجهام التى عاشت فى فيينا ، كعضو فى أسرة فرويد ، نوعا من الحرس الشخصى وقد استخدم هولاء نفوذهم لدى ممثلى بلادهم الدبلوماسيين ، ولكن لما كان فرويد مواطنا نمساويا لم يستطع هؤلاء القناصل ومبعوثو البلاد الأجنبية أن يفرضوا حمايتهم الرسمية • ولكن احتمال تدخل أحد أعضاء هذه السفارات ــ أن اقتضت الحال ــ حال دون وقوع الأحداث الجسام • فلم يكن الوقت بعد أمام النازيين كى يثيروا أزمات دولية • وعلى هذا النحو جنب فرويد الاهانات والامتهانات الشخصية التى انصبت على الألوف من شيوخ الرجال والنساء المستضعفين فى الأرض بقصد تلقين الجيل الجديد مشهدا شائقا ومثالا يحتذى •

وفى ايام الروع والانهيار هذه عندما امتنع على فرويد علاج مرضاه عكف بكليته على عمل من نوع آخر • فقد استغرق فى ترجمة كتاب صغير من تاليف الأميرة مارى عنوانه « توبسى Topsy » تصف فيه موقفها المتغير ، وعطفها وحدبها المتزايد على كلب من كلابها كان يعانى قرحة فى الفم ثم انقذ من الموت بفضل عملية ناجحة •

وبينما كان فرويد مستغرقا فى هذا العمل ، الذى يروى خمود الحياة ثم بعثها ، جنبت فراوبرفسور بفضل حذقها فرويد وعائلته بعض المنغصات • فقد حدث أن اقتحم أفراد من فرق العاصفة الطابق الذى يقطنه فحييتهم السيدة العجوز البائنة النحول بأدب ودعتهم الى الجلوس بطريقة اشاعت الاضطراب فى نفوسهم بعض الشىء ــ وكان هذا أمرا نادرا منهم فى تلك الايام ــ فنسوا فى ربكتهم نهب الفضيات وغيرها مما خف حمله وغلا ثمنه • بل نسوا كذلك أن يشرعوا فى تحطيم الأثاث وتمزيق السجاجيد نثائر مثلما فعلوا فى بيوت أخرى كثيرة • واكتفوا بدلا من ذلك بطلب

خمسة آلاف شلن (عملة نمساوية) نقـدا • فذهبت فراوبروفسور الى مكتب زوجها وعندما اخبرته أن بعض فرق العاصفة بالخـارج يطلبون خمسة آلاف شلن رفع رأسه لحظة عن عمله وقال : « لم يدفع لى أحد فى زيارة واحدة كل هذا » • وقد دفعت النقود وصرفت الرجال •

وفى نفس الوقت استمرت المساعى للحصول على تصريح بمغادرة البلاد فقد دعت الحكومة الانجليزية فرويد للاقامة بانجلترا ، الى أن صدر الاذن بذلك آخر الأمر دون كبير عناء • وقد صادر النازيون بطبيعة الحال كل ما طالته أيديهم • فاستولوا على دار النشر الخاصة بالتحليل النفسى والمعهد والعيادة ، وكل ماصادفوه فى طريقهم • ونجحت الاميرة مارى فى أن تسترد مجموعات فرويد من التحف ومكتبته اللتين صاحبتاه الى انجلترا، مقابل التضحية بمبلغ كبير • أما الكتب التى صدرت عن دار النشر فقد صدر الأمر بابادتها • وليت الأمر اقتصر على ذلك ، فقد نزع النازيون الى اظهار الروح الحقة لسفالتهم ، ومقدرتهم الفريدة على سـوء استخدام السلطة فاستدعيت انا وفرويد بادىء الامر الى ثكنات الجستابو وعرضت لاستجوابات دامت ساعات عديدة بقصد الحصول على اقـرار منها عن كيفية تهريب النقود خارج البلاد او اخفائها • ولما لم تجـدهم هذه المحاولات شيئا ، لجأ النازيون الى آخر عمل يدل على الضعة والنزوع الى التخريب • ذلك أن دكتور مارتن فرويد ، وهو الابن الاكبر لفرويد ، الذى راس دار النشر فترة من الوقت كان قد احتاط للظروف وارسل جانبا من مجلدات الأعمال الكاملة التى تمثل خير ما انتجت الدار الى سـويسرا لتحفظ فى مخزن هناك تحت حمـاية دولة محـايدة • فكرمت السلطات النازية فرويد بقرارها انه لن يسـمح له أو لابنـه بعبور الحدود الا اذا أحضر هذه الكتب الى فيينا على نفقته الخاصة لكى تحرق فحسب ، تحت اشراف المسئولين • ولم يأذنوا له فى الرحيل الا بعد أن أجبروه على أن يساعدهم فى القضاء على آخر اثر لنشاطه العلمى • وقد احرقت الكتب ، وحلت الجماعة ، وصودرت المقتنيات والمدخرات ، وانقرط عقد الاتبـاع وانتهى كل شىء • أو هذا ما خطر ببالهم على الأقل •

وعندما حل فرويد بباريس قدم لتحيته سفير امريكا لدى فرنسـا ، واستقبل فى انجلترا بمزيد الترحاب • كما استقبله المسئولون الرسميون والمعاهد العلمية بالاحترام والتوقير • واطنبت الصحف فى الحديث عنه لدى وصوله • ولكنه سرعان مانأى بنفسه عن كل هذا وعاد الى وجوده ـ أعنى الى عمله ـ بنفس الطريقة المثابرة الدؤوب التى عهدت منه كـان

امرا جللا لم يحدث فنقله من رقم ١٩ شارع برجشتراسه الى رقم ٢٠ مارسفيلد جاردنز ٠

وعندما اتيحت لى الفرصة لاستانف مراسلاتى معه وقد انتهزتها دونما امهال رغم ان رسائلى غالبا ما كانت على ندرة وتباعد ٠ ولم يكن الكسل هو الباعث على ذلك ، بل ضميرى ٠ فقد كنت اعرف أن مراسلاته تستغرق جانبا من وقته ليس باليسير ، كما كنت أعرف نتيجة التجربة انه يجيب على كل خطاب يتلقاه فى الحال ٠ ولذا لم اكن اكتب اليه الا اذا رغبت اطلاعه على امر على قدر من الاهمية او استطلاعه بشانه ٠ وكان الباعث الاقل وضوحا هو ابائى الاندماج فى زمرة اولئك الذين يحاولون ان يقتحموا عليه خلوته ــ وهو ما منعنى من أن اكون فى عداد اولئك الذين شعروا انهم ملزمون او مخولون حق تقديم هدية اليه فى عيد ميلاده السبعينى (وقد قدمت اليه بدلا من ذلك فى زيارتى لفيينا تمثالا صغيرا لاله الأسرة ، احضرته من جواتيمالا) ٠

ثم اعلنت فرويد بخطتى فى العودة الى اصدار مجلة ايماجو التى تبنيتها فى فيينا زهاء ثلاثين عاما وخامرتنى الرغبة فى اعادتها الى الحياة ، هنا فى هذا البلد ، كمجلة دورية باللغة الانجليزية ٠ فاجابنى بخطاب فى ١١ يولية ١٩٣٨ : «ان خطتك الهادفة الى اصدار ايماجو جديدة باللغة الانجليزية لم تقع من نفسى باديء الأمر موقع الرضى ٠ وكان السبب هو اننا قد عقدنا العزم على ألا ندع الضوء يخبو فى المانيا تماما ، وفى نطاق هذا الغرض قررنا أن نلتمس مساعدة دار نشر محايدة أو انجليزية تقوم بنشر دورية جديدة كوريثة للدوريتين اللتين انقرضتا مع الاحتفاظ بعنوانيهما على صفحة الغلاف ٠ فلم يبد لى عمليا خلق أخت جديدة اسمها ايماجو تمنع الرى عن مجلتنا ، أو تمتص لبنهما بعبارة أصح ٠ ولكن الآخرين « يعنى انا فرويد وارنست جونز » وقفا من رأيى هذا موقف المعارضة ، فلم يفكرا كثيرا فيما نجم من خطر واكدا اهمية دورية جديدة فى بلدك يلتقى على صفحاتها اصدقاء التحليل النفسى ٠ وعلى هذا فقد سحبت اعتراضى وابديت آسفى مقترحا أن تدعى دوريتك « امريكان ايماجو » معلنا مؤازرتى لمشروعنا الجديد ٠ وانى لعلى استعداد لأن اقبل رئاسة تحريرها واتمنى أن اتمكن من تقديم المزيد ٠٠٠٠٠ » ٠

وقد صار هذا الخطاب حجر الأساس بالنسبة للامريكان ايماجو ، وصدر العدد الأول منها فى نوفمبر ١٩٣٩ ٠

وكان خطاب فرويد التالي المؤرخ في أغسطس ١٩٣٨ ، تعبيرا عن استجابته لمخطوط مقال لي عنوانه « القسط في قسط بقسط » · وقال عنه « خير كل ما قرأت من كتاباتك » وأضاف مزيدا من الثناء الخاص بالمقال ·

اما خطابه الثالث والأخير (١٢ مارس ١٩٣٩) فليس التعليق عليه بلازم أو ميسور وذا جانب منه « دهشت اذ وجدت في الكوم المتجمع على مكتبي ، خطابا منك مؤرخا في ١٣ فبراير · ولست ادري ماذا كنت قد خمنت السبب الحقيقي لسكرتي أم لا ، ولكني أشعر على اية حال بأني مضطر الى تأييد ظنك وايضاحه » ·

« حقيقة الأمر هي اني أعاني آلاما متواصلة منذ أن أجريت عمليتي في شهر سبتمبر ، آلاما في الفك لم تنقطع بعد أن انتزع جزء من العظم · خلاصة القول ، الأبحاث العديدة اثبتت هي أن مرضي القديم قد عاودني وكان العلاج الذي استقر عليه الاجماع يقوم على الجمع بين أشعة اكس من الخارج والراديوم من الداخل ، وانه على أقل تقدير أخف وطأة من حز عنقي وهو البديل الذي لا يوجد سواه عن هذا العلاج الذي يعد بأطالة حياتي بضعة أسابيع أو بضعة شهور· ويأمل الأطباء من علاجهم امكان الوصول الى فائدة مجدية · على اية حال لست أخدع نفسي في احتمالات النتيجة النهائية لمن هو في مثل سني · فاني أشعر بالتعب والاعياء نتيجة لما فعلوه بي وهو مثل غيره من وسائل في التأدي الى النهاية التي لا مفر منها ، ورغم اني ما كنت لاختاره بنفسي ·

« ان كتاب موسى » ، وقد طبعه بالألمانية الرت دي لانج ، رأى النور اليوم في نسختين ·وأعتقد انها طبعة جيدة · وقد حصلت الأميرة ماري التي تقيم معنا على احداهما ·

« وتعتقد أنا وأشاركها اعتقادها ، ان العنوان « أمريكان ايماجو بالنسبة لدوريتك المبعوثة من جديد لا غبار عليه ·

« أني أهنئك على التئام شملك وعائلتك واحييك بنفس الود المعهود »

وعندما تمكنت بعد أربعة شهور من هذا الخطاب ، اي في يولية ١٩٣٩ من تحقيق رغبتي القصوى والقيام برحلة الى انجلترا ، لم اكن قرير النفس ولا متفائلا ، ولكن اتضح أن الواقع أشد تثبيطا للهمة مما كان منتظرا · ورغم كل هذا · فانها احدى الذكريات الغاليات في حياتي ·

كنت اعرف انى ذاهب الى آخر لقاء لى بفرويد ـ وباوربا · فقد كانت سحب الحرب تخيم قريبة من رؤوسنا فى تلك الأيام حتى انه فى امريكا كان كافة الذين لا يغمضون عيونهم متعمدين يشعرون بالعاصفة الزاحفة· ولم يكن يضايقنى ادنى شك فى وقوع كلا الحدثين المؤسفين المتواترين ، اى الحرب والدمار · ولكن الدهشة الكبرى ـ والمضايقة ـ كانت فى ذلك الموقف المستخف المخادع للذات الذى لقيته فى انجلترا · وفوق هذا كله كاد لى مناخ لندن كيده المعهود · فكان بالنسبة لى باعثا قويا على تذكر التهابى الرئوى القديم واضطررت الى التزام الفراش بعض الوقت بأحد الفندق وقضاء اسبوع أو اسبوعين فى الريف · وفى القطار الذى اقلنا من بلايموث الى لندن كانت الستائر مسدلة والمدينة غارقة فى ظلام دامس، فقد كانت ليلة من الليالى التى تختبر فيها قدرة المدينة ازاء الغارات· وحول لندن من جميع الجهات كانت المناطيد المانعة تطفو على اسلاكها الفولاذية·وكان فى هايد بارك مدفع هائل مضد للطائرات تتجه فوهته أسوب السماء متحدية ولكن كان الأمر المثير للدهشة أن هذه الارهاصات بوقوع كارثة رهيبة ما كانت تؤخذ مأخذ الجد ـ أو ، لكى يكون المرء منصفا ، كان هناك شعور باهميتها ولكنها كانت تعتبر امرا مزعجا لا مفر منه ، يلزم تحمله الى أن تعود الظروف لمجراها الطبيعى · وكان الناس يتحدثون عن الحرب كما يتحدثون عن زيارة الى طبيب الأسنان : أى انها أمر لا يسر قد يسبب قدرا من الألم ولكن ما باليد حيلة وسيزول سريعا · حتى ليخيل الى المرء أن ذلك الولع الانجليزى بالبرود ـ ان أمكن التحدث عن الولع بقتل الاهواء ـ قد حال دون تبصرهم بحقيقة الحال ·

كما كشفت بعض الاجراءات الوقائية حتى لعين المشاهد القادم لأول مرة عن نفس الظاهرة الغريبة · فقد شاهدت بحديقة فندق فى اسكوت والذى قضيت به فترة مرضى خندقا بمنتصف الحديقة يبلغ عمقه ثلاثة اقدام واساعه اربعة اقدام ، يسرى فى خط معرج لا أول ولا آخر له · وعندما سالتهم عما يمكن أن يعنيه هذا الخندق أجابونى بأنه الدفاع الحربى ضد الغزو ، وقد أجرى تنفيذه بحسب نصيحة المسئولين · كما شاهد تفى لندن بعض المخابىء الأولى التى شيدت للوقاية من الغارات الجوية ولكن احد الأصدقاء الذين خبروا كيفية القاء القنابل اثناء الحرب العالمية الأولى اكد لى ما احسست به عندما أخبرنى انه يفضل فى حالة حدوث غارة جوية اكثر المواقع تعرضا للقنابل على الوقوع فى شرك واحدة من هذه المصائد البشرية ·

وليس معنى هذا أن تحمل هذه الملاحظات محمل النقد لكفاءة الانجليز ومقدرتهم ، فما ذكرتها هنا الا لابين ذلك الشعور الذى تملكنى ولم تستطع المشاهد الطبيعية الانجليزية أن تحررنى منه · فقد تبينت بجلاء ما جعل دمائى تقشعر ان العقلية الانجليزية لم تكن تعى ماهية الحرب ، ولذا فهى عاجزة عن أن تتبين مقدما حقيقتها · كان الناس يعرفون أن الحرب قد فرضت عليهم ولكنهم لم يدركوا ولا أرادوا أن يدركوا معنىالحرب الخاطفة بينما انكب الالمان من جهة اخرى على هذا العمل بكل مالديهم من طاقة وبطريقة تتفق مع عقليتهم التى تستهدف السيادة مستمدين لذة من تكريس كل قواهم فى سبيل كل تفصيلة من تفاصيل الحرب ·

وكان الجو المحيط بفرويد مشابها للجو المحيط بهذا البلد الذى تتهدده الحرب · فكل شىء حوله يلوح مسودا بالسلام منعما بالهدوء · كان المنزل مريحا حسن التهوية وتفضل حجراته كثيرا عن حجرات صنوه بفيينا·· وكانت حديقته متوسطة الاتساع اقيم بمنتصفها حوض للزهور واشجار عتيقة تحف بالجدران · وكانت انا فرويد قد واصلت عملهـا فى تحاليل الاطفال · واستطعت أثناء حضورىأحد الاجتماعات أن اتبين أن المستوى العلمى لا يقل عن المستوى العلمى بفيينا · ولكن خلف هذا الغشاء الرقيق من المظاهر الخارجية تتضح الحقيقة المروعة ، حقيقة وجود الالم الذى لا ينقطع والعذاب الذى لا يفتر ، حقيقة تتحيز الى جانب الموت ، الا أن موقف فرويد ازاء الموت الزاحف كان يختلف فى نقطة واحدة عن الموقف العام ازاء الحرب الوشيكة الوقوع · فقد رفض فرويد حينذاك كما بين فى خطابه ، أن يتخفف من عبئه بخداع ذاته أو بالجهل الارادى · فقابل قدره على ثبات ورسوخ دون أية محاولة ليضفى على ذاته مظهرا دراميا جاعلا من الانفعال ملجأ له ·

كنت طوال اقامتى بلندن اتردد على منزله يوميا ، وكانت تانت مينا ــ وقد قضت نحبها سريعا ــ قد فقدت بصرها تقريبا وتستخدم عصا لتقود خطاها من حجرة الاستقبال الى السقيفة ، ولكن حديثها كان لايزال مشوبا ببعض الاهتمام بفرنتان وقد أخبرتنى وفراوبروفسور بعض القصص عن حالة فيينا بعد الغزو وقد اكسبت طريقتها الهادئة الحازمة فى الحديث هذه الأهمال وحشية تفوق الخيال ·

وقد رايت فرويد نفسه مرارا ، ولكن لفترة قصيرة من الوقت · وقد علمت أن آلام فمه تحول بينه وبين النوم أثناء الليل · وكان يغفو من حين لآخر نصف ساعة أو نحوها على فراش متحرك · وكان يبدو مريضا اشد

To: www.al-mostafa.com

المرض ، وعجوزا الى حد لا يعقل • وكان من الواضح ان اية كلمة ينطق بها ان هى الا على حساب صحته وعلى حساب جهد اكبر من طاقته • ولكن كل هذه الصنوف من البلاء لم تهن من عزيمته المضاء فقد تبينت انه لازيال يحافظ على ساعات عمله التحليلى كلما خفف عنه الألم وطاته وانه لايزال يكتب خطاباته بخط يده كلما واتته على الامساك بالقلم قدرته •

وقد حادثني ذات مرة عن حالة التحليل النفسي بأمريكا وتبينت بمزيد الدهشة انه لايزال يحافظ على معرفة كل شيء عنه مثلما كانت حاله منذ ثلاثين سنة خلت فقد ناقش المشاكل والشخصيات المرتبطة بحركة التحليل النفسى فى أمريكا على دراية بكافة التفاصيل •

وكنا اغلب الوقت الذى قضيناه سويا ــ مع العائلة والأميرة مارى التى كانت ضيفهم الدائم ــ نجلس بركن من الحديقة ونتطلع صوب حوض الزهور حيث استقر فرويد بجواره يروح أحيانا فى اغفاءة خفيفة أو يداعب كلبه الذى لم يترك جانبه دقيقة ولكنى لم أسمعه مرة واحدة يشكو ، فما من أنة او نامة أسف ندت عن شفتيه •

ثم حانت ساعة الرحيل • ولما كنت أعرف شـــعوره ازاء المواقف الانفعالية فانى لم اقل غير بضعة كلمات عابرة عن رحلتى وبعض مهام التحليل النفسى التى تنتظرنى حين عودتى • فقال هو يشـد على يدى: « اننى أعرف أن لى على الأقل صديقا واحدا فى أمريكا » •

وكانت هذه آخر كلمات سمعتها من شفتيه •

مؤلفـات

دراسات أدبية :

١ ـ ميخائيل نعيمه ، حياته الروحية

٢ ـ اريك ماريا رمارك ، صباح الانسان والايديولوجية

٣ ـ اينياتسيو سيلونى ، المحنة والخلاص

٤ ـ ارثر كويستلر من الايديولوجية الى المطلق

٥ ـ العبقرية ومشكلات العصر

فى الدراســـات الحضـــارية :

١ ـ المطلق والايديولوجية او ثورة الروح وثورة الجماهير

٢ ـ محنة جيلنا أو همجية العصور الحديثة

فى الـــــرواية :

١ ـ مدرسة الرعب

٢ ـ النبيل والرعاع

فى الشـــــعر :

١ ـ كليلة ودمنة الصوفية

أعمال أخرى للمترجم

ترجمـــــات :

١ ـ مخلوقات كانت رجالا لمكسيم جوركى

٢ ـ فى معترك الحياة لمكسيم جوركى

٣ ـ نذير العاصفة لمكسيم جوركى

٤ ـ الأشـــــرار لمكسيم جوركى

فى المســـــرح :

١ ـ زيارة السيدة العجوز ديرنمات

٢ ـ زواج السيد مسيسبى ديرنمات

٣ ـ عوارندو دريدرش شيللر

٤ ـ الســـاجون جوهارت هويتمان

فى علم النفس :

١ ـ اللاشعور اللابداعى هانز ساكس

٢ ـ فرويد استاذى وصديقى هانز ساكس

رقم الايداع ٨٥/٥٣٣١

الترقيم الدولى ٦ ـ ٠٧١٦ ـ ٠١ ـ ٩٧٧

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

هـــذا الكتـــاب
مـــلك الأستاذ الدكتـــور
رمـــزى زكـــى بطـــرس

فرويد استاذى وصديقى

مؤلف هذا الكتاب اديب فنان ٠ ٠ شـده الى علم النفس قصد استكشاف ينابيع الأدب والفن فى النفس البشرية ٠٠ حتى اصبح علما من اعلام الطب النفسى والعقلى فى العالم ٠

وقد عاشر استاذه وصديقه « فرويد » فى فينا ، زهاء نصف قرن ، معاشرة الصـديق الحميم ، والتلميذ التـابع المقيم ، فشـاهد « فرويد » فى مختلف مواقفه العلمية والعملية٠

١٥٠ قرشا

To: www.al-mostafa.com